

مواقف عربية خالدة

(2)

مواقف إيمانية

إعداد

دكتور . رجب محمود إبراهيم بخيت

المقدمة :

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداء وعده اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالسته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينّة والهدى ودين الحق فبلغ مآلكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصدده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى أتاه اليقين فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد .

أما بعد

فللخير في الأمة الإسلامية باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمهما ضعفت الأمة، ومهما تأخرت عن مكانها اللائق بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، ومهما عظمت المؤامرة عليها وتنوعت أدواتها، إلا أنها تبقى أمة خصبة، تنبت الأعلام العظماء، يكونون فيها كالمصابيح في الدجى، وتظل مواقف مواقف عزة وفخر لهم وللأمة الإسلامية كلها.

ونحن المسلمون إذا تصفحنا مواقف تاريخنا المديد نجد أعلاما للأمة في كل العلوم والآداب في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل وفي اللغة والفقه والحديث و..... وكلها آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر، وتؤكد بقاء هؤلاء الأعلام بيننا بعلمهم وعملهم وذكرهم العطرة ، فقد وعت ذاكرة التاريخ أمثلة رائعة من مواقف مشوقة لأعلام الأمة.

إن هذه الأمة أمة عظيمة، أمة كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلها، وما عرف المخاض مولوداً أكرم على الله منها، أمة تغفو ولكنها لا تنام، قد تمرض ولكنها لا تموت، أمة أنجبت للعالم أعلام في كل فن من الفنون وكل نواع من أنواع المعارف الإنسانية وأخرجت للكون أبطالاً شرفاء، ولنا اليوم وقفة مع أشهر المواقف في حياة الأمة لنقلب الصفحات ولنلمس العبر والعظات.

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر... ظل قوم ليس يدرون الخبر

و هؤلاء الأعلام بعلمهم وعملهم أحياء وإن وسدوا في قبورهم، وإن وارا هم التراب، وإن فقدت شخصهم، إلا أنهم أحياء بعلمهم وبتراثهم، ومواقفهم، بجهودهم، وبآرائهم، وباجتهاداتهم، وبأعمالهم التي كلما ذكرت ذكروا، فأثنى الناس عليهم خيراً، وترحموا عليهم، بل وكرهوا البقاء بعدهم.
عفاءً على أرض تقيم بغيرها فليس بها للصالحين معرج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبهرج
وليس البكا أن تسفح العين إنما أحر البكائين البكاء المولج

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.... مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله الحجة حتى يؤدونها إلى نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلنوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة في المحل الأعلى، آه.. آه.. شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك).

وهذه صفحات من حياة الأمة أودعتها مواقفاً من حياة الأعلام في مختلف المجالات ، ونتفأ مواقف أعلام الفقه والحديث والقضاء والأدب واللغة ، ونادراً من ثبات أكثر أهل الملة، ونبدأ من نصح الأمة لدينها، وشذراً من زهد العلية الأجلّة، وطيفاً من قوة البرهان والحجة مع السير على المحجة. وهي باقة من مكارم الآباء تهدي إلى الأبناء، وطاقات علمية نادرة، وعبقریات فذة مدهشة، هي لأهل العلم تذكرة، وللعمامة والخاصة تبصرة، نرجو أن ينعش بها العليل، ويشحذ بها الكلّيل، ويُبعث الوسنان، ويُوَقِّظ الهاجع، ويُنشر المطوي، ويُفتح المغلق، وينهض المقعد، ويمشي الكسيح.

أضعها بين أيديكم كالمائدة تختلف عليها أصناف الأطعمة لاختلاف شهوات الآكلين، وأنا لا أدعي -معاذ الله- أني أتيت فيها بجديد، ولكني -بفضل الله وحده - جمعتها من بطون الكتب لتكون بين أيديكم لعل الله عز وجل أن ينفع بها .
وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه .

رب تقبل عملي ولا تخيب أُملي
أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

التوكّل على الله

التوكّل لغة: مصدر توكّل يتوكّل وهو مأخوذ من مادّة (وك ل) الّتي تدلّ على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التّوكّل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان إذا ضيّع أمره متّكلاً على غيره والوكال في الدّابة: أن يسير بسير الآخر. وقال الرّاعب: التّوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، وتواكل القوم إذا اتّكل كلّ على الآخر، والاسم من التّوكيل الوكالة (بالفتح والكسر). والاسم: التّكلان، وتقول: اتّكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته، ويقال: فلان وكلة أو تكلة، أي عاجز يكلّ أمره إلى غيره، كما يقال: فرس واكل يعني يتكلّ على صاحبه في العدو، ويحتاج إلى الضّرب. والمتوكّل على الله: الّذي علم أنّ الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده، ولا يتوكّل على غيره.

قال ابن سيده: يقال وكل بالله وتوكّل عليه واتّكل بمعنى استسلم إليه، ويقال توكّل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكّل فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه، ووكّل إليه الأمر سلّمه، ووكّله إلى رأيه وكلا ووكولا: تركه.

والوكيل من أسماء الله الحسنى:

قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى «الوكيل» وهو القيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنّه يستقلّ بأمر الموكول إليه.

وقال الغزاليّ: الوكيل هو الموكول إليه الأمور ولكنّ الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكلّ، وليس ذلك إلّا الله، سبحانه وتعالى. والموكول إليه ينقسم إلى من يستحقّ أن يكون موكولاً إليه، لا بذاته ولكن بالتّفويض والتّوكيل، وهذا ناقص، لأنّه فقير إلى التّفويض والتّولية؛ وإلى من يستحقّ بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكّلة عليه، لا بتولية وتّفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق، والوكيل أيضاً ينقسم إلى من يفي بما وكلّ إليه وفاء تامّاً من غير قصور، وإلى من لا يفي بالجميع. والوكيل المطلق هو الّذي الأمور موكولة إليه، وهو مليّ بالقيام بها، وفيّ بإتمامها، وذلك هو الله تعالى فقط . وقد ورد لفظ «الوكيل» في القرآن الكريم مرّات عديدة «4» وذكر فيه المفسّرون أقوالاً منها: حفيظاً لكم ، كفيلاً بأموركم .

قال الشنقيطي في أضوائه: المعاني كلها متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد هو أن الوكيل: من يتوكل عليه، فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير ويدفع الشر.

وهذا لا يصح إلا لله وحده جلّ وعلا. ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه لأنه لا نافع ولا ضار ولا كافي إلا هو وحده جلّ وعلا، عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

من أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم: المتوكل. كما في الحديث: «... وسميتك المتوكل» وإنما قيل له ذلك صلى الله عليه وسلم لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره .

واصطلاحاً: صدق اعتماد القلب على الله- عزّ وجلّ- في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه .
وقال الجرجاني: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس .
والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:
قال ابن قيم الجوزية: التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل.
ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب.
وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ونهيه.
والتوكل متعلق بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية .

بين التوكل والاتكال:

إنّ الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النّجاح لله تعالى والثّقة بأنّه عزّ وجلّ لا يضيع أجر من أحسن عملاً، هو من التّوكل المأمور به، أمّا القعود عن الأسباب وعدم السّعي فليس من التّوكل في شيء وإنّما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونهى عن الأسباب المؤدّية إليه، مصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ، تدري ما حقّ الله على العباد وما حقّ العباد على الله؟» قال (معاذ): قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّ حقّ الله على العباد أن

يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله عزّ وجلّ ألاّ يعذب من لا يشرك به شيئاً» قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر النّاس؟ قال: «لا تبشّرهم فيتكلّوا» «8»، وهنا يضع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قاعدة جليّة، هي أنّ كلّ ما يؤدّي إلى ترك العمل أو ما يكون مظنةً للاتّكال أو التّواكل ليس من التّوكّل في شيء، وقد جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- ما يؤكّد هذه الحقيقة، ففي الحوار الذي رواه أبو هريرة عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وعمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- هذا الحوار- كما جاء في رواية مسلم: قال عمر: يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي، أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد ألاّ إله إلاّ الله مستيقناً بها قلبه، بشّره بالجنّة؟ قال: «نعم»، قال (عمر): فلا تفعل، فإنّي أخشى أن يتكلّ النّاس عليها، فخلّهم يعملون». قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فخلّهم يعملون» «1». ويفهم من الحديث والذي قبله أنّ الاتّكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وأنّ ذلك ليس من التّوكّل في شيء.

بين التّوكّل والتّفويض:

بين التّوكّل على الله وتّفويض الأمر إليه علاقة العموم والخصوص إذ التّفويض أوسع من معنى التّوكّل، والتّوكّل أخصّ من التّفويض، قال صاحب المنازل: والتّفويض أطف إشارة، وأوسع معنى من التّوكّل، والتّوكّل يكون بعد وقوع السّبب، أمّا التّفويض فإنّه يكون قبل وقوع السّبب وبعده، والتّفويض هو عين الاستسلام، أمّا التّوكّل فهو شعبة منه .

وقال ابن القيم: يعني بذلك من يفوّض أمره إلى الله يتبرّأ من الحول والقوّة، ويفوّض الأمر لصاحب الأمر من غير أن يقيم المفوّض إليه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التّوكّل، فإنّ الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل. وقال- رحمه الله تعالى-: لو قال قائل: التّوكّل فوق التّفويض، وأجلّ منه وأرفع لكان مصيباً، ولهذا كان القرآن الكريم مملوءاً به (أي بالتّوكّل) أمراً وإخباراً عن خاصّة الله وأوليائه، وصفوة المؤمنين، وأمر الله به رسوله في مواضع عديدة من كتابه، وسمّاه المتوكّل .

أمّا التّفويض فلم يجيء في القرآن الكريم إلاّ فيما حكاه المولى عزّ وجلّ عن مؤمن آل فرعون، وذلك قوله عزّ وجلّ: وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ (غافر/ 44)، ثمّ خلص إلى القول: إنّ اتّخاذ المولى عزّ وجلّ وكيلاً هو محض العبوديّة، وخالص التّوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة، وهو بذلك أوسع من التّفويض، وأعلى وأرفع.

بين التوكل والثقة بالله- عز وجل:-

نقل ابن القيم عن صاحب المنازل قوله: الثقة: سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض. وذكر من أمثلة ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن أم موسى فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي (القصص / 7) قال: فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها في تيار الماء، قال ابن القيم: والمراد أن الثقة خلاصة التوكل ولبه، كما أن سواد العين أشرف ما فيها، أما العلاقة بين الثقة والتفويض فتتلخص في أن الثقة هي التي يدور عليها التفويض، قال: وكثير من الناس يفسر التوكل بالثقة «. ومنهم من يفسره بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم ومقام التوكل يشمل ذلك كله.

قلت: ومما يدل على صحة ما قال ابن القيم من شمول معنى التوكل لكل من التفويض والثقة ما ذكره الإمام الغزالي في تعريف التوكل حيث قال: التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان: أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى المفوض إليه: متكلاً عليه ومتوكلاً عليه متى اطمأنت إليه نفسه ووثق به، ولم يتهمه فيه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزاً أو قصوراً، وهو (التوكل) عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

مواطن التوكل: إن التوكل على الله عز وجل مطلوب في كل شئون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحض على التوكل والأمر به للمصطفى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وقد ذكر الفيروز آبادي من ذلك: - إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا عليه: إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (آل عمران / 160)

- إذا عرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكل: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء / 81)

- إذا عرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (التوبة / 129)

- إذا تلى القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكل: وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (الأنفال / 2 مدنية)

- إذا طلبت الصلح والإصلاح بين قوم لا تتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (الأنفال / 61)

- إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكل:
قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
(التوبة/ 51)

- إذا نصبت الأعداء حبالات المكر فادخل أنت في أرض التوكل: وَاثْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي
بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ (يونس/ 71)

- إذا عرفت أن مرجع الكل إلى الله وتقدير الكل فيها لله فوطن نفسك على
فرش التوكل: فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (هود/ 123)

- إذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتكالك إلا عليه: قُلْ هُوَ
رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (الرعد/ 30)

- إذا كانت الهداية من الله، فاستقبلها بالشكر والتوكل: وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى
اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
(إبراهيم/ 12)

- إذا خشيت بأس أعداء الله والشيطان والغدار فلا تلتجئ إلا إلى باب الله: إِنَّهُ
لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل/ 99)
- إذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال، فتمسك بالتوكل في كل حال:
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء/ 81)

- إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التوكل: الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل/ 42)

- - إن شئت أن تنال محبة الله فانزل أولاً في مقام التوكل: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران/ 159)

- إذا أردت أن يكون الله لك، وتكون لله خالصاً فعليك بالتوكل: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (الطلاق/ 3). فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (النمل/
79).

وقد قال الله عز وجل: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: 159)

وقال الله عز وجل: " وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَخْتِيبُ مَا يُنِيبُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

اِخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
الرَّسُولِ وَالْيَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء: 81-83)

وقال الله عز وجل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (المائدة: 11)

وقال الله عز وجل: " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنفال: 61)

وقال الله عز وجل: " قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (التوبة: 51)

وقال الله عز وجل: " وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (هود: 123)

وقال الله عز وجل: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا
يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَنَلْ بِهِ
خَبِيرًا (الفرقان: 56-59)

وقال الله عز وجل: " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (الشعراء: 214-220)

وقال الله عز وجل: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (النمل: 76-79)

وقال الله عز وجل: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (الأحزاب: 1-3)

نعم الوكيل (الله- عز وجل) :-

وقال الله عز وجل : " يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران: 171-173)

وقال الله عز وجل : " وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء: 132)

وقال الله عز وجل : " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النساء: 171)

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خرج الرجل من بيته فقال:

بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت ووقيت فتتنحى (1) له الشياطين، فيقول له

شيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟ (2)

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها

وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» (3)

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو (4)

خماسا وتروح (5) بطانا (1)

¹ (تتنحى: تتأخر.

² (أبو داود (5095) واللفظ له. الترمذي (2426) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال محقق «جامع الأصول» (4/ 274): وهو حديث صحيح.

³ (الترمذي (2517) وهذا لفظه، وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس. الحاكم (623/3) وقال الذهبي في التلخيص: إسناده جيد، البيهقي في الشعب (3/ 1414) من حديث عمرو بن أمية الضمري، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء بعد أن عزاه للترمذي: رواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري، وقال: إسناده جيد. وذكره الشيخ الألباني في صحيح الجامع (4809) وقال: حسن.

⁴ (تغدو: تذهب أول النهار.

⁵ (تروح: ترجع آخر النهار.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبيّ ومعه الرّهيط⁽²⁾، والنبيّ ومعه الرّجل والرجلان، والنبيّ ليس معه أحد. إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنّهم أمّتي، فقل لي: هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقل لي: هذه أمّتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب. ثمّ نهض فدخل منزله فخاض النّاس في أولئك الذين يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب. فقال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم فلعلّهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكر أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون⁽³⁾، ولا يتطيرون⁽⁴⁾ وعلى ربّهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «أنت منهم»، ثمّ قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة⁽⁵⁾»

وعن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنّه قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصّحف⁽⁶⁾»

¹ (الترمذي (2324) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ابن ماجّة (4164) وهذا لفظه، أحمد (1/30)

وقال أحمد شاكر (1/343): إسناده صحيح، البيهقي في شعب الإيمان (3/378)

² (الرّهيط: مصغر رهط وهم الجماعة دون العشرة.

³ (لا يسترقون: لا يطلبون من أحد أن يرقّهم.

⁴ (لا يتطيرون: لا يتشاءمون.

⁵ (البخاري- الفتح (6541، 5705)، مسلم (220) واللفظ له.

⁶ (الترمذي (2516) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح، أحمد (1/293، 303) وقال

الشيخ أحمد شاكر: صحيح (4/293) برقم (2763)

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَجُولُ، وَبِكَ أَقَاتِلُ»⁽¹⁾

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تَضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»⁽²⁾

وكان موسى عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمَشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمَتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

قال الزبير بن العوام- رضي الله عنه:- كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود. قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهموه؟ قال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك. إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله- عز وجل- سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم رافعا بها صوته الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ " قال: ثم استقبلها يقرأها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون ما يقول ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا هذا الذي خشينا عليك. قال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها، قالوا: حسبك فقد أسمعتهم ما يكرهون. عن عون بن عبد الله قال: بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزبير⁽³⁾ مكتئبا معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له⁽⁴⁾ صاحب

¹ (الترمذي (3584) وقال: حسن غريب وقال: عضدي يعني عوني. أبو داود (2632) وهذا لفظه. وعزاه المزي في التحفة (1/ 342) إلى سنن النسائي الكبرى وعمل اليوم والليلة أيضا.

² (مسلم (2717)

³ (فتنة ابن الزبير: قتاله مع الحجاج.

⁴ (فسنح له: عرض له.

مسحاة، فقال له: يا هذا مالي أراك مكتئبا حزينا؟ قال: فكأنه ازدراه (1). فقال: لا شيء. قال صاحب المسحاة (2): ألدنيا فإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحقّ والباطل. فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه، قال: فقال: لما فيه المسلمون. قال: فإن الله سينجيك بشفتك على المسلمين، وسل، فمن ذا الذي سأل الله- عزّ وجلّ- فلم يعطه، ودعاه فلم يجبه وتوكلّ عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت لدعاء (3): اللهم سلّمني وسلّم منّي فتمحلت (4) ولم تصب منهم أحدا (5)

قال سعيد بن جبیر- رحمه الله:- التوكلّ على الله عزّ وجلّ جماع الإيمان. قال عياض الأشعريّ- رحمه الله تعالى: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد وعياض. وقال عمر- رضي الله عنه:- «إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال فكتبنا إليه: أنّه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه فكتب إلينا أنّه قد جاءني كتابكم تستمدوني وإنّي أدلكم على من هو أعزّ نصرا وأحضر جندا، الله- عزّ وجلّ- فاستنصروه فإنّ محمّدا صلى الله عليه وسلّم قد نصر يوم بدر في أقلّ من عدّتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. فقاتلناهم فهزمناهم وقتلناهم أربع فراسخ، وأصبنا أموالا.

قال شقيق بن سلمة أبو وائل؛ قال: خرجنا في ليلة مخوفة، فمررنا بأجمة (6) فيها رجل نائم، وقيد فرسه فهي ترعى عند رأسه فأيقظناه، فقلنا له: تنام في مثل هذا المكان؟ قال: فرفع رأسه فقال: «إنّي أستحي من ذي العرش أن يعلم أنّي أخاف شيئا دونه» ثمّ وضع رأسه فنام. قال الإمام أحمد- رحمه الله تعالى:- ينبغي للناس كلّهم (يتوكلّون) على الله- عزّ وجلّ- ولكن يعودون أنفسهم بالكسب فمن قال بخلاف هذا القول فهذا قول إنسان أحمق.

وقال أيضا: «الاستغناء عن الناس بطلب العمل أعجب إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي الناس.

(1) ازدراه: استصغر شأنه.

(2) مسحاة: مجراف من الحديد.

(3) فعلقت لدعاء: فاغتيمته.

(4) فتمحلت: فأنكشفت الفتنة.

(5) التوكلّ لابن أبي الدنيا (52) وقال مخرجه: إسناده صحيح.

(6) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

وقال أيضا: «صدق المتوكل على الله عزّ وجلّ- أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الادميين يطمع أن يجيئه بشيء، فإذا كان كذلك كان الله يرزقه وكان متوكلًا.

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى: «التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم.

قال ابن القيم والفيروز آبادي- رحمهما الله تعالى:- «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

وقال صالح بن جناح :

-فليس لنا غير التوكل عصمة ... على ربنا إن التوكل نافع

وقال يحيى بن زياد :

-لا تجز عنّ متى اتكلت على الذي ... ما زال مبتدئاً يجود ويفضل
- ولقد يريخ أخو التوكل نفسه ... إن المريح لعمرك المتوكل

وقال مسعود سماحة :

-ألا انظر في أمورك لا تكلها ... لهذا من صاحبك أو لذاكا
- وخلّ أمور غيرك في يديه ... فعندك من أمورك ما كفاكا
وقال مالك بن عيمر التغلبي :

-توكلنا على الرحمن إنا ... وجدنا الخير للمتوكلينا
- ومن لبس التوكل لم تجده ... يخاف جرائر المتجبرينا
وقال منصور بن محمد الكريزي :

-توكل على الرحمن في كلّ حاجة ... أردت فإن الله يقضي ويقدر
- متى ما يرد ذو العرش أمراً بعده ... يصيبه وما للعبد ما يتخير
- وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه ... وينجو باذن الله من حيث يحذر

من فوائد (التوكل)

- أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- يجلب محبة الله تعالى ومعاونته ونصره وتأيدته.
- دوام طلب المعونة من الله الملك ليقين المتوكل بالعجز التام عن تحصيل ما يريد وتمام قدرة الله على إنجاز كلّ ما يريد وفوق ما يريد.
- الحفاظ والمنعة من الشيطان الرجيم ومن البشر اللئيم.
- الوقوف على الحدود الشرعية وعدم الخوض في الحرام.
- ترك المزاحمة مع الناس؛ لأنّ المتوكل لا يخاف فوت شيء قدر له.

- قطع الطمع فيما في أيدي الناس توكلًا على ما عند الله.
- راحة البال واستقرار الحال.
- لا يمنع الأخذ بالأسباب المشروعة المباحة مع الخروج من أسرها.
- يحقق طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
- يحقق رضا الله، فيجعل للعبد مخرجًا ويكفر عنه سيئاته.
- يهيئ صاحبه للفوز بصحبة النبيين في جنّات النعيم.
- من أسباب سعة الرزق.
- به تمام المعونة من الله- عزّ وجلّ- ممّا يدفع عن المتوكل شرّ الأشرار من الشيطان ومن كلّ من يكيد.

ومن المواقف :

ولم لا تكون أنت الطائر الصحيح

قال إبراهيم بن أدهم لشقيق البلخي بمكة: ما بدء أمرك الذي بلغك إلى هذا؟ فذكر أنه رأى في بعض الفلوات طائراً مكسور الجناحين، أتاه طائر صحيح الجناح، في منقاره جرادة، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة، فقال له إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطائر الصحيح الذي أطعم الطائر المكسور حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ: " اليد العليا خير من اليد السفلى ". ومن علامة المؤمن: أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها، حتى يبلغ منازل الأبرار، فأخذ شقيق يد إبراهيم فقبلها وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق.

لم أعنك رحمك الله

وعن عبد الله الهروي قال كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قيس فقال لو أن رجلاً صدق في توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك فقال له الفضيل رحمه الله تعالى لم أعنك رحمك الله فسكن (1).

أيش قلت؟

قال حاتم: قدم شقيق بن إبراهيم من الكوفة يريد مكة، فلقيه سفيان الثوري فقال له: أنت الذي يدعو إلى التوكيل ويمنع المكاسب؟ فقال: شقيق ما قلت كذا. قال: أيش قلت؟ قال: قلت: حلال بين وحرام بين ومتشابه فيما بين ذلك

¹ (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ، 549/2

ولكن دخلت الآفة من الخاصة على العامة. وهم خمس طبقات: فأولهم العلماء، والثاني الزهاد، والثالث الغزاة، والرابع التجار، والخامس السلطان. فأما العلماء فهم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم. وإذا كان العالم طامعاً جامعاً فالجاهل بمن يقتدي؟ وأما الزهاد فهم ملوك الأرض. فإذا كان الزاهد يرغب فيما في أيدي الناس فالراغب بمن يقتدي؟ وأما الغزاة فهم أضياف الله في أرضه. فإذا كان الغازي يحب الخيلاء والتصدر في المجالس فمن يغزو؟ وأما التجار فهم أمناء الله عز وجل في أرضه، فإذا كان التاجر الأمين خائناً فالخائن بمن يقتدي؟ وأما السلطان فهم الرعاة، فإذا كان الراعي هو الذئب فالذئب ما يجد ما يأكل. يا سفيان، لا تجمعن منها إلا قدر مقامك فيها، فقام سفيان ولم يرد عليه شيئاً.

هكذا كلاب بلخ

قدم شقيق البلخي مكة وإبراهيم بن أدهم بمكة فاجتمع الناس فقالوا نجمع بينهما فجمعوا بينهما في المسجد الحرام فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق يا شقيق على ما أصلتم أصولكم فقال شقيق إنا أصلنا أصولنا على أنا إذا رزقنا أكلنا وإذا منعنا صبرنا فقال إبراهيم بن أدهم هكذا كلاب بلخ إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت فقال شقيق على ما أصلتم أصولكم يا أبا إسحاق فقال أصلنا أصولنا على أنا إذا رزقنا آثرنا وإذا منعنا حمدنا وشكرنا قال فقام شقيق وجلس بين يديه وقال يا أبا إسحاق أنت أستاذنا .

التجربة شك

ودخل جماعة على الجنيد فقالوا نطلب الرزق قال إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه قالوا فنسال الله ذلك قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه قالوا لندخل البيت فنتوكل قال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة .

فانتبهت وأنا أسمع الصراخ

قال أبو سعيد الخراز: رأيت شقيقاً البلخي في النوم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، غير أننا لا نلحقكم، قلت: ولم ذاك؟ قال: لأننا توكلنا على الله بوجود الكفاية وتوكلتم بعدم الكفاية، قال: فسمعت الصراخ: صدق صدق، فانتبهت وأنا أسمع الصراخ. (1)

¹ (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي ، القصاص والمذكرين ، تحقيق د. محمد لطفي الصباغ ، نشر المكتب الإسلامي ، 1409 هـ - 1988م ، مكان النشر بيروت، ص 275

الرضا والقناعة :

الرضا لغة: مصدر رضي يرضى وهو مأخوذ من مادة (ر ض و) التي تدلّ على خلاف السخط. وفي حديث الدعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ. وتثنية الرضا رضوان ورضيان، والاسم الرضاء (بالمدة) والرضا (بالقصر)، قال القحيف العقيلي:

إذا رضيت عليّ بنو قشير ... لعمر الله أعجبنى رضاها
ولا تنبو سيوف بني قشير ... ولا تمضي الأسنة في صفاها
عداه بعلى لأنه إذا رضيت عنه أحبته وأقبلت عليه. فلذلك استعمل على بمعنى عن.

وقوله عزّ وجلّ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (البينة/ 8) معناه أن الله تعالى رضي عنهم أفعالهم ورضوا عنه ما جازاهم به. وقال الراغب: رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمرا بأمره ومنتهيا عن نهيه. وأرضاه: أعطاه ما يرضى به. وترضاه طلب رضاه، قال:

إذا العجوز غضبت فطلق ... ولا ترضاها ولا تملق
وفي الصحاح: الرضوان: الرضا، وكذلك الرضوان، بالضمّ، والمرضاة مثله. والمرضاة والرضوان مصدران، وقيل في عيشة راضية أي مرضية أي ذات رضى. والرضوان: الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله- سبحانه- خصّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله- عزّ وجلّ- قال سبحانه يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا (الفتح/ 29)، وقال عزّ من قائل يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ (التوبة/ 21).

ويقال: رضيت به صاحبا، وأرضيته عني ورضيته، بالتشديد أيضا، فرضي، وتراضى القوم: أظهر كلّ واحد منهم الرضا بصاحبه ورضيه .

والرضا اصطلاحا: هو سرور القلب بمرّ القضاء. وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في أيّ حكم كان، وقيل الرضا هو صحّة العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا.

وقيل استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنّه اختار له الأفضل. وهو ترك السخط .

وقال المناوي: الرضا طيب نفسي للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التغير، وقول الفقهاء يشهد على رضاها أي إنها جعلوا الإذن رضا لدلالته عليه.

أنواع الرضا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله:-

من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله. كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته...» الحديث. وذلك أن الرضا نوعان:

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعدد محظور.

وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسله إنا إلى الله راغبون (التوبة/ 59). وهذا الرضا واجب.

ولهذا ذم من تركه بقوله: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ (التوبة/ 58- 59) والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل. فهذا رضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن:

الرضا غريزة، ولكن الصبر معول المؤمن. وقد روي في حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن استطعت أن تعم بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا». وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (الزمر / 7)، وقال: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (البقرة / 205)، وقال تعالى: فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبة/ 96) .

قال ابن القيم- رحمه الله- بعد أن ساق حديثين: الأول: قوله صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً». والثاني: قوله: «من قال حين يسمع النداء رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه». قال- رحمه الله:- هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمن الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته. والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً. وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله. فالرضا بالهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبذل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له، والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده. ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، وبالاستعانة به والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به. فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدره عليه. وأما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة. لا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلا بحكمه.

فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غداء المضطر إذا لم يجد ما يقوته إلا من الميتة والدم. وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته (1).

¹ (مدارج السالكين لابن القيم (2/ 179، 180) ، بصائر ذوي التمييز (3/ 79- 81)

وجوب ابتغاء مرضاة الله- عز وجل- في كل عمل:
وقال المولي عز وجل : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (البقرة: 207)

وقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا
وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: 264- 265)

وقال تعالى : " لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (النساء: 114)

وقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا
الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ أَنَّ صَدُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهَلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا
ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ
لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (المائدة: 2- 3)

وقال تعالى : " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائدة: 15- 16)
وقال تعالى : " يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ (التوبة: 62)

وقال تعالى : " أَفَمَن أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَن
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (التوبة: 109)

وقال تعالى : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد: 26-27)

وقال تعالى : " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (الحشر: 8)

وقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (الممتحنة: 1)

إرضاء الله- عز وجل- رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في الدنيا والآخرة:

وقال تعالى : " قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (البقرة: 144)

وقال تعالى : " قُلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران: 15)

وقال تعالى : " أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ (آل عمران: 162)

وقال تعالى : " الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (آل عمران: 172-174)

وقال تعالى : " قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة: 119)

وقال تعالى : " الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (التوبة: 20- 22)

وقال تعالى : " وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: 72)

وقال تعالى : " وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة: 100)

وقال تعالى : " فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (طه: 130)

وقال تعالى : " لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة: 22)

وقال تعالى : " وَالضُّحَى *وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى *مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلِآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى *وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (الضحى: 1- 5)

وقال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (البينة: 7- 8)

وقال تعالى : " تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (الأحزاب: 51)

وقد قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لِيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ (1) فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فِيحَمْدِهِ عَلَيْهَا. (1)

¹ (الأكلة: بفتح الهمزة، وهي المرة الواحدة من الأكل، كالغداء والعشاء.

وعن أبي سلام- رضي الله عنه- خادم النبي صلى الله عليه وسلم- عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد، يقول، حين يمسي، وحين يصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً. إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»⁽²⁾.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»⁽³⁾.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهنّ أو يعلم من يعمل بهنّ». فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعدّ خمساً، وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»⁽⁴⁾.

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها. إلا أخلف الله له خيراً منها»⁽⁵⁾.

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد»⁽⁶⁾.

¹ (مسلم (2734)

² (ابن ماجه (3870 /2) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

³ (صحيح سنن الترمذي (1967) وهو في الصحيحة (2311)

⁴ (أحمد في المسند (310 /2)، والترمذي (2305) واللفظ له وحسنه الألباني، وابن ماجه (4217) وقال محقق جامع الأصول (687 /11): حديث حسن.

⁵ (مسلم (918)

⁶ (الترمذي (1021) وحسن إسناده الألباني.

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجبت من قضاء الله عز وجل- للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر. المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته⁽¹⁾.
وعن صهيب- رضي الله عنه-: قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له⁽²⁾.
وقد قال لقمان لابنه: «أوصيك بخصال تقرّبك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت.
- وكتب عمر بن الخطّاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما-: «أما بعد، فإنّ الخير كلّهُ في الرّضى، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر.
وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأمّ إسماعيل، ومعهم شنة⁽³⁾ فيها ماء، فجعلت أمّ إسماعيل تشرب من الشنة فيدرّ لبنها على صبيّها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة⁽⁴⁾، ثمّ رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أمّ إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال:
إلى الله. قالت: رضيت بالله⁽⁵⁾.
وقال عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- «إذا توقّي العبد المؤمن، أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنّة. فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان وربّ عنك راض.
وعن عائشة- رضي الله عنها- في قوله تعالى: وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا النساء/ 128)، قالت: «هو الرّجل يرى من امرأته ما لا يعجبه كبرا أو غيره فيريد فراقها، فتقول: أمسكني، أو أقسم لي ما شئت.
قالت: ولا بأس إذا تراضيا.

¹ (أحمد (1/ 173، 177، 178) وشرح السنة (1540) وقال مخرجه: إسناده حسن والبيهقي في السنن (3/ 375، 376) والهيثمى في المجمع (7/ 209) وقال: رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح.

² (مسلم (2999)

³ (الشنة: هي القرية الصغيرة.

⁴ (الدوحة: الشجرة الكبيرة.

⁵ (البخاري- الفتح 6 (3365)

قال ميمون بن مهران: «من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء.
وقال الربيع بن أنس: «علامة حبّ الله، كثرة ذكره، فإنّك لا تحبّ شيئاً إلّا
أكثر من ذكره، وعلامة الدّين: الإخلاص لله في السرّ والعلانية، وعلامة
الشّكر: الرّضى بقدر الله والتّسليم لقضائه.

وعن مالك بن أنس- رحمه الله- قال بلغني أنّ رجلاً من بعض الفقهاء كتب
إلى ابن الزّبير رضي الله عنهما- يقول: «ألا إنّ لأهل التّقوى علامات يعرفون
بها، ويعرفونها من أنفسهم، من رضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وشكر
على النّعماء، وصدق باللسان، ووفّى بالوعد والعهد، وتلا لأحكام القرآن،
وإنّما الإمام سوق من الأسواق، فإن كان من أهل الحقّ حمل إليه أهل الحقّ
حقّهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم.

وقال عبد الله بن المبارك: قال داود لابنه سليمان عليهما السّلام: «يا بنيّ،
إنّما تستدلّ على تقوى الرّجل بثلاثة أشياء: لحسن توكلّه على الله فيما نابه،
ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاته.

وقال ابن القيم- رحمه الله-: «ثمرة الرّضى: الفرح والسّرور بالرّبّ تبارك
وتعالى.

وقال الفيروز اباديّ: «رضا العبد عن الله على ألاّ يكره ما يجري به قضاؤه،
والرّضوان الرّضا الكبير. ولما كان أعظم الرّضا رضا الله خصّ لفظ الرّضوان
في القرآن بما كان من الله تعالى.

وقال محمود الورّاق:

أعيت كلّ النّاس من نفسي الرّضا ... إلّا الحسود فإنّه أعياني
ما إنّ لي ذنبا إليه عملته ... إلّا تظاهر نعمة الرّحمن
وأبى فما يرضيه إلّا ذلّتي ... وذهب أموالى وقطع لسانى.
وقال المتنبيّ:

وعين الرّضى عن كلّ عيب كيلة ... كما أنّ عين السّخط تبدي المساويا.
وقال كشاجم:

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها ... ورضا الفتى عن نفسه إغصابها
ولو أنّي عنها رضيت لقصّرت ... عمّا تزيد بمثله آدابها
وتبيّنت آثار ذاك فأكثر ... عذلي عليه فطال فيه عتابها

من فوائد الرضا

- يثمر محبة الله ورضاه وتجنب سخطه.
- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- الفوز بالجنة والنجاة من النار.
- مظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه.
- الوعد بالبشرى في الآخرة.
- دليل حسن ظن العبد بربه.
- طريق إلى الفوز برضوان الله تعالى.
- يضيف على الإنسان المسلم راحة نفسية وروحية.
- يجنب المسلم الأزمات النفسية من قلق زائد وتوتر.
- طريق واضح إلى تحقيق السلام الاجتماعي.

ومن المواقف :

فما عوضك ؟

كان لبعض الملوك نديم فسكر ففاته الصلاة فجاءت جارية له بجمرة نار فوضعتها على رجله فانتبه مذعورا فقالت إنك لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة وقعد يبيع البقل فدخل عليه الفضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وليس تحت جنبه حصير فقالا له إنا رويناه أنه لم يدع أحد شيئا لله إلا عوضه خيرا منه فما عوضك ؟ قال القناعة والرضا بما أنا فيه⁽¹⁾.

لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا !

ويروى أن الفضيل بن عياض كان هو ورفيق له في بعض الصحاري فأكلا كسرة يابسة واغترفا بأيديهما ماء من بعض الغدران وقام الفضيل فحط رجله في الماء فوجد برده فالتذ به وبالحال التي هو فيها فقال لرفيقه لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا⁽²⁾.

⁽¹⁾ أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني ، شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة الأولى ، - 1418 هـ -

1998 م ، 792/1

⁽²⁾ ابن هبة الله ، شرح نهج البلاغة ، ، 4291/1

لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف

حدثنا إبراهيم بن بشار ، قال : خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم ، وأبو يوسف الغسولي ، وأبو عبد الله السنجاري نريد الإسكندرية ، فمررنا بنهر يقال له نهر الأردن ، فقعدنا نستريح ، وكان مع أبي يوسف كسيرات يابسات ، فألقاها بين أيدينا فأكلناها وحمدنا الله تعالى ، فقمت أسعى أتناول ماء لإبراهيم ، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء إلى ركبته ، فقال بكفيه في الماء فملاها ، ثم قال : (بسم الله) وشرب الماء ، ثم قال : (الحمد لله) ، ثم ملأ كفيه من الماء وقال : (بسم الله) وشرب ، ثم قال : (الحمد لله) ، ثم إنه خرج من النهر فمد رجله ، ثم قال : يا أبا يوسف ، لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب ، فقلت : يا أبا إسحاق ، طلب القوم الراحة والنعيم ، فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم ، ثم قال : من أين لك هذا الكلام ؟ ! (1)

وهو عن الله راض والله عنه راض

عن ابن شاذب قال اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع فتذاكروا العيش فقال مالك ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غلة يعيش فيها فقال محمد طوبى لمن وجد غداء ولم يجد عشاء ووجد عشاء ولم يجد غداء وهو عن الله راض والله عنه راض (2)

حقيقة الدنيا :

وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور :
جاء في ((مختصر منهاج القاصدين)) ما مختصره :
الآيات الواردة في القرآن العزيز بعبء الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : { زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ - قُلْ أُوْنِبِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ } [آل عمران : 14-15] ، وقوله : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }

¹ (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب ، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، 1 /

[آل عمران : 185] . ، وقوله : { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ { [يونس : 24] ، وقوله : { اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ { [الحديد : 20] ، وقوله : { وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ { [الزخرف : 35] ، وقوله : { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ { [النجم : 29-30]

وأما الأحاديث ، ففي ((الصحيحين)) من رواية المسور بن شداد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : ((ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع ؟ .

وفي حديث آخر : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)) رواه مسلم .
وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذلل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة ، وكن أسراً ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خيراً ، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن .
ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زواها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؟ ونسي ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه .

وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء - يعني الدنيا .

ومن أمثلة الدنيا : قال يونس بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه .
ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل : إن عيسى - عليه السلام - رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء (1) عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلْتُ ، فقال عيسى - عليه السلام - : بؤسًا لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء (2) زرقاء أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه .

فيقال : هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تقذف في جهنم ؛ فتنادي : يا رب ، أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

وعن أبي العلاء ، قال : رأيت في النوم عجوزًا كبيرة عليها من كل زينة ، والناس عكوف عليها متعجبون ، ينظرون إليها ، فقلت : من أنت ويلك ؟ قالت : أما تعرفني ؟ قلت : لا ، قالت : أنا الدنيا . فقلت : أعوذ بالله من شرك . قالت : إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

وقال بعضهم : رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة الخلقة حدباء . مثال آخر : واعلم أن أحوالك ثلاث : حال لم تكن فيها شيئًا ، وهي قبل أن توجد . (3)

وحال أخرى ، وهي من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدى ، فإن لنفسك وجودًا بعد خروجها من بدنك ، إما في الجنة أو النار ، وهو الخلود الدائم .

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة ، وهي أيام حياتك في الدنيا ، فانظر إلى مقدار ذلك ، وانسبه إلى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا .

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق ، أو سعة ورفاهية ، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله

(1) ليس لها أسنان ، وفي نسخة : صماء ، وهي الداهية.

(2) الشمط في الشعر : اختلاطه بلونين من سواد وبياض ، أو بياض شعر الرأس يخالط سواده.

(3) ففروا إلى الله ، ص 41

عليه وآله وسلم لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال : ((مالي وللدنيا ؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ، قال تحت شجرة ، ثم راح وتركها (1) .

وقال عيسى - عليه السلام - : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . هذا مثل واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة . ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو في غاية الجهل والحمق .

وقيل : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

وقد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما تآقت منعوها ، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلاً بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين ، وإنما فعلوا ذلك لقلّة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

اعلم : أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهي الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمي ، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجل ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح ، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح ، ومن أخذ منها فوق

(1) أخرجه أحمد (301/1 ، رقم 2744) ، والطبراني (327/11 ، رقم 11898) ، وابن حبان (265/14 ، رقم 6352) ، والحاكم (344/4 ، رقم 7858) وقال : صحيح على شرط البخاري . والبيهقي في شعب الإيمان (312/7 رقم 10417) .

الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه ؛ لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ، ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الثياب ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هي الوسطى ، وهي أن يأخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهى ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه في السفر الفالوذج .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال .

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا ، ولا تفريط في حقوق النفس .

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتى ، فإن كان في حفظها وحماها وقيمها ويصلحها وينشطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حفظها ومجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون . اهـ من ((مختصر منهاج القاصدين)) .

فائدة :

قال ابن السماك الواعظ : هب الدنيا في يديك ، ومثلها ضم إليك ، والمشرق والمغرب جاءا إليك ، فجاءك الموت ماذا في يديك ؟!

ومن المواقف :

انطلقوا حتى أريكم الدنيا

وكان الفضيل بن عياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيجيء بهم إلى المزبلة فيقول انظروا إلى عنبهم وسمنهم ودجاجهم وبطهم صار إلى ما ترون⁽¹⁾ .

أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه

وقال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد ما الذي أبكاك قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه⁽²⁾ .

ماذا تفعل الدنيا بأهلها !؟

قال حدثني سفيان بن عيينة قال بينا أنا ومسعر بن كدام مع إسماعيل بن أمية بفناء الكعبة إذا بعجوز قد طلعت علينا عوراء متكئة على عصا يصفق أحد لحييها على الآخر فوقفت على إسماعيل فسلمت عليه فرد عليها السلام وسألها فأحفى المسألة ثم انصرفت فقال إسماعيل لا إله إلا الله ماذا تفعل الدنيا بأهلها ثم أقبل علينا فقال أتعرفان هذه قلنا لا والله ومن هي قال هذه بَغُومُ ابن أبي ربيعة التي يقول فيها

(حَبَّذَا أَنْتِ يَا بَغُومُ وَأَسْمَاءُ ... وَعَيْصٌ يَكُنُّنَا وَخَلَاءُ)

انظرا كيف صارت وما كان بمكة امرأة أجمل منها قال فقال له مسعر لا ورب هذه البنية ما أرى أنه كان عند هذه خير قط⁽³⁾ .

من خدمك فأتعبه ومن خدمني فاخدمه

قال سفيان بن عيينة: سمعت أبا حازم يقول: أوحى الله عز وجل إلى الدنيا من خدمك فأتعبه ومن خدمني فاخدمه.

ما حملك على الخروج من الدنيا ؟

إبراهيم بن أدهم قال لقيت رجلاً بالاسكندرية يقال له أسلم ابن زيد الجهني فقال من أنت يا غلام فقلت شاب من أهل خراسان قال ما حملك على الخروج من الدنيا فقلت زهداً فيها ورجاء ثواب الله تعالى فقال إن العبد لا يتم رجاءه لثواب الله تعالى حتى يحمل نفسه على الصبر فقال له رجل ممن كان معه و أي شيء

¹ (ابن هبة الله ، شرح نهج البلاغة ، ، 1645/1

² (ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، 393/2

³ (أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، 174/1

الصبر فقال إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكاره
الأنفس قال قلت ثم مه قال إذا كان محتملاً للمكاره أورش الله عز وجل قلبه نورا
قلت فماذا النور قال سراج يكون في قلبه يفرق بين الحق والباطل والمتشابه
ثم قال يا غلام إياك إذا صحبت الأخيار و جارىت الأبرار أن تغضبهم عليك لأن
الله تعالى يغضب لغضبهم و يرضى لرضاهم وذلك أن الحكماء هم العلماء هم
الراضون عن الله إذا سخط الناس يا غلام احفظ عني واعقل واحتمل ولا تعجل
ولا تعجل إياك والبخل قلت وما البخل قال أما البخل عند أهل الدنيا فهو أن يكون
الرجل ضنينا بماله وأما عند أهل الآخرة فهو الذي يرضن بنفسه عن الله ألا وإن
العبد إذا جاد بنفسه لله أورش الله قلبه الهدى والتقى وأعطى السكينة والوقار
والحلم الراجح والعقل الكامل . (1)

ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟!

قال سفيان بن عيينة: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد
الله، فقال له: يا سالم سلني حاجة؛ فقال له: إني لأستحيي من الله أن أسأل في
بيت الله غير الله، فلما خرج خرج في أثره، فقال له: الآن قد خرجت فسلني
حاجة! فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من
حوائج الدنيا؛ فقال له سالم: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا
يملكها؟! (2)

ذهبوا وبقيت أعمالهم

عن مجاهد قال مررت مع ابن عمر على خربة فقال يا مجاهد ناد يا خربة ما
فعل أهلك أين أهلك قال فناديت فقال ابن عمر ذهبوا وبقيت أعمالهم .

إني لا أحب الظلم

- عن مجاهد قال مر نوح عليه السلام بالأسد فضربه برجله فخمشه فبات
ساهرا فشكى نوح ذلك الى الله عز و جل فأوحى الله تعالى اليه إني لا أحب
الظلم .

وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا

- قال مجاهد ما من مرض يمرضه العبد إلا رسول ملك الموت عنده حتى إذا
كان آخر مرض يمرضه أتاه ملك الموت فقال أتاك رسول بعد رسول فلم تعبأ
به وقد أتاك رسول يقطع أثرك من الدنيا.

¹ (ابن الجوزي ، صفة الصفة ، 4 / 334

² (مختصر صفة الصفوة ، 13/1

الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها

- عن مجاهد قال ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ثم يطوي عليه فيختم الى يوم القيامة حتى يكون الله هو الذي يفض خاتمه رواه المعافى بن عمران عن طلحة بن عمرو فقال عن قيس بن سعد عن مجاهد وهو الصواب .

والله دخلها الحزن، وذهب بأهلها الزمان

قال مالك بن دينار: مررت على قصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن: ألا يا دار لا يدخلك حزن ... ولا يذهب بساكنك الزمان ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب، وثم عجوز فقالت: يا عبد الله قد والله دخلها الحزن، وذهب بأهلها الزمان. أبو العتاهية:

لئن كنت بالدنيا بصيراً فإنما ... بلاغك منها مثل زاد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر (1)
ثم رفعناها بعد، فما لقينا منها؟

قال مالك بن دينار: لما بعث الله عيسى بن مريم كب الدنيا على وجهها، ثم رفعها الناس حتى بعث الله تعالى محمداً فكب الدنيا على وجهها، ثم رفعناها بعد، فما لقينا منها؟ (2)

أو ما تعلم أنني قد طلقت الدنيا ثلاثاً؟!

كان رجل من الأغنياء بالبصرة وكانت له ابنة نفيسة فائقة الجمال، فقال لها أبوها: قد خطبك بنو هاشم والعرب والموالي فأبيت! أراك تريدين مالك بن دينار وأصحابه! فقالت: هو والله غاييتي! فقال الأب لأخ له: إئت مالك بن دينار فأخبره بمكان ابنتي وهوها لها؛ فأتاه فقال له: فلان يقرئك السلام ويقول لك: إنك تعلم أنني أكثر أهل هذه المدينة مالاً وأفشاهم ضيعة، ولي ابنة نفيسة وقد هويتك فشأنك وهي؛ فقال مالك للرجل: عجباً لك يا فلان، أو ما تعلم أنني قد طلقت الدنيا ثلاثاً (3).

¹ (الزمخشري، ربيع الأبرار، 1/ 44)

² (الزمخشري، ربيع الأبرار، 1/ 88)

³ (أبو نعيم، حلية الأولياء، 2/ 365)

ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير؟؟ ولم ترعها حق رعايتها!

قال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: يجاء براعي السوء يوم القيامة فيقال: يا راعي شربت اللبن وأكلت اللحم ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير؟؟ ولم ترعها حق رعايتها! اليوم أنتقم لهم منك(1).

لأن مادحهم مفرط وذامهم مفرط

قال مالك بن دينار: منذُ عرفتُ الناسَ لم أفرحَ بمدحِهم ولا أكرهُ مذمتهم، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ مادحهم مفرطٌ وذامهم مفرطٌ. يا قارىء أنت قارىء؟! (2).

قال مالك بن دينار: من تباعد من زهرة الحياة الدنيا فذلك الغالب لهواه؛ ومن فرح بمدح الباطل فقد أمكن الشيطان من دخول قلبه؛ يا قارىء أنت قارىء؟! ينبغي للقاء أن يكون عليه دُرّاعة صوف وعصا راعٍ، يفر من الله إلى الله عز وجل، ويحوش العباد على الله تعالى(3).

فعلى الدنيا العفاء

جعفر عن مالك بن دينار قال خرج سليمان بن داود عليه السلام في موكبه فمر بببل على غصن شوك يصفر ويضرب بذنبه فقال أتدرون ما يقول قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنه يقول قد أصبت اليوم نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء(4).

على القلب ثلاثة أغطية

عن إبراهيم قال: على القلب ثلاثة أغطية: الفرح، والحزن، والسرور فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب، والعجب بحبط العمل، قال الله تعالى: لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم(5).

¹ (أبو نعيم ، حلية الأولياء ، 375/2 ،

² (أبو نعيم ، حلية الأولياء ، 372/2 ،

³ (أبو نعيم ، حلية الأولياء ، 364/2 ،

⁴ (صفة الصفوة ، 287/3 ،

⁵ (الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيا

ت المشاهير والأعلام ، 58/10 ،

أحسن بالحرّ المريد أن يتذلّل للعبيد

وعنه قال: رأيت في النوم كأن قائلاً يقول لي: أحسن بالحرّ المريد أن يتذلّل للعبيد وهو يجد عند مولاه كلّ ما يريد. (1)

فلم أعرف قبر الأسود من قبره

قال مالك بن دينار: قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة، فطعن في قدمه فمات فأخرجناه إلى القبر، فلما صرنا إلى الجبان إذا نحن بسودان يحملون صاحب لهم إلى القبر، فدفناه ودفنوا صاحبهم، فعدت قبل السبوع فلم أعرف قبر الأسود من قبره. وعلى هذا قول الشاعر:

ولقد مررت على القبور فما ... ميزت بين العبد والمولى (2)

أبشّر بشرٍ

كان لمالك بن دينار جار كما شاء الله أن يكون، وكان إذا استقبله مالك يقول: يا أبا فلان إن كان المال الذي قد جمعته من حلال فقد آن لك أن تقتصر عليه، وإن كان من حرام فقد آن لك أن تردّها على أربابها فكان من جوابه لمالك: يا مالك إنا ندق الدنيا دقاً دقاً، فقال مالك: إذاً والله يأتيك الموت فيدقك دقاً دقاً، فضرب الدهر ضرباته ما ضرب فمرض ذلك الرجل فدخل عليه مالك بن دينار فقال له: كيف تجدك؟ قال الرجل: بشر، فقال مالك: وكيف ذاك؟ قال الرجل: أتاني آت من ربي فقال: أبشّر بشرٍ. (3)

لم حجت القلوب عن الله عز وجل ؟

حدث إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم إبراهيم بن أدهم ، قال : وقف رجل مرة على إبراهيم بن أدهم ، فقال : يا أبا إسحاق ، لم حجت القلوب عن الله عز وجل ؟ قال : لأنها أحب ما أبغض الله ، أحببت الدنيا ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، فتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، في نعيم لا يزول ولا ينفذ ، خالد مخلد ، في ملك سرمد لا نهاية له ولا انقطاع . (4)

¹ (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى. 1407هـ -

1987م ، 10 / 49 - 58

² (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 2 / 64

³ (الزهد الكبير ، ص 173

⁴ (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب ، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، تحقيق د. عامر حسن صبري ، دار البشائر الإسلامية ، مكان النشر بيروت / لبنان ، سنة النشر

1420هـ - 2000م ، 1 / 55

ما لك حيلة ؟

حدثنا إبراهيم بن بشار ، قال : قلت لإبراهيم بن أدهم : أمر اليوم أعمل في الطين . فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب ما قد كفيته ، كأنك بما قد غاب عنك قد كشف لك ، وما كنت فيه قد نكلت عنه . يا ابن بشار ، كأنك لم تر حريصاً محروماً ، ولا ذا فاقة مرزوقاً . ثم قال لي : ما لك حيلة ؟ قلت : نعم ، لي عند البقال دانق ، فقال : عز علي ، تملك دانقا وتطلب العمل . (1)

أخرجوه فقد استقتل !

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ الْفَرَاءِ ، عَنْ شُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ : دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمٍ عَلَى بَعْضِ هَوَلاءِ الْوَلَاةِ . فَقَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ مَعِيشَتُكَ ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : نَرْقِعُ دَنِيانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا • فَلَا دِينَنَا يَبْقَى وَلَا مَا نَرْقِعُ . قَالَ : فَقَالَ الْوَالِي : أَخْرِجُوهُ فَقَدْ اسْتَقْتَلَ ! (2)

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا

عن خلف بن تميم قال : سمعت إبراهيم بن أدهم ينشد :
أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا • ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما • استغنى الملوك بدنياهم عن الدين (3)

فسارع إلى أمر الله

وكنت ماراً مع إبراهيم ، فأتينا على قبر مسنم ، فترحم عليه ، وقال : هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها ، كان غرق في بحار الدنيا ثم أخرجه الله منها . بلغني أنه سر ذات يوم بشيء ونام ، فرأى رجلاً بيده كتاب ، فناوله ففتحه ، فإذا فيه كتاب بالذهب مكتوب : لا تؤثرن ، فإننا على باق ، ولا تغترن بملكك ، فإن ما أنت فيه جسيم ، لولا أنه عديم ، وهو ملك ، لولا أن بعده هلك ، وفرح وسرور ، لولا أنه لهو وغرور وهو يوم لو كان يوثق له بغد ، فسارع إلى أمر الله ، فإن الله قال : سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فانتبه فزعاً وقال هذا تنبيه من الله وموعظة ، فخرج من ملكه وقصد هذا الجبل ، فعبد الله فيه حتى مات (4) .

¹ (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب ، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، 1 /

(2) المزي ، تهذيب الكمال مع حواشيه ، 2 / 36

(3) المزي ، تهذيب الكمال مع حواشيه ، 2 / 36

(4) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 442/13

لَمَّا كُنْتُ تُضْرِبُنِي كُنْتُ أَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ الْجَنَّةَ

أَتَى جُنْدِيٌّ إِلَى بَلَدِهِ فَوَجَدَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ، فَسَأَلَهُ: أَيْنَ الْعُمَرَانُ؟ فَدَلَّهُ عَلَى الْمَقْبَرَةِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِ، فَضْرِبُهُ حَتَّى أَدْمَاهُ، فَقِيلَ لِلْجُنْدِيِّ: هَذَا الْأَمِيرُ بْنُ أَدْهَمَ، فَعَادَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَمَّا كُنْتُ تُضْرِبُنِي كُنْتُ أَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَلِمَ، قَالَ: لِأَنَّكَ ظَلَمْتَنِي فَصَبِرْتُ حِينَ ضَرَبْتَنِي، فَخَمَلْتُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ، فَكَانَ لَكَ فَضْلٌ عَلَيَّ فَسَأَلْتُ لَكَ الْجَنَّةَ.

يَا أَخِي أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَوْتَ أَمَامَكَ

عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ بَشَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ يَقُولُ: مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَوْمٍ مُجْتَمِعِينَ وَعَلَيْهِ بَرْدَةٌ حَسَنَاءُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ أَنَا سَلَبْتَهُ بَرْدَتَهُ فَمَا لِي عِنْدَكُمْ؟ فَجَلَعُوا لَهُ شَيْئاً، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَرْدَتُكَ هَذِهِ لِي، قَالَ: فَقَالَ: إِنِّي اشْتَرَيْتُهَا أَمْسَ، قَالَ: قَدْ أَعْلَمْتُكَ وَأَنْتَ فِي حَرْجٍ مِنْ لِبْسِهَا، قَالَ: فَخَلَعَهَا لِيَدْفَعَهَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَضَحَكَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: هَذَا الرَّجُلُ بَطَالٌ، قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَوْتَ أَمَامَكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَأْتِيكَ صَبَاحاً أَوْ مَسَاءً لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ثُمَّ الْقَبْرُ وَهَوْلُ الْمَطْلَعِ وَمَنْكَرٌ وَنَكِيرٌ وَبَعْدُ ذَلِكَ الْقِيَامَةُ، يَوْمَ يَخْسِرُ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ؛ فَأَبْكَاهُمْ وَمَضَى.⁽¹⁾

الإحسان إلى الجار

الجار لغة: الجار من يقرب مسكنه منك، وهو من الأسماء المتضايقة؛ فإن الجار لا يكون جارا لغيره إلا وذلك الغير جار له كالأخ والصديق، ولما استعظم حق الجار عقلا وشرعا عبّر عن كلّ من يعظم حقه أو يستعظم حق غيره بالجار، قال تعالى: وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى (النساء/ 36) وقد تصوّر من الجار معنى القرب فقل لمن يقرب من غيره جاره وجاوره، وتجاور (معه) قال تعالى: ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (الأحزاب/ 60) وباعتبار القرب قيل: جار عن الطريق (أي لم يلتزمه وإنما انحرف قريبا منه) ثم جعل ذلك أصلا في العدول عن كلّ حق فبني منه الجور، قال تعالى: وَمِنْهَا جَائِرٌ (النحل/ 9) أي عادل عن المحبة. وجمع الجار (جيران)، و(جاوره مجاورة، وجوارا) من باب قاتل: والاسم (الجوار) بالضمّ: إذا لاصقه في السّكن، وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي: الجار الذي يجاورك بيت بيت، و(الجار): الشريك في العقار: مقاسما كان، أو غير مقاسم، و(الجار): الخفير، و(الجار): الذي يجير غيره، أي يؤمّنه ممّا يخاف، و(الجار): المستجير أيضا، وهو الذي يطلب الأمان، و(الجار): الحليف، و(الجار):

النّاصر، و(الجار): الزوج، و(الجار) أيضا: الزّوجة، ويقال فيها أيضا (جارة)، و(الجارة): الضّرة، قيل لها جارة: استكراها للفظ الضّرة، و(كان ابن عباس ينام بين جارتيه)، أي زوجتيه.

و امتثال الوصية بالجار بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة. كالهديّة، والسّلام وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقّد حاله، ومعاونته فيما احتاج إليه، إلى غير ذلك. وكفّ أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو مغنوية.

قال ابن حجر- رحمه الله-: واسم الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق، والصديق والعدوّ، والغريب والبلديّ، والنّافع والضّارّ، والقريب والأجنبيّ والأقرب دارا والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصّفات الأولى كلّها ثمّ أكثرها وهلمّ جرّا إلى الواحد، وعكسه من اجتمعت فيه الصّفات الأخرى كذلك، فيعطى كلّ حقه بحسب حاله . حدّ الجوار:

وقال: واختلف في حدّ الجوار: فجاء عن عليّ رضي الله عنه- «من سمع النّداء فهو جار»، وقيل «من صلّى معك صلاة الصّبح في المسجد فهو جار»،

وعن عائشة- رضي الله عنها- «حدّ الجوار أربعون داراً من كلّ جانب»،
وعن الأوزاعيّ مثله، وأخرج البخاريّ في (الأدب المفرد) مثله عن الحسن .
وقال القرطبيّ: الجار يطلق ويراد به الدّاخل في الجوار، ويطلق ويراد به
المجاور في الدّار وهو الأغلب

وقد قال المولي عز وجل : " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (النساء: 36)

وعن عمرو بن الحمق- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه
وسلّم: «إذا أراد الله بعد خيراً عسله (1) قيل: وما عسله؟ قال: «يحبّبه إلى
جيرانه(2)

وعن أبي ذرّ- رضي الله عنه- قال:

إنّ خليلي صلّى الله عليه وسلّم أوصاني: «إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه.

ثمّ انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف(3)

وعن أبي جحيفة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله
عليه وسلّم يشكو جاره قال:

اطرح متاعك على طريق فطرحه، فجعل النّاس يمرّون عليه ويلعنونه، فجاء

إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله، لقيت من النّاس. قال:

«وما لقيت؟» قال: يلعنونني. قال: «قد لعنك الله قبل النّاس»، فقال: إنّي لا

أعود، فجاء الذي شكاه إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «ارفع متاعك،

فقد كفيت(4)

¹ (عسله: أي طيب ثناه فيهم: وروي أنه قيل لرسول الله: ما عسله؟. فقال: يفتح له عملاً صالحاً بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله: أي جعل له من العمل الصالح ثناء طيباً. (اللسان «عسل».)

² (أحمد (200 / 4). من حديث أبي عتبة الخولاني، وذكره الغزالي في الإحياء (215 / 2) وقال العراقي: رواه أحمد، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحمق. ثم قال: إسناده جيد.

³ (مسلم (2625).

⁴ (المنذري في الترغيب (355 / 3) وقال: رواه الطبراني والبخاري بإسناد حسن بنحوه إلا أنه قال: ضع متاعك على الطريق أو على ظهر الطريق فوضعه، فكان كل من مر به قال: ما شأنك؟ قال: جاري يؤذيني. قال: فيدعو. عليه، فجاء جاره، فقال: رد متاعك، فإني لا أؤذيك أبداً.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يشكو جاره، فقال: «أذهب فاصبر»، فأتاه مرتين أو ثلاثا فقال: «أذهب فاطرح متاعك في الطريق»، فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلغونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترى مني شيئا تكره⁽¹⁾

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الأصحاب عند الله: خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله: خيرهم لجاره»⁽²⁾

وعن مطرف يعني ابن عبد الله، قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث، وكنت أشتي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديثك وكنت أشتي لقاءك. قال: لله تبارك وتعالى أبوك قد لقيتني فهات. قلت: حديثا بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثك قال: إن الله- عز وجل- يحب ثلاثة. ويبغض ثلاثة. قال: فما إخالني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل-؟ قال: رجل غزا في سبيل الله صابرا محتسبا فقاتل حتى قتل وأنتم تجدونه عندكم في كتاب الله- عز وجل- ثم تلا إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (الصف/ 4) قلت: ومن؟ قال: رجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت. قلت:

فذكر الحديث، وقد رواه النسائي وغيره غير ذكر الجار⁽³⁾

وعن المقداد بن الأسود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟». قالوا: حرام حرّمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره. قال: ما تقولون في

¹ (أبو داود (5153). والحاكم (4/ 165) وذكر له شاهدا من حديث أبي جحيفة وصححه وأقره الذهبي.

² (الترمذي (1944) وقال: حديث حسن غريب. وقال محقق جامع الأصول (6/ 640): إسناده صحيح.

³ (الهيثمي في المجمع (8/ 171) وقال: رواه أحمد والطبراني واللفظ له وإسناده الطبراني وأحد إسناده أحمد رجاله رجال الصحيح. والحاكم في المستدرک (2/ 89) وصححه ووافقه الذهبي.

السَّرْقَة؟ قالوا: حرّمها الله ورسوله فهي حرام. قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»⁽¹⁾

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال وهو ينحل ابن الزبير⁽²⁾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»⁽³⁾

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»⁽⁴⁾.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»⁽⁵⁾.

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أغلق بابَه دون جاره مخافة على أهله وماله، فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه. أتدري ما حقّ الجار؟: إذا استعانك أعتقه، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنّأته، وإذا أصابته مصيبة عزّيته، وإذا مات اتّبعته جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الرّيح إلّا بإذنه، ولا تؤذّه بقتار ريح قدرك إلّا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده»⁽⁶⁾.

¹ (المنذري في الترغيب (3/ 352) وقال: رواه أحمد واللفظ له، ورواته ثقات، والطبراني في الكبير والأوسط.

² (ينحل ابن الزبير: أي يعطيه عطية بلا عوض.

³ (الهيثمي في المجمع (8/ 167) وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات. مسند أبي يعلى (5/ 92) برقم (2699)، وصححه الحاكم (4/ 167) ووافقه الذهبي.

⁴ (الهيثمي في المجمع (8/ 167) وقال: رواه الطبراني والبزار وإسناد البزار حسن.

⁵ (البخاري- الفتح 10 (6014). ومسلم (2625). ولهما اللفظ نفسه عن عائشة- رضي الله عنها-.

⁶ (المنذري في الترغيب (3/ 357) وقال: رواه الخرائطي من مكارم الأخلاق. قال الحافظ: ولعل قوله: أتدري ما حق الجار إلى آخره في كلام الراوي غير مرفوع، لكن قد روى الطبراني عن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله ما حق الجار عليّ؟ قال: إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن استقرضك أقرضته، وإن أعوز سترته. فذكر الحديث بنحوه. وانظره عند الهيثمي (8/ 165). وروى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوبيخ عن معاذ بن جبل نحوه أيضاً. ونحوه عند البخاري- الأدب 29، ومسلم- إيمان 730 إلا أوله.

وعن أبي شريح الخزاعي- رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت»⁽¹⁾

وعن أبي شريح- رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»⁽²⁾

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصدققتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار⁽³⁾ من الأقط⁽⁴⁾، ولا تؤذي جيرانها. قال: «هي في الجنة»⁽⁵⁾

رأى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- ولده عبد الرحمن وهو يناصي جارا له، فقال: «لا تناص جارك فإن هذا يبقى والناس يذهبون. وعن يحيى المازني أَنَّ الضَّحَّاك بن خليفة ساق خليجا له من العريض⁽⁶⁾، فأراد أن يمرّ به في أرض محمد بن مسلمة، فمنعه، فقال له: لم تمنعني، ولك فيه منفعة، تشرب فيه أولا وآخرا، ولا يضرّك؟ فأبى (محمد) فكلم الضَّحَّاك فيه عمر بن الخطّاب. فدعا عمر بن الخطّاب محمد بن مسلمة، فأمره أن يخلّي سبيله، فقال محمد: لا والله، فقال عمر: لم تمنع أخاك ما ينفعه ولا يضرّك؟ فقال: لا والله، فقال له عمر: والله ليمرّن به ولو على بطنك، ففعل الضَّحَّاك.

¹ (مسلم 48).

² (البخاري- الفتح 10 6016).

³ (الأثوار: بالمثلثة جمع ثور: وهي قطعة من الأقط.

⁴ (الأقط: بفتح الهمزة وكسر القاف وبضمها أيضا وبكسر الهمزة والقاف معا وبفتحهما: هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي.

⁵ (المنذري في الترغيب (2/ 356) وقال: رواه أحمد والبخاري وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ورواه أبو بكر بن أبي شيبة. وقال بإسناد صحيح أيضا.

⁶ (خليجا له من العريض: الخليج: النهر يؤخذ من النهر الكبير، و«العريض» بضم العين المهملة وفتح الراء وسكون الياء موضع معروف من نواحي المدينة.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتّذمّم للجار، والتّذمّم للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهنّ الحياء.

ويروى أنّ رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه- فقال له: إنّ لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليّ، فقال: اذهب فإنّ هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

وعن ابن أخي عبد الله بن سلام لما أريد عثمان جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: «ما جاء بك؟». قال: «جئت في نصرك»، قال: «أخرج إلى الناس فاطردهم عنّي فإنّك خارجاً خيراً لي منك داخلاً»، فخرج عبد الله إلى الناس فقال: «أيّها النّاس، إنّ كان اسمي في الجاهليّة فلان فسمّاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عبد الله ونزل فيّ آيات من كتاب الله نزلت فيّ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين إنّ لله سيفاً مغموداً عنكم، وإنّ الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه نبيكم، فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه، فو الله إنّ قتلتموه، لتطردنّ جيرانكم الملائكة ولتسلنّ سيف الله المغمود عنكم فلا يغمد إلى يوم القيامة»، قال: «فقالوا: اقتلوا اليهوديّ واقتلوا عثمان.

وعن الحسن البصريّ- رحمه الله- أنّه «كان لا يرى بأساً أن تطعم جارك اليهوديّ والنّصرانيّ من أضحيتك.

وقال الحسن بن عيسى النّيسابوريّ: سألت عبد الله بن المبارك فقلت: الرّجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنّه أتى إليه أمراً والغلام ينكره فأكرهه أن أضربه ولعلّه بريء، وأكرهه أن أدعه فيجد (1) عليّ جاري فكيف أصنع؟ قال: إنّ غلامك لعلّه أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث، وهذا تلطف في الجمع بين الحقّين.

قال الشّيخ أبو محمّد بن أبي جمرّة: حفظ الجار من كمال الإيمان. وقال: إذا أكّد حقّ الجار مع الحائل بين الشّخص وبينه، وأمر بحفظه، وإيصال الخير إليه وكفّ أسباب الضّرر عنه، فينبغي له أن يراعي حقّ الحافظين اللّذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في

(1) يجد: أي يغضب.

مرور السّاعات، فقد جاء أنّهما يسرّان بوقوع الحسنات ويحزنان بوقوع السيّئات، فينبغي مراعاة جنبهما وحفظ خواطرهما بالتّكثير من عمل الطّاعات والمواظبة على اجتناب المعصية، فهما أولى برعاية الحقّ من كثير من الجيران.

قال الغزاليّ- رحمه الله-: وجملّة حقّ الجار: أن يبدأه بالسّلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السّؤال، ويعوده في المرض ويعزيّه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنّئه في الفرح، ويظهر الشّركة في السّرور معه، ويصفح عن زلّاته، ولا يتطلّع من السّطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصبّ الماء في ميزابه، ولا في مطرح التّراب في فناءه، ولا يضيق طريقه إلى الدّار، ولا يتبعه النّظر فيما يحمله إلى داره، ويستتر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرخته إذا نابتة نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاما، ويغضّ بصره عن حرّمته، ولا يديم النّظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

وقال: «اعلم أنّه ليس حقّ الجوار كفّ الأذى فقط بل احتمال الأذى، ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بدّ من الرّفق وإسداء الخير والمعروف، إذ يقال: إنّ الجار الفقير يتعلّق بجاره الغنيّ يوم القيامة فيقول: يا ربّ سل هذا لم منعي معروفه وسدّ بابيه دوني؟»

وقال القرطبيّ: فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها (أي مرعّب فيها) مسلما كان أو كافرا وهو الصّحيح.

وقال ابن حجر: «ويفترق الحال في ذلك بالنّسبة للجار الصّالح وغير الصّالح: والذي يشمل الجميع إرادة الخير له، وموعظته بالحسنى، والدّعاء له بالهداية، وترك الإضرار له إلّا في الموضع الذي يجب فيه الإضرار له بالقول والفعل، والذي يخصّ الصّالح هو جميع ما تقدّم، وغير الصّالح كفّه عن الذي يرتكبه بالحسنى على حسب مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويعظ الكافر بعرض الإسلام عليه ويبين محاسنه، والترغيب فيه برفق، ويعظ الفاسق بما يناسبه بالرّفق أيضا ويستتر عليه زلله عن غيره، وينهاه برفق، فإن أفاد فيه وإلّا فيهجره قاصدا تأديبه على ذلك مع إعلامه بالسّبب ليكفّ.

وأُشَدُّ أَبُو جَعْفَرِ الْعَدَوِيِّ:
شَرَا جَارَتِي سِتْرًا فَضُولَ لَأَتْنِي ... جَعَلْتَ جَفُونِي مَا حَبِيبَتْ لَهَا سِتْرًا
وَمَا جَارَتِي إِلَّا كَأَمِّي وَإِنِّي ... لِأَحْفَظْهَا سِرًّا وَأَحْفَظْهَا جَهْرًا
بَعَثْتُ إِلَيْهَا: اُنْعَمِي وَتَنَعَّمِي ... فَلَسْتُ مُحَلًّا مِنْكَ وَجْهًا وَلَا شَعْرًا.
وَقَالَ حَاتِمُ الطَّائِي:

نَارِي وَنَارَ الْجَارِ وَاحِدَةٌ ... وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ الْقَدَرُ
مَا ضَرَّ جَارًا لِي أَجَاوِرُهُ ... أَنْ لَا يَكُونَ لِبَابِهِ سِتْرُ
أَغْضِي إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخَدْرُ.
وَأُشَدُّ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَرَّانِيُّ:
وَالْجَارُ لَا تَذْكُرُ كَرِيمَةً بَيْتَهُ ... وَاغْضِبْ لِابْنِ الْجَارِ إِنْ هُوَ أَغْضَبَا
أَحْفَظْ أَمَانَتَهُ وَكُنْ عَزًّا لَهُ ... أَبَدًا وَعَمَّا سَاءَهُ مُتَجَنِّبَا
كُنْ لَيْنًا لِلْجَارِ وَأَحْفَظْ حَقَّهُ ... كَرَمًا وَلَا تَكْ لِلْمَجَاوِرِ عَقْرَبَا.

يُرَوَّى أَنَّ جَارًا لِابْنِ الْمُقَفَّعِ أَرَادَ بَيْعَ دَارِهِ فِي دِينِ رُكْبَةٍ وَكَانَ يَجْلِسُ فِي ظِلِّ
دَارِهِ، فَقَالَ: مَا قُمْتُ إِذَا بِحَرَمَةِ ظِلِّ دَارِهِ إِنْ بَاعَهَا مَعْدَمًا». فَدَفَعَ إِلَيْهِ ثَمَنَ
الدَّارِ وَقَالَ: لَا تَتَّبِعْهَا.

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانٌ، وَجَارٌ لَهُ
ثَلَاثَةُ حَقُوقٍ.

فَالْجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حَقُوقٍ هُوَ الْجَارُ الْمُسْلِمُ ذُو الرَّحْمِ، فَلَهُ حَقُّ الْجَوَارِ،
وَحَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الرَّحْمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانٌ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ. لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ
وَحَقُّ الْإِسْلَامِ. وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ، وَجَاءَ بِذَلِكَ حَدِيثٌ لَكُنَّه
ضَعِيفٌ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ بِالنِّسْبَةِ لِحَقِّ
الْمُسْلِمِ وَحَقِّ الْقَرِيبِ وَحَقِّ الْجَارِ، كَمَا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلتَّقْسِيمِ الْعَقْلِيِّ الْإِسْتِقْرَائِيِّ
وَعَلَى هَذَا فَلِلْجَارِ الْكَافِرِ مَهْمَا كَانَ كَفَرَهُ حَقُّ الْجَوَارِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَتَرْكُ
إِذَائِهِ.

من فوائد الإحسان إلى الجار

- حفظ حقّ الجار من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- تعظيم حقّ الجار.
- حسن العلاقة بين الجيران ترضي الله- عزّ وجلّ وتسخط الشيطان وسوءها يسخط الله- عزّ وجلّ- ويرضي الشيطان.
- اسم الجار يشمل عموم أنواع المجتمع فإذا حسنت العلاقة بين الجيران وسادهم الحبّ والوئام سعد المجتمع كلّهُ.
- إنّ جار الخير يعود خيره عليه وعلى جيرانه وجار السوء يعود سوءه عليه وحده.
- المكافأة على الإحسان بأحسن منه.
- حسن الجوار ليس بكفّ أذاك عن جيرانك بل بتحمّل أذاهم وقضاء حوائجهم وكشف كربهم.
- الملكان المجاوران لك أشدّ الجيران قربا فاحفظ حقّهما فلا يريا منك إلّا خيرا.
- حسن الجوار باب من أبواب الجنّة وسوءه باب من أبواب النّار.

ومن المواقف :

الجار قبل الدار.

روي هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق. ويروى: الجار والرفيق مرفوعين والنصب فيهما حسن، أي: التمس الجار قبل الدار والتمس الرفيق قبل الطريق. وقال أبو تمام في هذا المعنى:

من مبلغ أبناء يعرب كلها ... أني أبتيت الجار قبل المنزل؟
و وقال الآخر:

يقولون: قبل الدار جارّ موافق ... وقبل الطريق النهج أنس طريق
فقلت: وندمان الفتى قبل كأسه ... فما حث كأس الخمر مثل صديق
وقال الآخر في المعنى:

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ... ولم يعلموا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم: بعض الملام! فإنما ... بجيرانها تغلو الديار وترخص

إن هذا لفي كتاب الله عز وجل

قال المكي : كنت عند سفيان بن عيينة وجاء رجل فقال له : إن جاري قد آذاني ، وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : من آذى جاره ورثه الله داره ، فقال له : إن هذا لفي كتاب الله عز وجل ، قال الرجل : وأين ذلك ؟ قال : قال الله عز وجل ' وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ' إبراهيم : 13 - 14 ، فقام المكي وقبل رأسه (1).

فكيف أصنع إذا تبين الخطأ

قال ابن المبارك سأل رجل أبا حنيفة عن خوخة اراد ان يفتحها في حائط له في داره فقال افتح ما شئت ولا تطلع على جارك فأتى به جاره إلى ابن أبي ليلى فمنعه منه فشكا إلى أبي حنيفة قال فافتح فيه بابا فجاء ليفتح الباب فأتى به إلى ابن أبي ليلى فمنعه فقال كم قيمة حائطك قال ثلاثة دنانير قال هي لك علي واذهب فاهدم الحائط من أوله إلى آخره فجاءه يهدمه فمنعه فأتى به إلى ابن أبي ليلى فقال يهدم حائطه وتسألني أن أمنعه من ذلك اذهب فاهدمه واصنع ما شئت قال فلم عنيتني ومنعتني من فتح خوخة وكان ذلك أهون علي قال إذا كان يذهب إلى من يدلّه على خطأي فكيف أصنع إذا تبين الخطأ .

أبو حنيفة وجار له كان يغني بشعر العرجي

عن الأصمعي قال كان لأبي حنيفة جار بالكوفة يغني فكان إذا انصرف وقد سكر يغني في غرفته ويسمع أبو حنيفة غناؤه فيعجبه وكان كثيرا ما يغني أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريمة وسداد ثغر فلقية العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من عاد فأخبر فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى الوالي عيسى بن موسى فقال له إن لي جارا أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيرا فقال عيسى سلموا إلى أبي حنيفة كل ما أخذه العسس البارحة فأطلقوا جميعا فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرا ألت كنت تغني يا فتى كل ليلة (أضاعوني وأي فتى أضاعوا ...)

¹ (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 70/1)

فهل أضعناك قال لا والله أيها القاضي ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك قال فعد إلى ما كنت تغنيه فإني كنت آنس به ولم أر به بأساً قال أفعل⁽¹⁾.

لا تفعل !

وكان سليمان الأعمش من الضجر بحيث اشتهر وانتشر؛ قال له الإمام أبو حنيفة النعمان: لولا أنني أخاف أن أشق عليك لأكثر زيارتك. فقال: لا تفعل ! فأنت تشق علي والله وأنت في دارك.⁽²⁾

الهدية :

الهدية كما عرفها أهل العلم هي عطية بلا اشتراط مقابل، وقد ورد ذكرها والحث عليها في القرآن والسنة، وهي من أعظم الأسباب التي تعين على إزالة ما في النفوس وتحبب المؤمنين بعضهم إلى بعض ، وهي شعيرة إسلامية جميلة جداً، فيها يتم سبب عظيم للتآلف بين القلوب والاجتماع، وشيوع المودة بين المسلمين، وهذا من أعظم ما جاء في شريعة الإسلام. أما الهدية: فإنها ما أتحفت به، والتهادي: أن يهدي بعضهم إلى بعض، يقال: أهديت له وإليه، والجمع هدايا، وهداوى، وهداوي، وهداوى كما هي في بعض روايات أهل اللغة، والهدية: مفرد هدايا، يقال: أهدى له وأهدى إليه، كلاهما صحيح، فيتعدى الفعل باللام وإلى، ويقال: أهدى الهدية إلى فلان، وأهدى له هدية، أي: بعث بها إكراماً له. ويقال أيضاً: أهديت العروس إلى بعلها، أي: زفت إليه، وهداى فلاناً أي: أرسل كل منهما هدية إلى صاحبه. وبالنسبة للتعريف الشرعي للهدية، فإن العلماء قد ذكروا عدة تعريفات، ويمكن أن نقول عموماً: إن الهدية هي دفع عين -سواء كانت مالاً أو سلعة- إلى شخص معين -الذي يراد بالهدية هذا الشخص المعين- لأجل الألفة والثواب، من غير طلب ولا شرط. لأجل الألفة والثواب: وهو الأجر من الله سبحانه وتعالى. من غير طلب؛ لأنه لو قال: أهدني أو أعطني ربما صارت رشوة.

¹ (أبي الفرج الأصفهاني ، الأغاني، تحقيق : سمير جابر، دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثانية 399/ 1 ،

² (الخصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر ، ص 136

ولا شرط كما يشترط بعضهم في الإعانة، بشرط الإعانة.
فإذاً الهدية: هي عطية بلا اشتراط مقابل، وهناك كلمات مرادفة لكلمة الهدية
مثل: الهبة والعطية والصدقة، وقد جاء عن أهل العلم روايات في التفريق
بينها، ولكن يمكن أن نقول: إن الهدية والهبة والصدقة والعطية بمعنى واحد
من جهة أنها تملك في الحياة بلا عوض، فالهدية والهبة والعطية والصدقة
تتشارك كلها في أنها تملك في الحياة بلا عوض؛ لأنك تملكه هذا الشيء بلا
مقابل، والعطية: اسمٌ شاملٌ للجميع.

والهدية يُتقرب بها محبة لك، والهبة والعطية معناهما متقارب حتى لا يكاد
يوجد فرق بينهما، والصدقة: التي تُدفع إلى الشخص لقصد ثواب الآخرة فقط.
فإذاً هناك فرق بين الهدية والصدقة، من جهة أن الهدية يقصد بها التحبب
وثواب الآخرة، والصدقة يقصد بها ثواب الآخرة فقط.

وتمتلك الهدية بالقبض، فإذا قبلها وقبضها صارت في ملكه، ولا تنتقل إلى
ملكه إلا بقبضها سواء قبضها هو أو وكيله، واحتج جمهور العلماء بحديث
النبي ﷺ: (ولو أهدى إلي كراع لقبّلت).

فالهدية بناءً على ذلك لا تملك بمجرد الإهداء، حتى تصل إلى الشخص
المهدى إليه أو وكيله، فإذا استلمها صارت ملكاً له.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر الهدية، فقالت ملكة سبأ - بلقيس - لما خافت
من سليمان عليه السلام، قالت للملأ من حولها: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ
فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُونَنِي بِمَا آتَانِي
اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } [النمل: 35-36].

فأرادت استمالة قلب سليمان لدفع الضرر عنها، وأرادت مصانعة، وأن تنثيه
عن دعوته لها ولقومها وتهديدهم لهم، وسليمان لم يقبل الهدية؛ لأنها لم تكن
لوجه الله، ولا كان فيها معروف، وإنما أرادت إيقافه عن جهادها، عن الجهاد
وقتل هذه البلدة وهي اليمن، فلما رأى سليمان عليه السلام أن هذه الهدية
ليس فيها خير ولم يرد بها وجه الله ردها، وقال: { بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ
* ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } [النمل: 36-37] ليعلموا أننا
نريد الجهاد وإقامة الدين، وليست القضية مجاملات وهدايا، كما هي العادة
بين الملوك: { ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا
أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ } [النمل: 37] حتى لا يخذعوا بحطام هذه الدنيا أو يظنوا
أننا نغتر بالهدايا أو أننا سنترك الجهاد لأجل هديتهم: { ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } [النمل: 37].

ومما يدخل -أيضاً- في الهدية مثل العطية والهبة، أو مما يقرب من معناها ما جاء في قوله تعالى: { وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:4] فالله عز وجل أمر بإيتاء النساء المهور.

{ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً } [النساء:4] ومعنى نحلة: عطية عن طيب نفس.

وقال: { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ } [النساء:4] وهبته لكم، وتنازلن عنه لكم: { فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:4] فإذا تنازلت عن جزء من الصداق لزوجها أو أعطته إياه بعدما استلمته منه دون ضغط منه ولا إكراه، وإنما عن طيب نفسٍ منها ورضا: { فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:4].

فإذا: من أعظم الحلال الذي يؤكل، المغنم: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا } [الأنفال:69] وهو أعظم أنواع المال الحلال، بل هو أشد الأموال حلة، وقد فاتنا هذا النوع من المال بسبب ترك الجهاد.

وكذلك من الأموال الحلال الطيبة، ما تتنازل به المرأة من مهرها لزوجها، قال الله عز وجل: { فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا } [النساء:4] ولذلك جاء عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تستشفى فاستوهب درهماً من زوجتك عن طيب نفسٍ منها، ثم اشتر به عسلاً، وهاتِ إناءً واجمع فيه من ماء المطر، ثم اقرأ القرآن وأذب العسل فيه واشربه، قال: أما ماء المطر فإنه ماءً مبارك، والعسل فيه شفاءٌ للناس، والقرآن -أيضاً- فيه شفاء، ودرهم الزوجة هنيئاً مريئاً، فإنك تبرأ بإذن الله.

والهدية قد وردت في السنة النبوية، وجاء النص عليها لما لها من الأثر العظيم في النفوس، كما قال النبي ﷺ: (تهادوا تحابوا) (1) ولا شك أن الهدية سببٌ للمحبة وتآلف القلوب، وكان التابعون يرسلون بهداياهم، ويقول الواحد لأخيه الذي يهديه: نحن نعلم غناك عن مثل ذلك، وإنما لتعلم أنك منا على بال، يعني: نحن نعلم أنك مستغن عن هديتنا، ولكن لتعلم أننا نقدرك وأن لك في أنفسنا مكانة، وقال الشاعر:

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في الضمير هوأً ووداً وتكسوه إذا حضروا جمالا

¹ (رواه البخاري في الأدب المفرد وقال ابن حجر : إسناده حسن.

وقال آخر:

إن الهدايا لها حظٌ إذا وردت أحظى من الابن عند الوالد الحذب
يكون لها مكانة في النفس إذا جاءت.

وقال آخر:

إن الهدية حلوة كالسحر تجتذب القلوبا
تدني البغيض من الهوى حتى يصيره قريباً
وتعيد مضطرباً غن العداوة بعد نفرتة حبیباً

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ (كان يقبل الهدية ويثيب عليها)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم □ : (لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لآلت⁽¹⁾).

وجاء الأمر بقبول الهدية وعدم ردها إذا كانت لا شبهة فيها ولا حرام، فأخرج الإمام أحمد و البخاري في الأدب المفرد وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أجيئوا الداعي، ولا تردوا الهدية، ولا تضربوا المسلمين) فنهى النبي ﷺ عن رد الهدية⁽²⁾.

وكان النبي ﷺ يعطي عمر شيئاً من العطاء فكان يقول عمر : (أعطه من هو أفقر مني يا رسول الله! فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مستشرف) أي: غير متطلع (ولا سائل) ما طلبته (فخذ فتموله) أي: تملكه (فإن شئت كله وإن شئت تصدقت به، وما لا - إذا كان خالياً من هذه الشروط - فلا تتبعه نفسك) فإذا: قوله: (إذا جاءك من هذا المال شيء فخذ) يدخل فيه الهدايا⁽³⁾.

وقال النبي ﷺ: (من آتاه الله شيئاً من هذا المال من غير مسألة فليقبل، فإنما هو رزق ساقه الله إليه)⁽⁴⁾ مادام أن المال أتى من غير مسألة، وأنت لست مستشرفاً له، ولا متطلعاً له، ولا متعلقة نفسك به تهفو إليه وترجوه، فخذ ولا ترد، فهذا مال مبارك.

ومن الأدلة أيضاً - أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية - قصة بريرة رضي الله عنها، وجاء في صحيح البخاري عديداً من الروايات في هذه القصة، فمنها ما رواه في كتاب الأطعمة، وربما تكون هذه الرواية هي أوضحها وأتمها، أن النبي

¹ (وهو في صحيح البخاري

² (البخاري في الأدب المفرد ج1/ص67 ح157 وقال الشيخ الألباني : صحيح

³ (أخرجه: البخاري 84/9-85 (7163)، ومسلم 98/3 (1045) (110) .

⁴ (رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح ، أنظر صحيح الترغيب والترهيب ، 207/1

ﷺ دخل يوماً بيت عائشة وعلى النار برمةٌ تفور فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأدم من آدم البيت فقال: (ألم أر لحماً؟ قالوا: بلى يا رسول الله! ولكنه لحمٌ تُصدق به على بريرة ، فأهدته، لنا وأنت لا تأكل الصدق، فقال النبي ﷺ: هو صدقة عليها وهدية لنا) (1).

إذاً: المال لما انتقل من شخص اختلف حكمه.

من المتصدق إلى بريرة صدقة، ومن بريرة إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام هدية، إذاً: يجوز للنبي عليه الصلاة والسلام أن يأكل منه، وقد كان النبي ﷺ: (إذا أتى بطعامٍ سأل عنه: أهديته أم صدقة؟ فإن قيل صدقة قال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل؛ -لأنه لا يليق بمقام النبوة أن يأخذ من صدقات الناس وأوساخهم- وإن قيل: هدية، ضرب بيده ﷺ فأكل معهم) (2).

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، والسبب في ذلك كما تقدم، وهذه آيته عليه الصلاة والسلام في الكتب المتقدمة، أنه كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، والكتب المتقدمة كانت فيها صفة النبي ﷺ.

ولا شك أن هناك فرقاً بين الهدية والصدقة، فالهدية نوع من الكرامة، ومن باب حسن الخلق، وتتألف بها القلوب، وكان عليه الصلاة والسلام يأكلها؛ لأنها من باب الإكرام ولا يردّها؛ لأجل ألا يغضب الذي أهدى، أو يصبح في نفسه عليه شيء، فلا شك أن في أخذ الهدية تألفاً للقلوب وإبلاغاً له بأن إكرامك مقبول.

أما الصدقة من اليد العليا إلى اليد السفلى فلا تليق بمقام النبوة، وكان عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ولو كانت قليلة ويسيرة، ولذلك قال: (ولو أهدى إلي ذراعٌ أو كراعٌ لقبليته) والكراع: ما دون الكعب، وما عليه إلا اليسير من اللحم، لكن لو أهدى إليه لقبله عليه الصلاة والسلام ولم يحتقر شيئاً، وبذلك أوصى نساء المؤمنين فقال: (يا نساء المسلمين! لا تحقرن جارةً لجارتها ولو فرسن شاة) (3). والفرسن: هو في الأصل اسمٌ لخف البعير، فاستعير للشاة فهو ظلفها، ولم تجر العادة بإهداء ظلف الشاة، لكن ذكره على سبيل

¹ (رواه البخاري 3 / 281 في الزكاة ، باب الصدقة على موالى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي المساجد ، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد ، وفي البيوع ، باب البيع والشراء مع النساء ، وباب إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل ، وفي العتق ، باب بيع الولاء وهبته ، وباب ما يجوز من شروط المكاتب ، وباب استعانة المكاتب وسؤاله الناس

² (رواه البخاري في كتاب الهبة

³ (أخرجه البخاري في: 51 كتاب الهبة: 1 باب الهبة وفضلها والتحريض عليها

المبالغة، أي: اقبل الشيء اليسير من الهدية ولا ترده، فأحياناً قد يهدي إليك أخ شيئاً يصنعه بيده من الأوراق التي لا قيمة لها في الحقيقة، فاقبله تطيباً لخاطره وقلبه .

وكان من كريم خلقه ﷺ أنه إذا جاءت الهدية، أشرك فيها من معه، أو من حوله، كما جاء في كتاب الرقاق في صحيح البخاري ، دخل عليه الصلاة والسلام فوجد لبناً في قدح فقال: (من أين هذا اللبن؟ فقالوا: أهواه لك فلان أو فلانة، فقال: أبا هر ! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد.

كان عليه الصلاة والسلام إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ... الحديث. إذا: كان هذا من كريم خلقه عليه الصلاة والسلام، من كرمه أنه كان إذا جاءت الهدية لم ينس من حوله من الفقراء والمحتاجين، وكان من حضره يعطيه، وإذا أهديت إليه باكورة الثمر -أو الثمار- كان يعطيها لأصغر القوم سناً -الطفل-.

وكان ﷺ يتألف بهداياه القوم، وربما كان رجلٌ حديث عهدٍ بالإسلام أو في قلبه شيء على الإسلام وأهله، أو على النبي ﷺ فلا يزال يعطيه حتى يرضيه. ومن الأحاديث الجميلة التي وردت في صحيح البخاري عن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ: (أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب فقسمها في ناسٍ من أصحابه) ولا يلزم أن يلبسوها؛ لأن لبس الحرير للرجال حرام لكن يمكن أن يعطوها زوجاتهم أو بناتهم، أو كما فعل عمر حين أهداها لأخ له مشرك بمكة .

(أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب فقسمها في ناسٍ من أصحابه، وعزل منها واحدة لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور بن مخرمة فقام على الباب فقال: ادعه لي -وكان صاحب جفاء وغلظة- فسمع النبي صلى الله عليه وسلم صوته فأخذ قباءً فتلقاه به واستقبله بأزراره فقال: يا أبا المسور ! خبأت هذا لك، يا أبا المسور ! خبأت هذا لك، وكان في خلقه شدة) أي: أبو المسور .

وقد كان ابنه المسور بن مخرمة من كبار رواة الأحاديث. وكان ﷺ يرسل الهدايا في أقربائه، وكان عنده من الوفاء لذكرى زوجته خديجة ما يستخدم الهدية فيه لإحيائه، والتدليل على أنه باقٍ في نفسه ذكرى

تلك المرأة الطيبة التي ساعدته بمالها ودافعت عنه بنفسها، وكان أولاده منها، وأن ذكراها الطيبة لا زالت موجودة وحية، فكان إذا ذبح الشاة يُهدي لصديقات خديجة .

ولذلك تقول عائشة رضي الله عنها: (ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة) مع أنها ما رأتها، لكن غارت عليها من الذكر والسمعة، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يذكرها دائماً حتى قالت عائشة : (ما تريد من عجوز حمراء الشدين أبدلك الله خيراً منها؟! قال: إنها كانت وكانت . وكان لي منها ولد) .

قالت عائشة : (ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني، لكثرة ما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن) أي: يُعطينهن ما يسعهن⁽¹⁾.

وكان ﷺ يكافئ على الهدية، كما جاء في الحديث: (كان يقبل الهدية ويثيب عليها) ولا شك أن هذا من السنن الجميلة -المكافأة على الهدية- وذلك لعدة أسباب، منها: السبب الأول: ألا يبقى له منةٌ عليك، أو أن تبادله محبةً بمحبة، أو أن تُظهر له أنك كافأته على جميله بجميل، وأنت لم تنس الجميل، وأنه صنع إليك معروفاً فصنعت إليه معروفاً مقابله، ولا شك كما قلنا أن الهدية الأصل فيها هو التبرع، وأن الذي يهدي لا يشترط المكافأة.

وقد تكلم العلماء في حكم المكافأة على الهدية، وقال بعض أهل العلم: إن المكافأة على الهدية لا تجب، إذا أهداك شخص هدية لا يجب أن تكافئه عليها. وقال بعض المالكية: تجب المكافأة على الهدية؛ لأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك، لكن مجرد فعله عليه الصلاة والسلام لا يدل على الوجوب⁽²⁾.

¹ (أخرجه البخاري (6004) و (7484) ، ومسلم (2435) (74) وأخرجه ابن راهويه (720) و (854) ، والبخاري (3816) و (3817) و (3818) و (5229) ، ومسلم (2434) و (2435) ، والترمذي (2017) و (3875) و (3876) ، والنسائي في "الكبرى" (8361) و (8362) و (8363) و (8913) ، وابن ماجه (1997) ، وابن حبان (7006) ، والطبراني في "الكبير" 23/ (15) و (16) و (17) و (19) ، والحاكم في "المستدرک" 186/3 ، والبيهقي في "السنن" 307/7 ، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (في ترجمة خديجة) ، والبغوي في "شرح السنة" (3956)

² (أنظر سلسلة الآداب الإسلامية، 8- 12- 7/

وقد جعل بعض العلماء الناس في الهدايا على ثلاث طبقات: هبة الرجل إلى من هو دونه، فهي إكرام وإطاف لا تقتضي الثواب والمكافأة بالمثل، فإذا استلمها هذا الأدون لا يستلزم ذلك أن يرد بهدية مقابلها.

وثانياً: هبة النظير إلى نظيره.

وثالثاً: هبة الأدنى إلى الأعلى، إذا أهدى الأدنى للأعلى فإنه يكون من المؤكد في حق الأعلى أن يثيبه، وذلك بما جرت به العرف والعادة. فإذا: حكم الإثابة على الهدية مستحب؛ لأنه ورد في السنة.

إذا أهداك إنسان هدية يُسن لك أن تهديه أخرى، وخصوصاً عندما يكون الذي أهداك أقل منك منزلة أو سناً -مثلاً- والنبي ﷺ قد قال: (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) (1).

وقد أهدى أعرابي رسول الله ﷺ ناقة فعوضه ﷺ ستة، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) (2) فالهدية على الهدية من شكر الناس.

إذا: دخل في عموم قوله ﷺ: (من صنع إليكم معروفاً فكافئوه) الهدية على الهدية، وجاء في قوله عليه الصلاة والسلام: (من أعطي عطاء فليجز به إن وجد، وإن لم يجد فليثن به، فإن من أثنى به فقد شكر، ومن كتبه فقد كفره، ومن تشبع بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور).

وهذا الحديث حسنه الترمذي وصححه ابن حبان ، وإذا لم يجد شيئاً، فأقل شيء أن يدعو لمن أهدى له الهدية، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي وحسنه: (من صنع إليهم معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء، وأجزل له في العطاء) (3).

وينبغي كذلك على المدعو له أن يبادل الدعاء بدعاء، كأن يقول له: وجزاك، أو وإياك، ونحو ذلك، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (أهديت لرسول الله

¹ (صحيح . أخرجه أحمد (2 / 68 ، 99 ، 127) وكذا البخاري في " الأدب المفرد " (216) وأبو داود (1672 ، 5109) والنسائي (1 / 358) والحاكم (1 / 412 ، 413 - 412)
² (أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (217/5) قال الهيثمي : رواه عبد الله بن أحمد والبخاري والطبراني ورجالهم ثقات .

³ (أخرجه الترمذي (380/4 ، رقم 2035) وقال : حسن جيد غريب . والنسائي في الكبرى (53/6 ، رقم 10008) ، وابن حبان (202/8 ، رقم 3413) ، والبيهقي في شعب الإيمان (522/6 ، رقم 9138) ، والضياء (110/4 ، رقم 1322) . وأخرجه أيضاً : البخاري (54/7 ، رقم 2601) .

ﷺ شاة فقال: اقسّمها، فكانت عائشة إذا رجع الخادم تقول: ما قالوا؟ (عندما ترسل عائشة الهدية أو العطية مع الخادم إلى شخص آخر أو بيت ناس، تسأل الخادم إذا رجع، تقول له: ماذا قال أهل البيت لما أعطيتهم ما أرسلنا به إليهم؟ فيقول الخادم: (قالوا: بارك الله فيكم، فتقول عائشة : وفيهم بارك الله، نرد عليهم مثلما قالوا، ويبقى أجرنا لنا) (1).

أما بالنسبة لمن يُستحب أن يهدي إليهم الإنسان ويبدأ بهم، فقد جاء في صحيح البخاري في كتاب الهبة أن ميمونة زوج النبي ﷺ أعتقت وليدة لها - جارية- فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام: (لو وصلت بعض أخوالك كان أعظم لأجرك) يعني لو أعطيتها بعض أخوالك، كان أعظم لأجرك من العتق؛ لأنهم قد يكون بهم حاجة، فأعطواها إياهم أحسن وأكثر أجراً. وكذلك من الضوابط في مسألة الإهداءات أن نبداً بمن جاء في صحيح البخاري في كتاب الشفعة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قلت: يا رسول الله! إن لي جارين فالى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً) فالجار الأقرب يبدأ به في الهدية؛ لأن الإنسان قد تكون قدرته محدودة على الإهداء، ليس عنده هدايا كثيرة تسع الجميع، فيبدأ بالأقرب باباً بالنسبة لهدايا الجيران.

وكذلك من الأحوال التي يتأكد فيها الإهداء: إذا احتاج الناس، إذا كانت هناك حاجة كما جاء في صحيح البخاري في كتاب المغازي: [أن رجلاً من الصحابة رضي الله عنه صنع طعاماً فلما أوشك على النضج جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله! طعيم لي -طعيم: تصغير طعام، أي: هو قليل- فقم أنت يا رسول الله! ورجلٌ أو رجلان] عندي طعيم لو تأتي أنت ورجل أو رجلان قال: (كم هو؟ فذكرت له كم هو مقدار الطعام، فقال: كثيرٌ طيب).

ثم قال: (قل لها -يعني لزوجتك التي تطبخ الطعام- لا تنزعي البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: قوموا) ومن حوله كان المهاجرون والأنصار، فقام المهاجرون والأنصار، والرجل يريد واحداً أو اثنين أو ثلاثة بالكثير، فالنبي عليه الصلاة والسلام نادى المهاجرين والأنصار فلما دخل على امرأته قال: (ويحك -مصيبة- جاء النبي صلى الله

¹ (أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (303) أنظر : سلسلة الآداب الإسلامية، 12/ 8

عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار، فقالت المرأة -وكانت فقيهة-: هل سألك عن مقدار الطعام؟! قلت: نعم.

فاطمأنت (لأنه ما دام يعلم أن الطعام قليل ومع ذلك دعاهم، فلا بد أن يكون هناك سبب، فلما دخلوا قال: (ادخلوا ولا تباغظوا -النبي ﷺ- فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقيت بقية، فقال عليه الصلاة والسلام للمرأة: كلي هذا واهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة). فإذا: تتأكد أن الهدية احتاج الناس إليها وصارت حاجة، فيكون إرسالها فيه أجر عظيم.

وبالنسبة لبعض الهدايا التي يتأكد عدم ردها: ما كان غير ذي مئونة ولا فيه كلفة، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من عرض عليه ربحاً فلا يرد؛ لأنه خفيف المحمل طيب الرائحة) (1) فإذا: الأشياء اليسيرة يتأكد عدم ردها. (2)

الأحوال التي ترد فيها الهدية

ما هي الأحوال التي ترد فيها الهدية؟ أولاً: هل ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام رد هدايا؟ نعم.

ثبت أن النبي ﷺ رد هدايا بعض المشركين، وقال -أيضاً- في الحديث الصحيح: (وايم الله! لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجراً قرشياً أو أنصارياً أو دوسياً أو ثقفياً) والسبب أن أعرابياً وهب النبي عليه الصلاة والسلام ناقة فأتاه النبي ﷺ عليها، فقال: (أرضيت؟ قال: لا. فزاده حتى عوضه ست بكرات) هذا الأعرابي كأنه يريد بالهدية أن يأخذ أكثر منها.

ولذلك النبي ﷺ قال هذه العبارة الشديدة: أنه هم ألا يقبل هدية إلا من هؤلاء الأحياء من العرب، قال: (إن فلاناً أهدي إلي ناقة فعوضته عنها ست بكرات، فضل ساخطاً، ولقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي) رواه أحمد و الترمذي .

¹ (رواه أحمد و أبو داود ، وصحح إسناده في صحيح الجامع الصغير .

² (سلسلة الآداب الإسلامية ، 9/ 12

وكذلك قال ﷺ: (إن رجلاً من العرب يهدي أحدهم الهدية فأعوضه منها بقدر ما عندي، ثم يتسخطه فيظل يتسخط فيه عليّ، وايم الله! لا أقبل بعد مقامي هذا من رجل من العرب هدية إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقيفي أو دوسي) لأن هؤلاء لا يفعلون هذه الأفاعيل، هؤلاء الأربعة الأحياء من العرب معروفون بجودة الأخلاق، فالواحد منهم لا يلجأ إلى هذه الأساليب الملتوية، ثم يتسخط إذا أعطي رداً عليها.

فالإنسان إذا أحس أن الشخص يُريد بالهدية إحراجَه، فإن له أن يردّها، وإذا كانت الهدية من حرام، فإنه يجب ردها.

وإن كانت فيها شبهة فإنه يستحب له أن يردّها، وإذا كانت رشوة، فإنه يجب عليه أن يردّها، كأن يكون موظفاً صاحب منصب ولولا وظيفته ما أعطي الهدية، أو يكون موظفاً في الجوازات، أو موظفاً في المصلحة الفلانية، فإذا جاءت هدية من معقب الشركة، قال: هذه الشركة تهدي لك هذه الهدية، فلا يأخذها، لأنه يجوز له ذلك، ولو كان في غير هذه الوظيفة ما أعطوه، لكن لو أن جاره أو قريبه أعطاه، فليقبلها؛ لأنها ما جاءت من أجل أنه موظف في هذه الدائرة التي يراجعها الناس، وإنما جاءت لأنه قريب أو جار. فإذا: إذا اشتم منها رائحة التهمة أو الرشوة أو الريبة فإنه يردّها. فإذاً هناك بعض الحالات التي يجب فيها رد الهدية، أو يستحب فيها رد الهدية.

كذلك لو أهداك إياها فاجر فاسق، أو كافر يريد بالهدية أن يبقى له منةٌ عليك، حتى إذا قابلك انكسرت عينك وذلت نفسك له، ففي هذه الحالة لا تقبلها، لكن إذا جاءتك الهدية سليمة نقية ما فيها شائبة ولا ريبة ولا شبهة ولا حرمة فاقبلها ولا تردّها، وربما قبل النبي ﷺ هدايا وهو لا يحبها، لا يحبها من جهة نفسه؛ لأن نفسه لا تشتهيها لكن يأخذها إكراماً لصحابها، كما جاء في كتاب الهبة في صحيح البخاري رحمه الله عن ابن عباس قال: [أهدت أم حفيدة خالة ابن عباس إلى النبي ﷺ أقطاً وسمناً وأضباً -جمع ضب- فأكل النبي من الأقط والسمن وترك الضب تقذراً -نفسه تعافه؛ لأنه لم يكن بأرض قومه، لم يكن من طعام قريش- وأكل على مائدة رسول الله ﷺ، ولو كان حراماً لما أكل على مائدته].

إذاً: يأخذ الإنسان الطعام ولو كانت هذه الأكلة لا تعجبه، فيأخذها ويعطيها إلى أناس آخرين.

بعض الأحيان قد يطبخ جيرانك طعاماً، ويهدوك منه، وأنت لا يعجبك هذا النوع من الطعام مطلقاً، فلا غضاضة عليك لو أخذته وطيببت خاطرهم بأخذه، ثم أعطيته بعض الفقراء أو العمال أو المساكين، أو الناس الآخرين فهم يأكلونه أو يستفيدون منه .

وإذا أراد الإنسان أن يُهدي أخاه هدية، فإنه يتحرى أحسن الأوقات والأماكن، ليهدي إليه حتى تصبح أعظم، وحتى تصبح أوقع في النفس، والدليل على ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض.

وقالت عائشة : [كان الناس يتحرون بهداياهم اليوم الذي يكون فيه رسول الله ﷺ عندي يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ].

فإذاً: الهدية إذا كانت في يوم مُفضل أو ساعة أو مكان معين أو ظرف معين عند المهدى إليه تكون أوقع في النفس وأحسن، فهذا من آداب الهدية. وقد حدثت قصة طويلة في هذا الباب رواها البخاري رحمه الله في كتاب الهبة وفي كتاب المناقب، وملخص هذه الهدية أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة فاجتمع صواحيبي - تقول عائشة - إلى أم سلمة فقلن: (يا أم سلمة ! والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة ، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دار -لا يتقصدون عائشة - قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي صلى الله عليه وسلم قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليّ ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سلمة ! لا تؤذيني في عائشة ، فإنه -والله- ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) وهذا من فضلها رضي الله عنها.

وجاء في رواية أخرى: (أنهن وسطن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول له: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر ، فكلمته فقال: يا بنية! ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى.

فرجعت إليهن فاطمة) ثم أنه ليس من المناسب للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقول: يا أيها الناس! أهدوني في بيت فلان وفلان.

فعلى أية حال: النبي عليه الصلاة والسلام كان يُحب أن يهدى إليه وهو في بيت عائشة ؛ لأنه يحب عائشة رضي الله عنها، وأن تأتيه الهدية في هذا البيت يكون موقعها أجمل وأحسن، على أنه ينبغي على الإنسان المتزوج بأكثر من زوجة أن يراعي مسألة الغيرة أشد المراعاة حتى لا تتفاقم

المشكلات وتعظم، ويكون هذا من أسباب القطيعة، أو من أسباب تنغيص عيشه في بيته مع زوجاته، وقد جاءت قصة حفصة مع النبي ﷺ لما كان يحب العسل والحلوى، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من أحدهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، تقول عائشة : فغرت، لماذا أطل عند حفصة أكثر من المعتاد؟ فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكةً من عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت: أما والله لنحتالن له، وجاءت قصة العرفط والمغافير التي حصلت من حيلة عائشة رضي الله عنها، فالإنسان على أية حال يحتاج أن ينتبه إلى مسألة الغيرة بين الزوجات، ولا يكون هو سبب الشر، أو يكون هو مفتاح الشر .
قال الشاعر:

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وردت ... أحظى من الإبن عند الوالد الحذب
وقال آخر:

ما من صديق وإن أبدى مودّته ... يوماً بأنجح في الحاجات من طبق
إذا تلثم بالمنديل منطلقاً ... لم يخش صولة بوابٍ ولا غلق
لا تكذبن فإنّ النَّاس قد خلقوا ... لرغبةٍ يكرمون النَّاس أو فرق
أمّا الفعال فعند النّجم مطلعُه ... والقول يوجد مطروحاً على الطّرق
وقال آخر:

أهدى إليه حبيبه أترجةً ... فبكى وأشفق من عيافة زاجر
خوف التّبذلّ والتّلون إنّها ... لنوان باطنها خلاف الظّاهر
بعث أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع بنعل، وكتب معها:
نعلٌ بعثت بها لتلبسها ... تمشي بها قدّم إلى المجد
لو كان يحسن أن أشركها ... خذي جعلت شراكها خذي
أهدى الطائي إلى الحسن بن وهب قلماً، وكتب إليه:
قد بعثنا إليك أكرمك الـ ... ه بشيءٍ فكن له ذا قبول
لا تقسه إلى ندى كفك الغم ... ر ولا نيلك الكثير الجزيل
واغفر قلّة الهدية مني ... إن جهد المقلّ غير قليل

ومن المواقف :

كما أنت إذاً

حدث يونس بن عبيد، قال: أتيت محمد بن سيرين، فقلت: قولوا له: يونس بن عبيد بالباب، فقال: قولوا له: أنا نائم، فقلت: قولوا له: إن معي هدية، فقال: كما أنت إذاً.

فنيروز لنا إذاً كل يوم

أصبح عند عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة يوم نيروز هدايا كثيرة وتحف، فأنكر ذلك. فقالوا له: إنه يوم نيروز قال: فنيروز لنا إذاً كل يوم. قال أبو عمر: كان هذا منه رضي الله عنه - إن صحّ - قبل أن يدخل الكوفة، وأن يكون خليفة، لأن المحفوظ عنه من رواية الثقات أنه كان لا يقبل هدية نيروز ولا مهرجان، وأنه كان يأخذ ما أهدى إليه عماله فيضعه في بيت المال - مال المسلمين.

وما تصنع بعنائي؟!

قال أبو عوانة: قلت للأعمش: يا أبا محمد! إن عندي بطة سمينة، أفتكون عندي في الدار؟ قال: وما تصنع بعنائي؟! ابعث بها إلى الدار.

هديتي تقصر عن همّتي ... وهمّتي تعلو على مالي

أولم إسحاق بن إبراهيم الموصلي وليمة، فأهدى إليه إخوانه هدايا، وأهدى إليه إبراهيم بن المهدي جراب ملح وجراب أشنان مطيب، وكتب إليه رقعة: فداك أخوك عنده، لولا أن البضاعة تقصر لجزت السابقين إلى برّك، وكرهت أن تطوى صحيفة البرّ ولا حظّ لي فيها، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، والمختوم به لطيبه ونظافته، جراب ملح وجراب أشنان هدية من يحتشم إلى من لا يغتم، وكتب أسفل الرقعة:

هديتي تقصر عن همّتي ... وهمّتي تعلو على مالي

وخالص الودّ ومحض الهوى ... أحسن ما يهديه أمثالي

بعث رجل إلى دعبل بأضحية، فكتب إليه دعبل:

بعثت إلينا بأضحية ... وكنت حريّاً بأن تفعل

ولكنّها خرجت غثّة ... كأنك أروعيتها حرماً

فإن قبل الله قربانها ... فسبحان ربّك ما أعدّلا

فمن أي هذين لا أجزع

قال المدائني: أهدى رجل إلى مجوسي هدية فاغتم لذلك فقيل له فقال: لئن ابتدأني بها فإنه يدعوني إلى أن أتقلد منه منة، ولئن كافأني على معروف عنده إنه ليروم أخذ ذلك، فمن أي هذين لا أجزع.

لو قبلت هديتك ليلاً قبلتها نهاراً

أهدى عبد الله ابن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ولاه مصر مائة وصيفة، مع كل واحدة بدرة، وبعثها إليه ليلاً فردها وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلاً قبلتها نهاراً، وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون.

من هذا؟

مر زياد بأبي العريان بالبصرة فقال: من هذا؟ فقالوا: زياد بن أبي سفيان. فقال: ما أعرف في ولد أبي سفيان زياداً فبلغه ذلك فوجه إليه دنانير ثم مر به فقال: من هذا؟ فقالوا: زياد بن أبي سفيان. فقال: لقد ذكرني شمائل أبي سفيان، فبلغ ذلك معاوية فكتب إليه:

ما لبثتكم دنانير رشيت بها ... أن لونتكم أبا العريان ألوانا
لله در زياد منذ قدمها ... كانت لو دون ما يخشاه قربانا
فكتب له:

ابعث لنا صلة تحيا النفوس بها ... قد كدت يا ابن سفيان تنسانا
من يسد خيراً يجده حيث يجعله ... أو يسد شراً يجده حيثما كانا
أما زياد فلا أنسيت نسبته ... ولم أرد بالذي حاولت بهتاناً

ظالم ولي المظالم!

ولما ولي الحسن بن عمارة المظالم قيل ذلك للأعمش فقال: ظالم ولي المظالم! فأهدى إلى الأعمش رزمة ثياب فجعل يقول من بعد: إن الحسن كريم وحر سخي.

والظرف يوجب أخذه مع ظرفه

وقال إسحاق بن إبراهيم: كنت مع الرشيد بالكوفة في شهر رمضان فقال لموسى بن عيسى: يا أبا عيسى حلواؤنا عليك. وكان يوجه إليه كل ليلة عشر صحاف؛ فلما كان بعد عشر ليال قطعها فقال له الرشيد: اصغوت فقطعت الحلواء. فقال: ما قطعها غيرك إن أنصفت. قال: كيف؟ قال: إن من يأخذها منا لا يرد صحفة ولا منديلاً ولا طبقاً. قال: بئس ما عمل! إن الهدايا تستدام برد الظروف، فإذا صرت المتقاضى وأنت القاضي فلا تحتشم أحد في استرداد الظروف. وقد أهدى دنانير على طبق فضة فكتب أبيات فيها:

والظرف يوجب أخذه مع ظرفه

كل يهدي على قدر وسعه

وروي أن سليمان عليه الصلاة والسلام مر بعش قنبرة، فأمر الريح أن تتجنب عشها الذي فيه فراخها، فجاءت القنبرة لما نزل سليمان فرفرفت على رأسه وألقت جرادة هدية له لما فعل، فقال سليمان: هي مقبولة فكل يهدي على قدر وسعه.

نفسك والله أحب إلي!

اقتصد المتوكل فلم يبق أحد من جواريه وحشمه إلا أهدى إليه، فأخبرت قبيحة بذلك، وكانت معشوقته، فتزينت ودخلت عليه فأنشدته:

طلبت هدية لك باحتيال ... على ما كان من حسي وبسي
فلما لم أجد شيئاً نفيساً ... يكون هديتي أهديت نفسي
فقال المتوكل: نفسك والله أحب إلي!

حين احتفل أهدى بصل

أهدى أبو رهم السدوسي إلى قينة كان يعشقها زنبيل بصل فقال فيه ابن المعدل:

قالت جبل ماذا العمل هذا الرجل حين احتفل أهدى بصل!

والا قنتها!

أهدى رجل إلى الأعمش بطيخة، فلما أصبح قال: يا أبا محمد كيف كانت البطيخة؟ قال: طيبة! ثم أعاد عليه ثانياً وثالثاً فقال: إن خففت من قولك وإلا قنتها!

أرخ بديكه

وأهدى أبو الهذيل إلى أستاذ له ديكاً فكان بعد ذلك إذا خاطبه أرخ بديكه فيقول: إنه كان يوم أهديت إليك الديك، وأنه كان قبل الديك بكذا وبعد الديك بكذا!

حسبك فداك أبوك ووريت زناده فيك!

وقدم زياد على معاوية وأهدى إليه هدايا كثيرة، فأعجب بها معاوية فلما رأى زياد سروره بذلك قال: يا أمير المؤمنين، إني دوخت لك العراق وجبيت لك برها وبحرها وغلها وسمينها، وحملت لك لبها وسروها. فقال له يزيد: أما إذا فعلت ذلك فقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى شرف قریش، ومن عبيد إلى أبي سفيان، وما أمكنك تدويخ العراق إلا بنا. فقال معاوية: حسبك فداك أبوك ووريت زناده فيك!

إن جهد المقل غير قليل

أهدى حبيب بن أوس الطائي إلى الحسن بن وهب قلماً، وكتب معه إليه هذه الأبيات:

قد بعثنا إليك أكرمك الـ ... ه بشيء فكن له ذا قبول
لا تقسه إلى ندى كفك الغم ... ر ولا نيلك الكثير الجزيل
فاستجز قلة الهدية مني ... إن جهد المقل غير قليل⁽¹⁾

سألتك الجلوس لنا فأبيت علينا، فلما جاءك المال والجائزة جلست !!

وحج هارون الرشيد، فأرسل إلى سفيان بن عيينة فأمره أن يحدث بنيه، فقال يا أمير المؤمنين قد سألتني الناس فامتنعت عليهم، ولكني أجلس لبنيك وللناس، فقال: نعم. فلما جلس صاح به الناس: سألتك الجلوس لنا فأبيت علينا، فلما جاءك المال والجائزة جلست. فقال للمستملي: أنصتهم لي. فصاح المستملي: صه صه. فسكت الناس، فأخرج سفيان بن عيينة رأسه إليهم، وقال: حدثني الزهري، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما شيء أحل وأطيب من ثلاثة: صداق الزوجة، والميراث، وما أتاك الله به من غير مسألة، فإنه رزق ساقه الله إليك ". والله ما جئت هذا الرجل ولا سألته شيئاً من ماله، ولو وجه إلي شطر ماله لقبلته، ثم أدخل رأسه ولم يحدثهم في ذلك الموسم بشيء. ⁽²⁾

إن لم تكن من الصالحين فإننا نحب الصالحين

وقال بعضهم للفضيل: إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال: ما أخذ منهم إلا دون حقه ثم خلا به وعاتبه بالرفق فقال: يا أبا علي إن لم تكن من الصالحين فإننا نحب الصالحين⁽³⁾.

ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟!

قال سفيان بن عيينة: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال له: يا سالم سلني حاجة؛ فقال له: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله، فلما خرج خرج في أثره، فقال له: الآن قد خرجت فسلني حاجة! فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من

¹ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 500/2

² (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 32/1

³ (المشتولي ، سلوة الأحزان للاجتنب عن مجالسة الأحداث والنسوان ، 58/1

حوائج الدنيا؛ فقال له سالم: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟! (1)

إن شئت رددت الجرة وكتبت لك

أهدى رجل نصراني إلى الأوزاعي جرة عسل وقال له: يا أبا عمرو، تكتب لي إلى والي بعلبك فقال: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك. قال: رد الجرة فردها وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً.

لحملة القثاء إليه أحياناً

قال محمد بن أبي حاتم كانت له قطعة أرض يؤجرها كل سنة بسبع مائة درهم فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين لأن أبا عبد الله كان معجباً بالقثاء النضيج وكان يؤثره على البطيخ أحياناً فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحملة القثاء إليه أحياناً (2).

¹ (مختصر صفة الصفوة ، 13/1

² (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 41/1 - 42

إذا تراكبت لديك الهموم. وتراكت عليك غيوم الغيوم وضافت خطة الخطب. واشتدت ثائرة الكرب. فاتخذ المنى مراوح تروح بها عن قلبك. وتبرد حر صدرك. وترى في حركتها سكون جاشك. وفي الانس بها زوال استيحاشك. فربما اقترن ارجاف القلوب بما يقر العيون. ونطق لسان الفال بما يحقق الظنون . (1)

قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين، وهو الحق اليقين " بسم الله الرحمن الرحيم، أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب. "

فهذه السورة كلها، مفصحة بإذكار الله عز وجل، رسوله عليه السلام، منته عليه، في شرح صدره بعد الغم والضيق، ووضع وزره عنه، وهو الإثم، بعد إنقاض الظهر، وهو الإثقال، أي أثقله فنقض العظام، كما ينتقض البيت إذا صوت للوقوع، ورفع - ﷺ - ذكره، بعد أن لم يكن، بحيث جعله الله مذكوراً معه، والبشارة له، في نفسه عليه السلام، وفي أمته، بأن مع العسر الواحد يسرين، إذا رغبوا إلى الله تعالى ربهم، وأخلصوا له طاعتهم ونياتهم. وروي عن عبد الله بن عباس، أو عن علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: لا يغلب العسر الواحد يسرين، يريد أن العسر الأول هو الثاني، وأن اليسر الثاني هو غير الأول، وذلك أن العسر معرفة، فإذا أعيد، فالثاني هو الأول، لأن الألف واللام لتعريفه، ويسر، بلا ألف ولام، نكرة، فإذا أعيد، فالثاني غير الأول، وهذا كلام العرب، فإذا بدأت بالاسم النكرة، ثم أعادته، أعادته معرفة بالألف واللام، ألا ترى أنهم يقولون: قد جاءني الرجل الذي تعرفه، فأخبرني الرجل بكذا وكذا، فالثاني هو الأول، فإذا قالوا: جاءني رجل، وأخبرني رجل بكذا، وجاءني رجل، فأخبرني رجل بكذا وكذا، فالثاني غير الأول، ولو كان الثاني - في هذا الموضع - هو الأول، لقالوا: فأخبرني الرجل بكذا وكذا، كما قالوا في ذلك الموضع. وقال الله تعالى: " سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً. "

وقال: " ومن يتَّقِ اللهَ، يجعلَ له مخرجاً، ويرزُقُهُ من حيث لا يحتسب، ومن يتوَكَّل على الله فهو حسبه. "

وقال تعالى: " أو كالَّذي مرَّ على قرية، وهي خاوية على عروشها، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأما ته الله مائة عام، ثم بعثه، قال: كم لبثت، قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له ذلك، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير. "

فأخبر الله تعالى: أن الذي مر على قرية، استبعد أن يكشف الله تعالى عنها، وعن أهلها، البلاء، لقوله: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأما ته الله مائة عام ثم بعثه... إلى آخر القصة، فلا شدة أشد من الموت والخراب، ولا فرج أفرج من الحياة والعمارة، فأعلمه الله عز وجل، بما فعله به، أنه لا يجب أن يستبعد فرجاً من الله وصنعاً، كما عمل به، وأنه يحيي القرية وأهلها، كما أحياء، فأراه بذلك، آياته، ومواقع صنعه.

وقال عز وجل: " أليسَ اللهُ بكافٍ عبده، ويخوفونك بالذين من دونه. " وقال تعالى: " وإذا مسَّ الإنسانُ الضرَّ، دعانا لجنبه، أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره، مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرِّ مسّه، كذلك زينا للمسرفين ما كانوا يعملون. "

وقال عز وجل: " هو الذي يسيّرکم في البرّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ریح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنّوا أنّهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه، لنكوننّ من الشاكرين، فلما أنجاهم، إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق. "

وقال تعالى، في موضع آخر: " قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر، تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجيتنا من هذه، لنكوننّ من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها، ومن كل كرب، ثم أنتم تشركون. "

وقال تعالى: " وقال الذين كفروا، لرسولهم، لنخرجنكم من أرضنا، أو لتعودنّ في ملّتنا، فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي، وخاف وعيد. "

وقال عز وجل: " ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين، ونمكنّ لهم في الأرض، ونؤري فرعون، وهامان، وجنودهما منهم، ما كانوا يحذرون. " (1)

وقال عز وجل: " أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ، قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ. "

وقال جل من قائل: " وقال ربكم ادعوني، أستجب لكم " ، وقال عز من قائل " وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعاني، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون. "

وقال تعالى: " ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف، والجوع، ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون. "

وقال ﷺ: " الذين قال لهم الناس، إنّ الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ، لم يمسسهم سوء، واتَّبَعُوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. "

وروي عن الحسن البصري، أنه قال: عجباً لمكروب غفل عن خمس، وقد عرف ما جعل الله لمن قالهن، قوله تعالى: " ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون. "

وقوله تعالى: " الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء. "

وقوله: " وأقوض أمري إلى الله، إنّ الله بصير بالعباد، فواقاهم الله سيئات ما مكروا. "

وقوله: " وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين. "

وقوله: " وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فأتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين. "

وروي عن الحسن أيضاً، أنه قال: من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد، كشفها الله عنه، لأنه قد وعد، وحكم فيهن، بما جعله لمن قالهن، وحكمه لا يبطل، ووعد لا يخلف.

وقد ذكر الله تعالى، فيما اقتضه من أخبار الأنبياء، شدائد ومحناً، استمرت على جماعة من الأنبياء عليهم السلام، وضروباً جرت عليهم من البلاء، وأعقبها بفرج وتخفيف، وتداركهم فيها بصنع جليل لطيف.

فأول ممتحن رضي، فأعقب بصنع خفي، وأغيث بفرج قوي، أول العالم وجوداً، آدم أبو البشر، صلى الله عليه، كما ذكر، فإن الله خلقه في الجنة، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، ونهاه عن أكل الشجرة، فوسوس له الشيطان، وكان منه ما قاله الرحمن في محكم كتابه: " وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتبه ربه، فتاب عليه وهدى. "

هذا بعد أن أهبطه الله إلى الأرض، وأفقده لذيق ذلك الخفض، فانقضت عادته، وغلظت محنته، وقتل أحد ابنيه الآخر، وكانا أول أولاده.

فلما طال حزنه وبكاؤه، واتصل استغفاره ودعاؤه، رحم الله عز وجل تذلله وخضوعه، واستكانته ودموعه، فتاب عليه وهداه، وكشف ما به ونجاه. فكان آدم عليه السلام، أول من دعا فأجيب، وامتنح فأثيب، وخرج من ضيق وكرب، إلى سعة ورحب، وسلى همومه، ونسي غمومه، وأيقن بتجديد الله عليه النعم، وإزالته عنه النقم، وأنه تعالى إذا استرحم رحم.

فأبد له تعالى بتلك الشدائد، وعوضه من الابن المفقود، والابن العاق الموجود، نبي الله صلى الله عليه، وهو أول الأولاد البررة بالوالدين، ووالد النبيين والصالحين، وأبو الملوك الجبارين، الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وخصهم من النعم بما لا يحيط به وصف الواصفين.

وقد جاء في القرآن من الشرح لهذه الجملة والتبيان، بما لا يحتمله هذا المكان، وروي فيه من الأخبار، ما لا وجه للإطالة به والإكثار.

ثم نوح عليه السلام، فإنه امتحن بخلاف قومه عليه، وعصيان ابنه له، والطوفان العام، واعتصام ابنه بالجبل، وتأخره عن الركوب معه، وبركوب السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال، وأعقبه الله الخلاص من تلك

الأهوال، والتمكن في الأرض، وتغييض الطوفان، وجعله شبيهاً لآدم، لأنه أنشأ ثانياً جميع البشر منه، كما أنشأهم أولاً من آدم عليه السلام، فلا ولد لآدم إلا من نوح.

قال الله تعالى: " ولقد نادانا نوحٌ، فلنعم المجيبون، ونجّيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين، وتركنا عليه في الآخرين " " ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له، فنجّيناه وأهله من الكرب العظيم. "

ثم إبراهيم عليه السلام، وما دفع إليه من كسر الأصنام، وما لحقه من قومه، من محاولة إحراقه، فجعل الله تعالى عليه النار برداً وسلاماً، وقال: " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين " ، ثم اقتص قصه، إلى قوله تعالى: " قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً، فجعلناهم الأخسرين ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة، وكلاً جعلنا صالحين، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا. "

ثم ما كلفه الله تعالى إياه، من مفارقة وطنه بالشام، لما غارت عليه سارة، من أم ولده هاجر، فهاجر بها وبابنه منها إسماعيل الذبيح عليهما السلام، فأسكنهما بواد غير ذي زرع، نازحين عنه، بعيدين منه، حتى أنبع الله تعالى لهما الماء، وتابع عليهما الآلاء، وأحسن لإبراهيم فيهما الصنع، والفائدة والنفع، وجعل لإسماعيل النسل والعدد، والنبوة والملك، هذا بعد أن كلف سبحانه إبراهيم أن يجعل ابنه إسماعيل بسبيل الذبح، قال الله تعالى فيما اقتصه من ذكره في سورة الصافات: " فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي، قال يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال يا أبة افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتلّاهما للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم. "

فلا بلاء أعظم من بلاء يشهد الله تعالى أنه بلاء مبين، وهو تكليف الإنسان، أن يجعل بسبيل الذبح ابنه، وتكليفه، وتكليف المذبح، أن يؤمنا ويصبرا، ويسلما ويحتسبا، فلما أديا ما كلفا من ذلك، وعلم الله عز وجل منهما صدق الإيمان، والصبر والتسليم والإذعان، فدى الابن بذبح عظيم وجازى الأب بابلن آخر على صبره، ورضاه بذبح ابنه الذي لم يكن له غيره، قال الله عز وجل:

" وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين " ، إلى قوله: " لنفسه مبین " ، وخلصهما بصبرهما وتسليمهما من تلك الشدائد الهائلة.

وقد ذهب قوم إلى أن إبراهيم إنما كلف ذبح ابنه في الحقيقة، لا على ما ذهب إليه من ذلك أن الذي كلفه أن يجعل ابنه بسبيل الذبح، لا أن يذبحه في الحقيقة، واستدل الحسن البصري على أن إسماعيل هو الذبيح، لا إسحاق، وأن الأمور به كان الذبح في الحقيقة، بقوله تعالى: " فبشّرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب " ، فحصلت لإبراهيم البشرى، بأنه سيرزق إسحاق، وأن إسحاق سيرزق يعقوب، ولا يجوز للنبي أن يشك في بشارة الله تعالى، فلو كان إسحاق هو الذبيح، ما صح أن يأمره بذبحه قبل خروج يعقوب من ظهره، لأنه كان إذا أمر بذلك، علم أن البشرى الأولى، تمنع من ذبح إسحاق قبل ولادة يعقوب، وكان لا يصح تكليفه ذبح من يعلم أنه لا يموت أو يخرج من ظهره من لم يخرج بعد، ومتى وقع التكليف على هذا، لم يكن فيه ثواب، وفي قوله تعالى: " إن هذا لهو البلاء المبين " . دليل على عظم ثواب إبراهيم، وصحة الأمر بالذبح، يبين ذلك قوله تعالى: " فلما أسلما وتلّا للجبين " ، أي استسلما لأمر الله، وهما لا يشكان في وقوع الذبح على الحقيقة حتى فداه الله تبارك وتعالى، فهذا دليل على أن الذبيح غير إسحاق، ولم يكن لإبراهيم ولد غير إسحاق، إلا إسماعيل صلى الله عليهم أجمعين.

ومن هذا الباب قصة لوط عليه السلام، لما نهى قومه عن الفاحشة، فعصوه، وكذبوه، وتضييفه الملائكة، فطالبوه فيهم بما طالبوه، فخسف الله بهم أجمعين، ونجى لوطاً، وأثابه ثواب الشاكرين، وقد نطق بهذا كلام الله العظيم في مواضع من الذكر الحكيم.

ويعقوب ويوسف عليهما السلام، فقد أفرد الله تعالى بذكر شأنهما، وعظيم بلواهما وامتحانهما، سورة محكمة، بين فيها كيف حسد إخوة يوسف، يوسف، على المنام الذي بشره الله تعالى فيه بغاية الإكرام، حتى طرحوه في الجب، فخلصه الله تعالى منه، بمن أدلى الدلو، ثم استعبد، فألقى لله تعالى في قلب من صار إليه إكرامه، واتخاذ له ولداً، ثم مراودة امرأة العزيز إياه عن نفسه، وعصمة الله له منها، وكيف جعل عاقبته بعد الحبس، إلى ملك مصر، وما لحق يعقوب من العمى لفرط البكاء، وما لحق إخوة يوسف من التسرق، وحبس أحدهم نفسه، حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له، وكيف أنفذ يوسف إلى أبيه قميصه، فرد الله به بصيراً، وجمع بينهم، وجعل كل واحد منهم بالباقيين وبالنعمة مسروراً.

وأَيُّوب عليه السلام، وما امتحن به من الأسقام وعظم اللأواء، والدود والأدواء، وجاء القرآن بذكره، ونطقت الأخبار بشرح أمره، قال الله تعالى: " وأَيُّوب إِذْ نَادَى رَبَّهُ، أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ. "

ويونس عليه السلام، وما اقتص الله تعالى من قصته في غير موضع من كتابه، ذكر فيها التقام الحوت له، وتسبيحه في بطنه، وكيف نجاه الله عز وجل، فأعقبه بالرسالة والصنع.

قال الله تعالى: " وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مَلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. " ومنها قوله تعالى: " وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ " ، قال بعض المفسرين: معنى لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ.

وهذا مثل قوله: " وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ " ، أي ضيق عليه، ومثل قوله: " قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُقُهُ. "

وقد جاء قدر بمعنى ضيق في القرآن، في مواضع كثيرة، ومن هذا قيل للفرس الضيق الخطو: فرس أقدر، لأنه لا يجوز أن يهرب من الله تعالى نبي من أنبيائه، والأنبياء لا يكفرون، ومن ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه، أي لا يدركه، أو أنه يعجز الله هرباً، فقد كفر، والأنبياء عليهم السلام، أعلم بالله سبحانه، من أن يظنوا فيه هذا الظن الذي هو كفر.

وقد وري: أن من أدام قراءة قوله عز وجل: " وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا.. الآية " ... إلى قوله: المؤمنين، في الصلاة، وغيرها، في أوقات شدائده، عجل الله له منها فرجاً ومخرجاً.

وموسى بن عمران عليه السلام، فقط نطق القرآن بقصته في غير موضع، منها قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ، وَلَا تَخَافِي، وَلَا تَحْزَنِي، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزْنًا، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا

كانوا خاطئين، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً، وهم لا يشعرون، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون، وحرّمتنا عليه المراضع من قبل، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون. " فلا شدة أعظم من أن يتبلى الناس بملك يذبح أبناءهم، حتى ألفت أم موسى ابنها في البحر مع طفوليته، ولا شدة أعظم من حصول طفل في البحر، فكشف الله تبارك اسمه ذلك عنه، بالتقاط آل فرعون له، وما ألقاه في قلوبهم من الرقة عليه، حتى استحيوه، وتحريم المراضع عليه حتى ردوه إلى أمه، وكشف عنها الشدة من فراقه، وعنه الشدة في حصوله في البحر. ومعنى قوله تعالى: ليكون لهم عدواً وحزناً، أي يصير عاقبة أمره معهم إلى عداوة لهم، وهذه لام العاقبة، كما قال الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... وكلّم يصير إلى ذهاب

وقد علم أن الولادة لا يقصد بها الموت، والبناء لا يقصد به الخراب، وإنما عاقبة الأمر فيهما تصير إلى ذلك.

وعلى الوجه الأول، قوله تعالى " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس " أي إن عاقبة أمرهم، وفعلهم، واختيارهم لنفوسهم، يصيرهم إلى جهنم، فيصيرون لها، لأن الله عز وجل، لم يخلقهم ليقصد تعذيبهم بالنار في جهنم، عز الله عن هذا الظلم.

وجعل الله عاقبة أمر موسى عليه السلام، من تلك الشدائد، وشدائد بعدها، إذ أرسله إلى فرعون، لتخليص بني إسرائيل، وقصصه التي قبلها، وحديثه إذ خرج خائفاً يترقب، فهذه شدة أخرى كشفها الله تعالى عنه من تلك الشدائد، وشدائد بعدها، نالته، يأتي ذكرها، أن بعثه نبياً، وأنقذ به بني إسرائيل من الشدائد التي كانوا فيها مع فرعون، فقال عز وجل، في تمام هذه القصة: " وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، قال: يا موسى إنّ الملائمة يأترون بك ليقتلوك، فاخرج إنّي لك من الناصحين، فخرج منها خائفاً يترقب، قال: ربّ نجّني من القوم الظالمين " ، فهذه شدة أخرى كشفها الله عز وجل.

قال تعالى: " ولما توجه تلقاء مدين، قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، ولما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال: ما خطبكما، قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء،

وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظلّ، فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير " ، فهذه شدة أخرى، لحقته بالاغتراب، والحاجة إلى الاضطراب في المعيشة والاكتساب، فوفق الله تعال له شعيباً، قال الله عز وجل، في تمام هذه القصة: " فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه، وقصّ عليه القصص، قال لا تخف، نجوت من القوم الظالمين. "

ثم أخبر الله تعالى في هذه القصة، كيف زوجه شعيب ابنته، بعد أن استأجره ثماني حجج، وأنه خرج بأهله من عند شعيب، فرأى النار، فمضى يقتبس منها، فكلّمه الله تعالى، وجعله نبياً، وأرسله إلى فرعون، فسأله أن يرسل معه أخاه هارون، فشد الله تعالى عضده به، وجعله نبياً معه، فأى فرج أحسن من فرج أتى رجلاً خائفاً، هارباً، فقيراً، قد آجر نفسه ثماني حجج، بالنبوة والملك؟⁽¹⁾

قال الله تعالى في سورة الأعراف: " وقال الملائكة لفرعون، أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويذكرك وآلهتك، قال: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم، وإنا فوقهم قاهرون " ، فهذه شدة لحقت بني إسرائيل، فكشفها الله عنهم، قال سبحانه: " قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعدما جنّتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون. "

وقال تعالى، في تمام هذه القصة، في هذه السورة، بعد آيات، " وتمّت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون " ، فأخبر تعالى عن صنع لهم، وفلقه البحر حتى عبروه يبساً، وإغراقه فرعون لما اتبعهم. وكل هذه أخبار عن محن عظيمة انجلت بمنح جليّة، لا يؤدي شكر الله عليها، ويجب على العاقل تأملها، ليعرف كنه تفضل الله عز وجل بكشف شدائده وإغاثته، بإصلاح كل فاسد لمن تمسك بطاعته، وأخلص في خشيته، وأصلح من نيته، فسلك هذه السبيل، فإنها إلى النجاة من المكاره، أوضح طريق، وأهدى دليل.⁽²⁾

¹ (التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 1 – 5

² (التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 1 – 5

وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه، الشدة التي جرت على محمد صلى الله عليه، وعلى آله الأخيار، فيما اقتضه من قصة الغار، فقال سبحانه: " إِنْ تَنْصُرُوهُ، فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. " وروى أصحاب الحديث، ما يطول إعادته بألفاظه وأسانيده، أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما خاف أن يلحقه المشركون، حين سار عن مكة مهاجراً، دخل الغار هو وأبو بكر الصديق، فاستخفى فيه، فأرسل الله عنكبوتاً فنسج في الحال على باب الغار، وحمامة عشتت، وباضت، وفرخت للوقت، فلما انتهى المشركون إلى الغار، رأوا ذلك، فلم يشكوا أنه غار لم يدخله حيوان منذ حين، وإن رسول الله ﷺ، وأبا بكر، ليريان أقدامهم، ويسمعان كلامهم، فلما انصرفوا، وأبعدوا، وجاء الليل، خرجا، فسارا نحو المدينة، فورداهما سالمين. وروى أصحاب الحديث أيضاً، من شرح حال النبي ﷺ، في المحن التي لحقته من شق الفرث عليه، ومحاولة أبي جهل، وشيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان صخر بن حرب والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهم، قتله، وما كانوا يكاشفونه به، من السب والتكذيب، والاستهزاء والفدح والتأنيب، ورميهم إياه بالجنون، وقصدهم إياه غير دفعة بأنواع الأذى والعضية والافتراء، وحصرهم إياه ﷺ، وجميع بني هاشم في الشعب، وتخويفهم إياه، وتدبيرهم أن يقتلوه، حتى بعد، وبيت علياً عليه السلام، على فراشه، ما يطول اقتصاصه، ويكثر شرحه، ثم أعقبه الله تعالى، من ذلك، بالنصر والتمكين، وإعزاز الدين، وإظهاره على كل دين، وقمع الجاحدين والمشركين، وقتل أولئك الكفرة المارقين والمعاندين، وغيرهم من المكذبين الكاذبين، الذين كانوا عن الحق ناكثين، وبالدين مستهزئين، وللمؤمنين مناصبين متوعدين، وللنبي ﷺ مكاشفين محاربين، وأذل من بقي بعز الإسلام بعد أن عاذ بإظهاره، وأضمر الكفر في إسراره، فصار من المنافقين الملعونين، والحمد لله رب العالمين⁽¹⁾.

عن أبي السليل، قال: قال أبو ذر: كان نبي الله ﷺ، يتلو هذه الآية: " ومن يتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فهو حسبه، إنّ الله بالغ أمره " ، ثم يقول: يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم.(1)

عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال إن بني فلان أغاروا علي، فذهبوا بإبلي وابني، فقال رسول الله ﷺ: إن آل محمد، لكذا وكذا أهل، ما فيهم مد من طعام، أو صاع من طعام، فسل الله عز وجل.

فرجع إلى امرأته، فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ، فأخبرها. فقالت: نعم ما رددك إليه. فما لبث أن رد الله عليه إبله أوفر ما كانت، فأتى النبي ﷺ فأخبره. فصعد النبي ﷺ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر الناس بمسألة الله عز وجل، والرجوع إليه، والرغبة فيه، وقرأ عليهم " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب. " (2)

عن أبي الدرداء، وسئل عن هذه الآية: " كل يوم هو في شأن " ، قال: سئل عنها رسول الله ﷺ، فقال: إن من شأنه أن يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين(3).

عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: سلوا الله عز وجل من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادلة انتظار الفرج من الله تعالى(4). وعن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال لعلي عليه السلام، في حديث ذكره: واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً(5).

(1) أخرجه أحمد (178/5 ، رقم 21591) ، والنسائي في الكبرى (494/6 ، رقم 11603) ، وابن ماجه (1411/2 ، رقم 4220) ، والدارمي (392/2 ، رقم 2725) ، والحاكم (534/2 ، رقم 3819) .

(2) ورواه البيهقي في دلائل النبوة في باب قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً وما جاء فيه من المعجزات بسنده إلى أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود ، ورواه الثعلبي في تفسيره بسنده إلى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس

(3) واه ابن ماجه وابن أبي عاصم في السنة وابن حبان

(4) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص 17 ، رقم 25) ، وابن عساكر (128/57) . وأخرجه أيضاً : البيهقي في شعب الإيمان (204/7 ، رقم 10003) . قال المناوي (52/3) : قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف .

(5) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (190/7) وقال الهيثمي : فيه علي بن أبي علي القرشي وهو ضعيف . وأخرجه أيضاً : ابن أبي عاصم (137/1 ، رقم 315) .

وعن كردوس بن عمرو، وكان ممن قرأ الكتب: إن الله عز وجل يبتلي العبد وهو يحبه، ليسمع تضرعه⁽¹⁾.

و عن سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم □، قال لعبد الله بن عبد أعلمك كلمات تنتفع بهن؟ قال: بلى، يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، فإذا سألت، فسل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك، لم يقدرُوا عليه، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق واليقين، فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره، خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً⁽²⁾.

و عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: إن المعونة من الله عز وجل، تأتي العبد على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي على قدر شدة البلاء⁽³⁾. وربما قال: إن الفرج يأتي من الله تعالى، على قدر شدة البلاء. وحدث عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ، أنه قال: من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب. ⁽⁴⁾ وعن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: ما أصاب مسلماً قط، هم، أو حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عنه كربيه، وأبدله مكان حزنه فرحاً.

¹ (الفرج بعد الشدة للتنوخي، ص 11)

² (أخرجه الطبراني (123/11، رقم 11243). وأخرجه أيضاً: أحمد (307/1، رقم 2804)

³ (خرجه أيضاً البزار كما في كشف الأستار (195/2، رقم 1506)، وقال الهيثمي (324/4): فيه طارق بن عمار قال البخاري لا يتابع على حديثه وبقيته رجاله رجال الصحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (191/7، رقم 9956)

⁴ (أخرجه أحمد (248/1، رقم 2234)، والحاكم (291/4، رقم 7677) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (439/1، رقم 645). وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (118/6، رقم 10290).

قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن⁽¹⁾.

ومن الأمثال السائرة:

الصبر مفتاح الفرج، من صبر قدر، ثمرة الصبر الظفر، عند اشتداد البلاء يأتي الرخاء.
وكان يقال: تضايقي تنفرجي.
وكان يقال: إذا اشتد الخناق انقطع.
وكان يقال: خف المضار، من خلل المسار، وارج النفع، من موضع المنع، واحرص على الحياة، بطلب الموت، فكم من بقاء سببه استدعاء الفناء، ومن فناء سببه إيثار البقاء، وأكثر ما يأتي الأمن من قبل الفرع.
والعرب تقول: إن في الشر خياراً.
وقال الأصمعي: معناه، أن بعض الشر أهون من بعض.
وقال أبو عبيدة: معناه، إذا أصابتك مصيبة، فاعلم أنه قد يكون أجل منها، فلتهن عليك مصيبتك.
قال بعض الحكماء: عواقب الأمور، تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من داء هو شفاؤه.
وكان يقال: رب خير من شر، ونفع من ضر.
وروي أن أمير المؤمنين علياً قال: يا ابن آدم، لا تحمل هم يومك الذي لم يأت، على يومك الذي أتى، فإنه إن يكن في عمرك، يأتك الله فيه بمحببتك، واعلم أنك لن تكسب شيئاً سوى قوتك، إلا كنت فيه خازناً لغيرك بعد موتك.
وقال وداعة السهمي، في كلام له: اصبر على الشر إن قدحك، فربما أجلى عما يفرحك، وتحت الرغبة اللبن الصريح.
قال شريح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عز وجل عليها أربع مرات، أحمدته إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمدته إذ رزقني الصبر عليها، وأحمدته إذ وفقتي للاسترجاع، لما أرجو فيه من الثواب، وأحمدته إذ لم يجعلها في ديني.
وقال إسحاق: احذر الضجر، إذا أصابتك أسنة المحن، وأعراض الفتن، فإن الطريق المؤدي إلى النجاة صعب المسلك.
وكان يقال: الصبور، يدرك أحمد الأمور.

¹ (الحاكم في مستدركه ج 1 / ص 690 حديث رقم: 1877

أقوال في تهوين المصائب

قال بعض عقلاء التجار: ما أصغر المصيبة بالأرباح، إذا عادت بسلامة الأرواح.

وكأنه من قول العرب: إن تسلم الجلة فالسخل هدر.
ومن كلامهم: لا تياس أرض من عمران، وإن جفاها الزمان.
والعامة تقول: نهر جرى فيه الماء، لا بد أن يعود إليه.
وقال تيمستوس: لم يتفاضل أهل العقول والدين، إلا في استعمال الفضل في حال القدرة والنعمة، وابتذل الصبر في حال الشدة والمحنة.
وقال بعض الحكماء: العاقل يتعزى فيما نزل به من المكروه بأمرين، أحدهما السرور بما بقي له، والآخر رجاء الفرج مما نزل به، والجاهل يجزع في محنته بأمرين، أحدهما استكثار ما أدي إليه، والآخر تخوفه مما هو أشد منه.

كلمات في الصبر على المحنة

وكان يقال: المحن آداب الله عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار.
ووصف الحسن بن سهل، المحن، فقال: فيها تمحيص من الذنب، وتنبيه من الغفلة، وتعرض للثواب بالصبر، وتذكير بالنعمة، واستدعاء للمثوبة، وفي نظر الله عز وجل وقضائه الخيار⁽¹⁾.
ومما قيل شعراً :

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر
عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى ... له فرجاً ممّا ألحّ به الدهر
إذا اشتدّ عسرّ فارح يسراً فإنّه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر
وقال آخر :

لكلّ ضيقٍ من الأمور سعه ... والمسي والصّبح لا بقاء معه
وقال آخر:

كن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخير عاجلٍ ... تنسى به ما قد مضى
فلربّ أمرٍ مسخّطٍ ... لك في عواقبه الرّضا
كان يقال: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو.

¹ (الفرج بعد الشدة ، ص 21

وقال الشاعر:

كن لما لا ترجو من الأمر أرجى ... منك يوماً لما له أنت راج
إن موسى مضى ليطلب ناراً ... من ضياء رآه والليل داج
فأتى أهله وقد كلم الـ ... ه وناجاه وهو خير مناج
وكذا الأمر كلما ضاق بالنـ ... س أتى الله فيه ساعة بالانفراج
وقال منصور الفقيه:

"وما عسرٌ لمنتظر الفرّج " وقال بشار:

خليلي إن الصبر سوف يفيق ... وإن يساراً في غدٍ لخليق
وما خاب بين الله والناس عاملٌ ... له في التقي أو في المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعففٍ ... ولكن أخلاق الرجال تضيق
وقال آخر:

روح فؤادك بالرضا ... ترجع إلى روح رطيب
لا تياسن وإن ألح ... الدهر من فرج قريب
وقال آخر:

لعمرك ما كلُّ التَّعطّل ضائرٌ ... ولا كلُّ مسعى فيه للمرء منفعه
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى ... عليك سواءً فاغتم لذة الدّعه
وإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى ... ألا ربّ ضيقٍ في عواقبه سعه
وقال آخر:

ربّما خير لامرئٍ ... وهو للأمر كاره

ربّ خير أتاك من ... حيث تأتي المكاره

وقال أحمد بن محمود، وقيل إنها لأحمد بن صالح:

إذا اشتملت على الناس الخطوب ... وضاق لما به الصّدر الرّحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانفراج الضيق وجهاً ... وقد أعى بحيلته الأريب
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يمنّ به اللطيف المستجيب
وكلُّ الحادثات إذا تناهت ... فموصولٌ بها الفرّج القريب
ومولانا الإله فخير مولى ... له إحسانه ولنا الذنوب
وقال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتّقي ... نوائب هذا الدهر أم كيف يحذر
يرى الشّيء ممّا يتّقي فيخافه ... وما لا يرى ممّا يقى الله أكبر
وقال منصور الفقيه:

إذا الحادثات بلغت المدى ... وكادت لهنّ تذوب المهج
وحلّ البلاء وقلّ الوفا ... فعند التناهي يكون الفرج
وقال آخر:

واصبر على الدهر إن أصبحت منغماً ... بالضيق في لجج تهوى إلى لجج
فما تجرّع كأس الصبر معتصم ... بالله إلا أتاه الله بالفرج
لا تيأسن إذا ما ضقت من فرج ... يأتي به الله في الروحات والدلج
وإن تضايق بابّ عنك مرتجج ... فاطلب لنفسك باباً غير مرتجج
وقال أبو العتاهية:

النّاس في الدّين والدّنيا ذوو درج ... والمال ما بين موقوف ومختلج
من صاق عنك فأرض الله واسعة ... في كلّ وجه مضيق وجه منفرج
قد يدرك الرّاقد الهادي برقدته ... وقد يخيب أبو الروحات والدلج
خير المذاهب في الحاجات أنجحها ... وأضيق الأمر أدناه من الفرج
ومما ينسب إلى الشافعي رضي الله عنه:

سيفتح بابّ إذا سدّ باب ... نعم وتهون الأمور الصّعب
ويتسع الحال من بعد ما ... تضيق المذاهب فيها الرّحاب
مع الهمّ يسران هوّن عليك ... فلا الهمّ يجدي ولا الإكتئاب
فكم ضقت ذرعاً بما هبته ... فلم ير من ذاك قدر يهاب
وكم بردٍ خفته من سحب ... فعوفيت وانجاب عنك السّحاب
ورزقٌ أتاك ولم تأته ... ولا أرق العين منه الطّلاب
وناءٍ عن الأهل ذي غربة ... أتيح له بعد يأسٍ إياب
وناجٍ من البحر من بعد ما ... علاه من الموج طام عباب
إذا احتجب النّاس عن سائلٍ ... فما دون سائل ربّي حجاب
يعود بفضلٍ على من رجاه ... وراجيه في كلّ حين يجاب
فلا تأس يوماً على فائتٍ ... وعندك منه رضا واحتساب
فلا بدّ من كون ما خطّ في ... كتابك تحبى به أو تصاب
فمن حائلٍ دون ما في الكتاب ... ومن مرسلٍ ما أباه الكتاب
في أبيات قد ذكرتها في موضعها من هذا الكتاب⁽¹⁾.

ومن المواقف :

يا رب أنت المجيب

قال سعيد بن عنبسة: بينما رجل جالس وهو يعبث بالحصى ويحذف بها، إذ رجعت حصاة منها فصارت في أذنه، فجهد بكل حيلة، فلم يقدر على إخراجها، فبقيت الحصاة في أذنه دهرًا تؤلمه، فبينما هو ذات يوم جالس، إذ سمع قارئاً يقرأ: " أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ... الآية " ، فقال الرجل: يا رب أنت المجيب، وأنا المضطر، فاكشف ضر ما أنا فيه، فنزلت الحصاة من أذنه.

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل

وحدث أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان: أن رجلاً كانت بينه وبين رجل متمكن من أذاه عداوة، فخافه خوفاً شديداً، وأهمه أمره، ولم يدر ما يصنع. فرأى في منامه، كأن قائلاً يقول له: اقرأ في كل يوم، في إحدى ركعتي صلاة الفجر، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.. إلى آخر السورة. قال: فقرأتها، فما مضت إلا شهور، حتى كفيت أمر ذلك العدو، وأهلكه الله تعالى، فأنا أقرؤها إلى الآن.

كيف تخلص قيسبة بن كلثوم من أسره

ذكر ابن الكلبي عن أبيه، قال: خرج قيسبة بن كلثوم السكوني، وكان ملكاً، يريد الحج، وكانت العرب تحج في الجاهلية، فلا يعرض بعضها لبعض. فمر ببني عامر بن عقيل، فوثبوا عليه، وأسروه، وأخذوا ماله، وكل ما كان معه، وألقوه في القد، فمكث فيه ثلاث سنين، وشاع في اليمن، أن الجن استطارته.

فبينما هو في يوم شديد البرد، في بيت عجوز منهم، آيس من الفرج، إذ قال لها: أتأذنين لي أن آتي الأكمة، فأتشرق عليها ؟ فقد أضر بي البرد. فقالت له: نعم، وكانت عليه جبة حبرة، لم يترك عليه غيرها. فمشى في قيوده حتى صعد الأكمة، ثم أقبل يضرب ببصره نحو اليمن، وتغشاه عبرة، فبكى، ثم رفع طرفه إلى السماء، فقال: اللهم فاطر السماء، فرج لي مما أصبحت فيه.

فبينما هو كذلك، إذ عرض له راكب يسير، فأشار إليه أن أقبل، فأقبل عليه الراكب، فقال له: ما حاجتك ؟ قال: أين تريد ؟ قال: أريد اليمن.

قال: ومن أنت ؟ قال: أبو الطمحان القيني، فاستعبر قيسبة.
فقال أبو الطمحان: من أنت ؟ فإني أرى عليك سيما الخير ولباس الملوك،
وأنت بدار ليس فيها ملك.

فقال: أنا قيسبة بن كلثوم السكوني، خرجت عام كذا وكذا حاجاً، فوثب علي
أهل هذا الحي، وصنعوا بي مات ترى وكشف له عن أغلاله وقيوده، فاستعبر
له أبو الطمحان.

فقال له قيسبة: هل لك في مائة ناقة حمراء ؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك.
قال: أنخ، فأناخ.

ثم قال: أمعك سكين ؟ قال: نعم.

قال: ارفع لي عن رحلك، فرفع له عن رحله، حتى بدا خشب مؤخر الرحل.
فكتب عليه بالمسند، وليس يكتب به غير أهل اليمن:

بلغن كندة الملوك جميعاً ... حيث سارت بالأكرمين الجمال
أن ردوا الخيل بالخميس عجلاً ... واصدروا عنه والروايا ثقال

هزئت جارتى وقالت عجباً ... إذا رأيتني في جيدي الأغلال
إن تريني عاري العظام أسيراً ... قد براني تضعض واختلال

فلقد أقدم الكتيبة بالسي ... ف عليّ السلاح والسربال

وكتب تحت الشعر إلى أخيه، أن يدفع لأبي الطمحان مائة ناقة حمراء، ثم قال
له: أقرىء هذا قومي، فإنهم سيعطونك مائة ناقة حمراء.

فخرج تسير به ناقة، حتى أتى حضرموت فتشاغل بما ورد له، ونسي أمر
قيسبة، حتى فرغ من حوائجه.

ثم سمع نسوة من عجائز اليمن، يتذاكرن قيسبة، ويبكين، فذكر أمره، فأتى
أخاه الجون بن مالك، وهو أخوه لأبيه وأمه، فقال له: يا هذا، أنا أدلك على

قيسبة، وقد جعل لي مائة ناقة حمراء.
فقال: هي لك.

فكشف له عن الرحل، فلما قرأه الجون بن مالك، أمر له بمائة ناقة حمراء.

ثم أتى قيس بن معدي كرب الكندي، أبا الأشعث بن قيس، فقال له: يا هذا إن
أخي في بني عامر بن عقيل أسيراً، فسر معي بقومك لنخلصه.

فقال له قيس: تسير تحت لوائي، حتى أطلب ثأرك وأنجدك، وإلا فامض
راشداً.

فقال له الجون: مس السماء أيسر من ذلك، وأهون علي مما جئت به.
فجئت السكون ثم فاءوا، ورجعوا، وقالوا له: وما عليك من هذا؟ هو ابن عمك، ويطلب لك بثارك، فأنعم له بذلك.
وسار قيس، وسار معه الجون تحت لوائه، وكندة والسكون معه، فهو أول يوم اجتمعت فيه السكون وكندة لقيس وبه أدرك الشرف، فسار حتى أوقع ببني عامر بن عقيل، فقتل منهم مقتلة عظيمة، واستنقذ قيسبة، فقال في ذلك سلامة بن صبيح الكندي:

لا تشتمونا إذ جلبنا لكم ... ألفي كميته كلها سلهبه
نحن أبلنا الخيل في أرضكم ... حتى ثأرنا منكم قيسبه
واعترضت من دونها مذحج ... فصادفوا من خيلنا مشغبه
بينما كان يترقب القتل وافاه الفرج في مثل لمح البصر

عن محمد بن علي بن يونس، عن أبيه، أنه كان يكتب لرجاء ابن أبي الضحاك، وهو بدمشق، وأن علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، كان يتقلد خلافة صول أرتكين على المعونة بدمشق، فوثب على رجاء، فقتله، وقبض على جماعة من أسبابه، وأمر بحبسي، فحبست في يدي سجان كان جاراً لي، فكان يأتيني بالخبر ساعة بساعة.

فدخل إلي، وقال: قد أخرج راس صاحبك رجاء على قناة.
ثم جاءني وقال: قد قتل مطببه، ثم جاءني فقال: قد قتل ابن عمه، ثم جاءني فقال: قد قتل كاتبه الآخر.

ثم قال: الساعة، والله، يدعى بك لتقتل، فقد سمعت نبأ ذلك، فنانني جزع شديد، وخرج السجن، فأقفل الباب علي.
فدعي بي، فدافع عني، وقال: البيت الذي هو فيه مقفل، والمفتاح مع شريكي، والساعة يجيء، وبعث في طلبه.

فنانني في تلك الساعة نعاس، فرأيت في منامي، كأني ارتطمت في طين كثير، وكأني قد خرجت، وما بل قدمي منه شيء، فاستيقظت، وتأولت الفرج، وسمعت حركة شديدة، فلم أشك أنها لطلبي، فعاودني الجزع.

فدخل السجن، فقال: أبشر فقد أخذ الجند علي بن إسحاق فحبسوه.
فلم ألبث حتى جاءني الجند، فأخرجوني، وجاؤوا بي إلى مجلس علي بن إسحاق الذي كان فيه جالساً، وقدامه دواة وكتاب قد كان كتبه إلى المعتصم في تلك الساعة، يخبره بخبر قتله رجاء، وجعل له ذنوباً، ولنفسه معاذير،

وسماه رجاء المجوسي، والكافر، فخرقت الكتاب، وكتبت بالخبر كما يجب إلى المعتصم.

فحبس طويلاً، ثم أظهر الوسواس، وتكلم فيه أحمد بن أبي دؤاد، فأطلق.

المنصور يرى مناماً فيرفع الظلامة عن محبوس

قال التنوخي : وجدت في بعض الكتب: أن المنصور استيقظ من منامه ليلة من الليالي، وهو مذعور لرؤيا رآها، فصاح بالربيع، وقال له: صر الساعة إلى الباب الثاني الذي يلي باب الشام فإنك ستصادف هناك رجلاً مجوسياً مستنداً إلى الباب الحديد، فجئني به، فمضى الربيع مبادراً، وعاد والمجوسي معه.

فلما رآه المنصور، قال: نعم، هو هذا، ما ظلامتك ؟ قال: إن عاملك بالأنبار، جاورني في ضيعة لي، فسامني أن أبيع إياها، فامتنعت، لأنها معيشتي، ومنها أقوت عيالي، فغصبني إياها.

فقال له المنصور: فبأي شيء دعوت قبل أن يصير إليك رسولي ؟ قال: قلت: اللهم إنك حلیم ذو أناة، ولا صبر لي على أناتك.

فقال المنصور للربيع: أشخص هذا العامل، وأحسن أدبه، وانتزع ضيعة هذا المجوسي من يده، وسلمها إلى هذا المجوسي، وابتع من العامل ضيعته، وسلمها إليه أيضاً.

ففعل الربيع ذلك كله في بعض نهار يوم، وانصرف المجوسي، وقد فرج الله عنه، وزاده، وأحسن إليه.

صاحب الشرطة ببغداد يرى مناماً يرشده إلى القاتل ويبريء فيجاً مظلوماً

حدث القاسم بن كرسوع، قال: كان ابن أبي عون، صاحب الشرطة، قد وعد محبرة أنه يجيئه للإقامة عنده، والشرب مصطحباً على ستارته في يوم الثلاثاء، فأبطأ عليه، وتعلق قلب محبرة بتأخره، فبعث غلاماً له يطلبه ويعرف خبره في تأخره.

فعاد إلى محبرة، وقال: وجدته في مجلس الشرطة، يضرب رجلاً بالسياط، وذكر أنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة، جاء ابن أبي عون.

فقال له أبو جعفر: أفسدت صبوحننا، وشغلت قلبي بتأخرك، فما سبب ذلك ؟

فقال: إني رأيت البارحة في منامي، كائي بكرت بلبل لأجيك، وليس بين يدي إلا غلام واحد، فسرت في خراب إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، لأجيء إلى رحبة الجسر، فإني لأسير في القمر، إذ رأيت شيخاً بهياً، نظيف الثوب، على رأسه قلنسوة لاطية، وفي يده عكاز، فسلم علي، وقال: إني أرشدك إلى ما

فيه مثوبة: في حبسك فيج مظلوم، وافى من المدائن، في وقت ضيق، فاتهم بأنه قتل رجلاً، وهو بريء من دمه، وقد ضرب وحبس، وقاتل الرجل غيره، وهو في غرفة وسطى من ثلاث غرف مبنية على طاق العكي بالكرخ، واسمه فلان بن فلان، ابعت من يأخذه، فإنك ستجده سكران، عريان، بسر اويل، وفي يده سكين مخضبة بالدم، فاصنع به ما ترى، وأطلق الفيح البائس. قلت: أفعل، وانتبهت، فركبت، وسرت، حتى وافيت رحبة الجسر. فقلت: ما حدث في هذه الليلة؟ فقالوا: وجدنا هذا القتيل، وهذا الفيح معه، فضربناه، ولم يقر.

فرايت به أثر ضرب عظيم، فسألته عن خبره، فقال: أنا معروف بالمدائن بسلامة الطريقة، ومعاشي التفيج، أنفذني فلان بن فلان من المدائن، إلى فلان بن فلان من أهل بغداد، بهذه الكتب، وأخرج إضبارة، فدخلت أوائل بغداد وقت العتمة، فوجدت في الطريق رجلاً مقتولاً، فجزعت، ولم أدر أين آخذ، فأنا على حالي إذ أدركني الأعوان، فظنوني قتلته، ووالله ما أعرفه، ولا رأيته قط، وقد حبسوني وضربوني، فالله، الله، في دمي.

فقلت: قد فرج الله عنك، انطلق حيث شئت، ثم أخذت الرجالة، ومضيت إلى طاق العكي، فإذا الثلاث غرف مصطفة، فهجمت على الوسطى، فإذا فيها رجل سكران عليه سراويل فقط، وفي يده سكين مخضب بالدم، وهو يقول: أخ عليك، والك، نعم يا سيدي، أنا جرحته، أخو القحبة، وأن مات فأنا قتلته، فأنزلته مكتوفاً، وبعثت به إلى الحبس، وانحدرت إلى الموفق، فأعلمته بالحديث، فتعجب، وتقدم إلي أن أضرب القاتل بالسياط إلى أن يتلف، وأصلبه في موضع جنايته، فتشاغلت بذلك إلى أن فرغت منه، ثم جننتك.

ما بقي له غير درهمين ثم جاءه الفرج

قال التنوخي : حدث بعض أصحابنا، وهو عندي ثقة، وقد تجارينا لزوم المتعطلين، أبواب المتشاغلين، وتعذر الشغل عليهم، بعد أن قلنا جميعاً: إن الأرزاق مقسومة، وإن الله تعالى إذا أذن فيها سهلها، قال: فحدثني عمرو بن حفص، عن أبيه، قال: كان أبي حفص، قد صحب بعض عمال فارس، إلى فارس، فأقام على بابه ستة أشهر، يلقيه كل يوم فيها، فلا يكلمه العامل فيها بشيء، وينصرف أبي إلى منزله. قال: فنفدت نفقته، وباع كل ما كان معه، حتى قال له غلامه يوماً: ما بقي إلا الدابة، والبغل، ودرهمان.

قال: فقال له: اشتر لنا بالدرهمين خوخاً، فإنه أرخص من الخبز، لنتقوته، إلى أن يفرج الله - عز وجل - عنا.

قال: ففعل الغلام ذلك، وأكل حفص من الخوخ شيئاً ونام، فما استيقظ إلا بدق الباب، وإذا رسول العامل يأمره بالحضور، فركب، فوجد العامل قاعداً في داره على كرسي ينتظره.

فلما دخل، قال العامل: لا جزاك الله خيراً عني، ولا عن نفسك.

قال: ولم ذاك، أصلحك الله؟

قال: أتستقيم على بابي ستة أشهر، لم تر على نفسك أن تريني وجهك يوماً واحداً؟

فقال: أعزك الله، أنا في مجلسك كل يوم.

قال: والله، ما وقعت لي عليك عين، ولا خطرت ببالي إلا الساعة، فإني ذكرتكَ، فعلمت طول مقامك في العطلة والغربة.

ودعا بكاتبه، فكتب كتبي على فسا ودرابجرد، وخرجت من يومي إلى العمل، فحصلت منه، في مديدة قريبة، سوى نفقتي، ستمائة ألف درهم.

سفيان بن عيينة وجاره السهمي

وحدثت من غير وجه أن سفيان بن عيينة قال لجلسائه يوماً: إني أرى جارنا هذا السهمي قد أثرى وانفسحت له نعمة، وصار ذا جاهٍ عند الأمراء، ووافداً إلى الخلفاء، فمم ذاك؟ يعني يحيى بن جامع، فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة فيتغنّى له، فقال سفيان: فيقول ماذا؟ فقال أحد جلسائه: يقول: أطوف نهاري مع الطائيفن ... وأرفع من منزري المسبيل

فقال سفيان: ما أحسن ما قال! فقال الرجل:

واسهر ليلى مع العاكفين ... وأتلوا من المحكم المنزل

قال: حسن والله جميل، قال: إن بعد هذا شيئاً، قال سفيان: وما هو؟ قال:

عسى فارح الكرب عن يوسف ... يسخر لي ربةً المحمل

فزوى سفيان وجهه، وأوماً بيده أن كفّ، وقال: حلالاً حلالاً! (1)

محبة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وعاقبة المستهزئين :

إن محبة الرسول ﷺ عقد من عقود الإيمان ولزوم سنته وإتباع هدية علامة المحبة الصادقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، كما أنه من أعظم أسباب محبة المولى عز وجل .

والمولى عز وجل قد افترض على عباده محبة رسول الله ﷺ وسد الطريق إلى جنته إلا من سلك خلف رسول الله ﷺ .

قال الحسن البصري : ادعي ناس محبة الله عز وجل فابتلاهم بهذه الآية " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " (آل عمران : 31)

الأدلة من كتاب والسنة علي وجوب محبته صلى الله عليه وسلم :
وأدلة هذا كثيرة من القرآن والسنة .

فمن القرآن :

(أ) قوله تعالى :

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (التوبة : 24) .

ففي هذه الآية توعده الله من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بقوله : { فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } . ومعلوم أن الله لا يتوعد أحدا بمثل هذا الوعيد الشديد إلا على ترك واجب ، أو فعل محرم . فعلم بذلك أنه يجب على كل مؤمن أن يكون الله ورسوله ، والجهاد في سبيله أحب إليه من الأهل والإخوان والأموال والأوطان . يقول القاضي عياض مستدلاً بهذه الآية :

(فكفى بهذا حضا وتنبها ودلالة وحجة على إلزام محبته ، ووجوب فرضها وعظم خطرهما واستحقاقه لها ﷺ ، إذ قرع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله ، وتوعدهم بقوله تعالى : { فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله) (1) .

وقد ذكر الله في هذه الآية ثمانية أصناف وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال المكتسبة والتجارات والمساكن والديار . وهذه الأصناف تمثل بمجموعها كافة الروابط الاجتماعية والاقتصادية وعليها مدار مصالح الحلق ومعايشهم . وهي التي تجذب الإنسان إلى الأرض وتثقله عن الجهاد في ، سبيل الله ما لم يكن حب الله ورسوله مستعليا في قلب المسلم على كل هذه الروابط والمصالح .

وفي ذكر الله للجهاد مقرونا بحبه سبحانه وتعالى وحب رسوله ﷺ دليل على أنه من أظهر العلامات على ذلك الحب لأنه هو المحك الذي يتجلى فيه صدق هذا الحب وإيثاره على غيره من الكتاب التي ذكرها الله في هذه الآية . ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج ولا حب المال المكتسب والمساكن ولم ينه عن ذلك . وإنما جعل من مقتضى الإيمان إيثار محبة الله ورسوله على حب هذه الأنواع ، وكذلك تقديم الجهاد إذا وجب عليها .

وهذا هو حال المؤمنين الصادقين في حبهم لله ورسوله (1) .

(ب) قوله تعالى :

{ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } (الأحزاب : 6) .

فهذه الآية إخبار عن مكانة الرسول ﷺ بين المؤمنين ، كما أنها أيضا إخبار عن الحال التي ينبغي أن يكون فيها المؤمنون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو أولى بهم من أنفسهم ولا يكون كذلك حتى يكون أحب إليهم من أنفسهم .

ويبين ابن القيم أن هذه الآية دليل على أن من لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه فليس من المؤمنين ثم يوضح أن هذه الأولوية تتضمن أمرين :

1 - (. . .) أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ، لأن الأولوية أصلها الحب ، ونفس العبد أحب إليه من غيره ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها ، وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه .

2 - ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا ، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده

¹ (انظر تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ط2 ، دار المعرفة ، بيروت ، 10 / 225 - 242 .

فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها (1) .

فتبين من هذا أنه يجب على كل مؤمن أن يكون الرسول أولى به من نفسه في كل شيء ، وأن يكون حكمه ﷺ في أي شيء مقدما على رغبات النفس وتطلعاتها ، بل إن الحياة لتعد هينة ورخيصة بجانب تحقيق ما فرضه الله ورسوله وإن كان على خلاف هوى النفس . لأن نفوسنا تدعونا إلى الهلاك ، والرسول ﷺ يدعونا إلى النجاة فكان أولى بنا من أنفسنا ﷺ .
وحيثما أيقن المسلمون الأولون بذلك أعزهم الله ومكن لهم في الأرض . فلما غلبت الأهواء واتبعت الشهوات صار الحال مبدلا معكوسا . ذلة وهوان بعد عزة وضياع وتفرق بعد القوة والتمكين . والسبب هو تقديم الأهواء وشهوات الأنفس على ما يحبه الله ورسوله .

الأدلة من السنة :

وقد جاءت الأحاديث لتؤكد مدلول هاتين الآيتين - أبلغ تأكيد وأوضحه ألا وهو وجوب محبة الرسول ﷺ .

فمنها ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » (2) ، وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس قال : قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (3) .

فهذان الحديثان من أوضح الأدلة على وجوب محبة الرسول ﷺ لأن المؤمن لا يستحق اسم الإيمان الكامل ولا يدخل في عداد الناجين حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين . والتعبير " بأحب " دليل صريح كل أن المحبة المطلوبة شرعا هي المحبة الراجحة ، وأن الإيمان الكامل متوقف على رجحان هذه المحبة في القلب على ما سواها من محبة سائر المخلوقين .

¹ (الرسالة التبوكية . لابن القيم . مراجعة الشيخ عبد الطاهر أبي السمح ، ط1 ، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها مكة المكرمة ، 1347 هـ ، ص 21-22 .

² (صحيح البخاري . كتاب الإيمان . باب حب الرسول ﷺ من الإيمان 1 / 10 .

³ (صحيح البخاري كتاب الإيمان . باب حب الرسول ﷺ من الإيمان 1 / 10 . ومسلم . كتاب الإيمان . باب وجوب محبة الرسول ﷺ 1 / 10 .

وخص الوالد والولد بالذكر لكونهما أعز خلق الله على الإنسان ، بل ربما كانا أحب إليه من نفسه ، وفي هذا تأكيد على أنه يجب أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إلى نفس المؤمن من كل حبيب وعزيز عليه من سائر البشر جميعا (1) .

ونفى الإيمان في هذا الحديث هو نفي لكمال الإيمان الواجب الذي ينجو به صاحبه من الوعيد ويستحق دخول الجنة بفضل الله . وذلك لأن محبة الرسول ﷺ من واجبات الإيمان فمن أخل بها فقد أخل بواجب من واجبات الإيمان التي لا يتم الإيمان بدونها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أحماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان ، والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج ، وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ، ومن ذلك قوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (النساء : 65) .

فلما نفى- الإيمان - حتى توجد هذه الغاية ، دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من أهل الوعيد ، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذكي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد (2) . فنفي الإيمان عند عدم وجود المحبة الراجحة يدل على أنها واجبة وإن من لم يأت بها فقد تعرض للوعيد ، فإن الله ورسوله لا ينفيان اسم مسمى أمر- أمر به الله ورسوله - إلا إذا ترك بعض واجباته ، فأما إذا كان الفعل مستحب في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب ، ولو صح هذا لنفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه ، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ ، بل ولا أبو بكر ولا عمر ، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفا عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل . فإن قال إن المنفي هو الكمال ، فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة ، فقد صدق .

¹ (انظر فتح الباري ، 1 / 59 .

² (مجموع الفتاوى ، 7 / 15 وما بعدها .

وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم (1) .

ومعنى هذا أن محبة الرسول ﷺ من لوازم الإيمان وواجباته فلا يتحقق الإيمان بدونها ، ولا يستحق المؤمن اسم الإيمان بدونها ، وأن نفي الإيمان في الحديث إنما هو نفي لكمال الإيمان الواجب إذا لم توجد المحبة الراجعة على ما سواها من سائر المحاب فإذا وجدت هذه المحبة على هذه الصفة فهي دليل على كمال الإيمان بالنسبة لمن اتصف بها في هذا الجانب . وأما إذا لم توجد هذه المحبة على الصفة الراجعة كان من اتصف بها معرضا للوعيد لأنه أخل بواجب من واجبات الإيمان التي لا يتم الإيمان بدونها .

ومن الأحاديث الدالة على وجوب المحبة ما أخرجه البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . ضال النبي ﷺ : لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي . فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر » (2) .

فهذا الحديث يبين أنه لا يبلغ المسلم حقيقة الإيمان حتى يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه .
وتلك هي قمة السمو في الحب حين يستعلى المسلم على رغبات النفس وشهواتها ، مؤثرا حب رسول الله ﷺ على كل ذلك ، ويتبين هذا إذا تعارض أي أمر أمر به الرسول ﷺ مع رغبة من رغبات النفس فأيهما تقدم كان الحكم له .

ونقل ابن حجر في شرح هذا الحديث عن بعض الزهاد أن :
(تقدير الكلام لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك .

... وقال الخطابي : حب الإنسان نفسه طبع ، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه) .

¹ (انظر المصدر نفسه 7 / 37 .

² (صحيح البخاري . كتاب الإيمان والنذور . باب كيف كانت يمين النبي ﷺ 8 / 161 .

ثم يستطرد ابن حجر معلقا على كلام الخطابي فيقول :
(فعلى هذا فجواب عمر أولا كان بحسب الطبع ، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن
النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا
والأخرى ، فأخبر بما اقتضاه الاختيار ولذلك حصل الجواب بقوله : « الآن يا
عمر » أي الآن عرفت فنطقت بما يجب (1) .

إذا فلم يكن حصول المحبة عند عمر رضي الله عنه أمرا جديدا على نفسه
وإنما كان الجديد لديه هو إدراكه لتلك المحبة والتفاتة إليها .
وفي هذا الحديث إشارة إلى فضيلة التفكير .

فإن عمر رضي الله عنه لما أجاب أول الأمر لم يكن قد تفكر في كون الرسول
ﷺ أحب إليه من نفسه ، فلما استوقفه الرسول ﷺ وراجعته تفكر وامتنح
نفسه فإذا به يصل إلى النتيجة المطلوبة . وهي كون الرسول ﷺ أحب إليه من
نفسه . لأجل هذا كان التفكير سبيلا من سبل الوصول إلى هذه المحبة . فإذا
تفكر المسلم في النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ وأنه سبب نجاته في
الدنيا والآخرة ، وأدرك ذلك بقلبه يقينا عظمت عند ذاك محبة النبي صلى الله
عليه وسلم في قلبه .

وبعد أن تبين لنا وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بأدلته من القرآن والسنة .
أشير إلى أن هذه المحبة- كما قال ابن رجب - على درجتين :

1 - إحداهما- فرض : وهي المحبة التي تقتضى قبول ما جاء به الرسول
ﷺ من عند الله ، وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم ، وعدم طلب
الهدى من غير طريقه بالكلية ، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه ، من
تصديقه في كل ما أخبر به وطاعته فيما أمر به من الواجبات ، والانتفاء عما
نهى عنه من المحرمات ، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة ،
فهذا القدر لا بد منه ، ولا يتم الإيمان بدونه .

2 - والدرجة الثانية : فضل ، وهي المحبة التي تقتضى حسن التآسي به ،
وتحقيق الاقتداء بسنته ، في أخلاقه ، وآدابه ، ونوافله ، وتطوعاته ، وأكله ،
وشربه ، ولباسه ، وحسن محاضرتة لأزواجه ، وغير ذلك من آدابه الكاملة ،
وأخلاقه الطاهرة . والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه ، واهتزاز القلب من
محبتة ، وتعظيمه ، وتوقره ومحبة استماع كلامه ، وإيثاره على كلام غيره

من المخلوقين . ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها ، ورغبته في الآخرة (1) .

ومما سبق يتبين لنا أن المحبة والإيمان أمران متلازمان في قلب المؤمن تلازما مطردا يزيد أحدهما بزيادة الآخر وينقص بنقصانه . كما جاء ذلك مبينا في قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده والناس أجمعين » (2) .

فقد وضح هذا الحديث العلاقة بين الإيمان والمحبة ، إذ علق كمال الإيمان الواجب على وجود المحبة الراجحة لرسول الله ﷺ وجعلها شرطا يتوقف عليه الإيمان الذي ينجو به صاحبه من العقاب ويستحق دخول الجنة بفضل الله ورحمته .

ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان حب الرسول ﷺ في قلب المسلم راجحا على حب ما سواه من النفس والمال والولد وسائر البشر أجمعين .

فمن كان حبه لنفسه أو لشيء من الأشياء كحبه لله ورسوله أو أشد فهو من أصحاب الوعيد لأن الله تعالى جعل المحبة الراجحة لله ورسوله من لوازم الإيمان وجعل ما دونها من أوصاف المشركين .

فقال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } (البقرة : 165)

فإذا قويت المحبة في قلب المؤمن وزادت أثمر ذلك زيادة في الإيمان ، وذاق العبد حينئذ حلاوة الإيمان .

كما في صحيح البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . . » (الحديث) (3) .

ولا يصل العبد إلى هذه المنزلة إلا إذا سعى في تحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال .

وكلما كان سعي العبد حثيثا لتحصيل هذه المحبوبات كلما ازداد إيمانه وذاق حلاوته ، وإذا قصر العبد في أداء ما كلف به والالتزام بأداب الشرع فإنما

¹ (استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس . لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي . طبع مطبعة الإمام . مصر ص 34 ، 35 .

² (سبق تخريجه

³ (صحيح البخاري . كتاب الإيمان . باب حلاوة الإيمان 1 / 10 . وصحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان 1 / 66 .

يرجع ذلك إلى نقصان في الإيمان الدال على نقصان المحبة . فزيادة المحبة دليل على زيادة الإيمان ونقصانها دليل على نقصان الإيمان .
أما أصل الإيمان فلا يوجد بدون وجود المحبة ، ولا يوجد مسلم ليس في قلبه محبة ولو كانت ضعيفة - لرسول الله ﷺ .
فتبين لنا من هذا أن العلاقة بين المحبة والإيمان علاقة وثيقة فوجود أحدهما متوقف على وجود الآخر وزيادة أحدهما تعني زيادة الآخر . (1)

حقيقة حب النبي محمد ﷺ :

إذا كانت محبة الرسول ﷺ عقد من عقود الإيمان ولزوم سنته وإتباع هدية علامة المحبة الصادقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ كما أنه من أعظم أسباب محبة الله عز وجل ، وهي ليست كلمات تقال ولا أشعار تنظم ولا احتفالات تقام بمناسبة مولده ولا هجرته ﷺ . إنما هي أسباب ومسببات تتعلق بالطاعة والعبادة والسلوك والأخلاق وبعون الله سوف نوضح ونسوق بعضها مما اجتمعت عليه الأمة الإسلامية فيقول الشيخ الغزالي : ومحمد ﷺ ليس قصته تتلي يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن ، ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد تُضم إلى ألفاظ الأذان ولا إكنان حية يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ويتأوهون أو لا يتأوهون ، فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين ، وما جنح المسلمون إلي هذه التعابير في الإبانة عن تعلقهم بنبيهم إلا يوم أن تركوا الباب المليء وأعيانهم جملة ، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال محدودة في الإسلام فقد فتُّنوا في اختلاف صور أخرى ولا عليهم فهي لن تكلفهم بهذا ينكصون عنه ، إن الجهد الذي يتطلب العزمات هو في الاستمساك باللباب المهجور والعودة إلى جوهر الدين ذاته فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من سنن محمد ﷺ في معاشه ومعاده وحربه وسلمه وعلمه وعمله وعاداته وعبادته .

إن المسلم الذي لا يعيش لرسول ﷺ في ضميره ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يغني أبداً عنه أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة (1)

¹ (عبد الرؤوف محمد عثمان ، محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ، ص 50 - 60

(1) فقه السيرة ، ص 5 .

يقول الحسن البصري : أدعي ناس محبة الله عز وجل فابتلاهم بهذه الآية " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " (آل عمران : 31)

قال الصحابة رضوان الله عليهم : إنا نحب ربنا حباً شديداً ، فأحب الله عز وجل أن يجعل لحبه علامة فقال تعالى : " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم " (آل عمران : 31)

قال القرطبي : كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة ، غير أنهم متفاوتون فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالخط الأوفى ، ومنهم من أخذ منها بالخط الأدنى ، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات ، ولكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته ، بحيث يؤثرها عن أهله وولده ووالده وماله ، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ، ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه ، وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيادة قبره ، ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر ، لما وقر في قلوبهم من محبته ، غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات ، والله المستعان (2)

وحقيقة حب النبي ﷺ تظهر في بعض المظاهر التي سنحاول بعون الله أن تذكر بعضاً منها مما وفق الله في الوصول والاهتداء إليها :-

مظاهر محبة الرسول صلى الله عليه وسلم

الحب وإن كان من أعمال القلوب إلا أنه لا بد وأن تظهر آثاره على الجوارح قولاً وفعلًا . ولما كان الحب أمراً يمكن أن يستتر وراء الدعاوى والمزاعم ويقع في الاشتباه ، كان لا بد من التمييز بين الصادق فيه وبين الدعي الكاذب وبين من سلك في حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلكاً صحيحاً وبين من انحرف بمسلك حبه عن الصواب .

وقد جرت العادة أن الدعاوى لا تقبل إلا ببيانات ، فالبينة على من ادعى ، ولو يعطى الناس بدعواهم لاختل ميزان الحق والعدل . وطالما استغلت دعوى الحب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم أو حب الصالحين لتسويغ ألوان من البدع وضروب من الغلو وجعلها مقبولة طالما كان دافعها هذا الحب المزعوم .

لذا أردت في هذا المبحث الكلام على الشواهد الصادقة والمظاهر الواضحة لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعها بآثارها على السلوك والأفعال .

وذلك لبيان أن حب الرسول صلى الله عليه وسلم مقيد بضوابط تحكمه ، ومحدد بعلامات تؤكد صدقه ، وآثار تظهر على من اتصف به . وهذه العلامات والمظاهر كثيرة ، لكنني سأتكلم عن أظهرها وأبينها .

أولاً : طاعة الرسول ﷺ واتباعه :

إن أقوى شاهد على صدق الحب- أيًا كان نوعه- هو موافقة المحب لمحبيه وبدون هذه الموافقة يصير الحب دعوى كاذبة وأكبر دليل على صدق الحب لرسول الله ﷺ هو طاعته واتباعه .

فالاتباع هو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل ، وهو شرط صحة هذه المحبة ، وبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية ولا تتصور بمعناها الصحيح .

وإذا كان الله سبحانه قد جعل اتباع نبيه ﷺ دليلاً على حبه سبحانه ، فهو من باب أوفى دليل على حب النبي ﷺ . قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } (آل عمران : 31) .

قال ابن كثير رحمه الله :

(هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله .

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (1) ولهذا قال : { إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : " ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب " .

وقال الحسن البصري وغيره من السلف :

زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } (2) فتبين من هذا أن الاتباع هو أعظم شاهد على صدق المحبة ، بل هو من أجل ثمارها .

فالصادق في حب النبي ﷺ هو من أطاعه واقتدى به وآثر ما يحبه الله ورسوله على هوى نفسه ، وظهرت آثار ذلك عليه من موافقته في حب ما يحبه وبغض ما يبغضه .

ويؤكد القاضي عياض على ارتباط هذه المحبة بالموافقة والاتباع فيقول : (اعلم أن من أحب شيئاً آثره وآثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدعياً ، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه ، وأولها : الاقتداء به واستعمال سنته ، واتباع أقواله وأفعاله ، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه ، وشاهد هذا قوله تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } (آل عمران : 31) ، وإيثار ما شرعه على هوى نفسه وموافقة شهواته ، قال الله تعالى { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } (الحشر : 9) (3)

وقد استفاضت نصوص الكتاب والسنة في تعظيم شأن الاتباع وبيان أهميته ، وأن سعادة المسلم في الدارين موقوفة على متابعة النبي ﷺ ، وأن شقاء من

¹ () أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الاعتصام . باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، 9 / 123 .

² (تفسير ابن كثير . لإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ط . دار الفكر ، بيروت ، 1 / 358 .

³ (الشفا ، 2 / 24 .

شقي وهلاك من هلك إنما كان بسبب مخالفته لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسنعرض لهذه النصوص في مبحث وجوب الطاعة .
نخلص من هذا إلى أن أقوى مظهر وأوضح شاهد على صدق المحبة لرسول الله ﷺ هو الاتباع وبدونه تصبح المحبة دعوى مجردة عن الدليل وقولا لا يصدقه عمل .

وهذا الاتباع محدد أيضا بشواهد وعلامات تؤكدته وسنعرض لها فيما بعد .

ثانيا : تعظيم النبي ﷺ وتوقيره والأدب معه :

تعظيم النبي ﷺ هو ما يقتضيه مقام النبوة والرسالة من كمال الأدب وتتمام التوقير ، وهو من أعظم مظاهر حبه ، ومن أكد حقوقه ﷺ على أمته ، كما أنه من أهم واجبات الدين .

وهذا التعظيم مثل المحبة من حيث كونه تابعا للمعرفة ، فعلى قدر المعرفة يكون التعظيم وتكون المحبة .

لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أكثر الناس حبا وتعظيم لرسول الله ﷺ لمعايشتهم له وقربهم منه . وتعظيم النبي ﷺ يكون بالقلب ، واللسان والجوارح ، فالتعظيم بالقلب هو ما يستلزم اعتقاد كونه رسولا اصطفاه الله برسالته ، وخصه بنبوته ، وأعلى قدره ، ورفع ذكره ، وفضله على سائر الخلق أجمعين ، كما يستلزم تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين .

أما التعظيم باللسان فيكون بالثناء عليه بما هو أهله ، مما أثنى به على نفسه ، أو أثنى به عليه ربه من غير غلو ولا تقصير ، ويدخل في ذلك الصلاة والسلام عليه ، كما يشمل الأدب في الخطاب معه والحديث عنه صلى الله عليه وسلم .

وأما التعظيم بالجوارح فيشمل العمل بطاعته ، وتجديد متابعتة ، وموافقتة في حب ما يحبه ، وبغض ما يبغضه والسعي في إظهار دينه ، ونصرة شريعته ، والذب عنه وصون حرمة (1) .

وعلى ذلك فاساس التعظيم للنبي ﷺ وقاعدته التي ينبني عليها هو تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وعبادة الله بما شرع . فمن فقد هذا الأساس أو أخل به فقد أخل بتعظيمه وتوقيره ﷺ . وهذا الإخلال يأتي من أمرين كليهما على طرفي نقيض :

⁽¹⁾ انظر . الصارم المنكي في الرد على السبكي ، لابن عبد الهادي ، ص 341 - 342 .

أولهما : الجفاء والتفريط في حقوقه ﷺ . وذلك كنسبته إلى ما لا يليق بمقام النبوة كالطعن في صدقه أو أمانته وعدالته وذلك كصنيع ذي الخويصرة التميمي الذي طعن في قسمة رسول الله ﷺ للغنائم كما روي ذلك البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :
« بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال : يا رسول الله اعدل فقال : ويلك . ومن يعدل إذ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه . فقال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحداكم صلواته مع صلواتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » (1) (2) الحديث .
ويشبه هذا الصنيع صنيع المنافقين ومن انطمست بصائرهم فلم يعرفوا للنبي ﷺ قدره ولم يحفظوا حرمة . ومما يلحق بالجفاء عدم التأدب في الحديث والكلام عن النبي ﷺ كصنيع بعض الشعراء والكتاب في تشبيه بعض الولاة والحكام أو وصفهم بصفات الرسول ﷺ الخاصة به . كقول المعري مثلا:

لولا انقطاع الوحي بعد محمد ... قلنا محمد عن أبيه بديل
هو مثله في الفضل إلا أنه ... لم يأت به برسالة جبريل (2)

وقد نقل القاضي عياض أمثلة من هذا القبيل من أقوال بعض الجفافة والمنافقين (3) .

ومما يلحق بالجفاء ترك الصلاة والسلام عليه لفظا وخطا ، أو الاستهانة بهديه وسنته وقلة المبالاة بها أو التعظيم لشأن المفكرين والكتاب والقادة بما يغض من شأنه ﷺ ، مع أن هؤلاء مهما بلغوا لن يصلوا إلى مرتبة واحد من عامة الصحابة .

وقد كثر الجفاء في زماننا هذا بكثرة المارقين والمنهزمين من الكتاب والأدباء الذين سودوا الصفائف بالاستهزاء بتعاليم الإسلام وقيمه وربما بالتطاول على مقام النبوة . كما عزف كثير من المسلمين عن مطالعة سيرة

¹ (صحيح البخاري . كتاب المناقب . باب علامات النبوة في الإسلام (4 / 243 - 244) .

² (هذان البيتان من قصيدة للمعري يمدح بها رجلا من العلويين . انظر : سقط الزند - لأبي العلاء المعري . طبع دار صادر ، ص 142 ، 1383 ، 1963م .

³ (انظر الشفا ، 2 / 238 - 247 .

النبي ﷺ ومذاكرة سنته وكثرة الصلاة والسلام عليه . مما أدى إلى الجفاء للنبي ﷺ وعدم توقيره .

ولقد كان سلفنا الصالح إذا ذكر عندهم النبي ﷺ أو حديثاً من أحاديثه ظهر عليهم من الهيبة والإجلال والتأدب كما لو كان النبي ﷺ أمامهم حتى إن بعضهم كان يبكي عند ذكره ﷺ فكان محمد بن المنكدر إذا سئل عن حديث بكى حتى يرحمه الجالسون ، وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت وقال : { لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } (1) ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب عند سماع قوله ﷺ (2) .

هكذا كان أدب سلفنا الصالح مع رسول الله ﷺ وسنته فأين منا هذا الأدب وذلك التوقير ؟ كما نسأل الله العافية .

ثانيهما : الغلو في النبي ﷺ ورفع فوق مرتبته التي وضعه الله عليها . وذلك كاعتقاد أنه يعلم الغيب مطلقاً أو أن وجوده سابق لهذا العالم وأن من نوره خلق الكون كله إلى غير ذلك من الاعتقادات الباطلة التي لم ترد في سنة . وسيأتي لهذا مزيد بيان في فصل الغلو في الرسول ﷺ .

وقد أوجب الله على الأمة كلها تعظيم النبي ﷺ وتوقيره فقال تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } { لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } (الفتح : 9) .

فالتسبيح لله عز وجل والتعزير والتوقير للنبي ﷺ وقال تعالى : { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف : 157) والتعزير بمعنى التعظيم .

قال ابن جرير في تفسير الآية الأولى :
(معنى التعزير في هذا الموضع : التقوية والنصرة والمعونة ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال) (3) .

¹ (استشهد بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » سورة الحجرات ، آية (2) .

² (انظر الشفا ، 2 / 40 - 47 .

³ (تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . ط 2 ، مصطفى الحلبي . القاهرة ، 1373 هـ ، 26 / 75 .

ويعرف ابن تيمية التعزير بأنه :

(اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه ، والتوقيير : اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام ، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج به عن حد الوقار) (1) .
وقد أبان الله في كتابه عن وجوه الأدب مع النبي ﷺ وتعظيمه . وما ينبغي على المسلم أن يتأدب به مع رسول الله ﷺ وذلك في آيات شتى وبأساليب متنوعة . وقد اشتملت سورة الحجرات في صدرها على مجموعة من التوجيهات التربوية للمسلمين في كيفية تعاملهم مع رسول الله ﷺ والتأدب معه .

فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } { إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (الحجرات : 1 - 5) فقد أشارت هذه الآيات إلى بعض وجوه الأدب مع النبي ﷺ منها :

- عدم التقدم بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل أو إذن أو تصرف كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } (الحجرات : 1) . قال ابن جرير في تفسير هذه الآية :

" لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضي الله لكم فيه ، ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله (2) . وهذا الأمر فرض باق على الأمة إلى يوم القيامة- مثل طاعته ﷺ حيا وميتا- فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ﷺ كالتقدم بين يديه في حياته ، ولا فرق بينهما عند ذوي العقول السليمة ، فالأدب كل الأدب معه ﷺ تقديم سنته وأقواله على كل قول أو رأي (3) .

¹ (الصارم المسلول على شاتم الرسول . لابن تيمية . تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت 1398 هـ ، ص 422 .

² (تفسير ابن جرير ، 26 / 116 .

³ (انظر . مدارج السالكين لابن القيم ، 2 / 389 .

- ومنها عدم رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ ، وعدم الجهر له بالقول مخافة حبوط العمل . فالأدب معه في حياته غض الصوت عنده مع الهيبة والإجلال له ، وأن يكون مجلس علم وحلم ووقار وسكينة ، وأن يكون الحديث معه بتأدب وتلطف .

وإذا كان الله قد حرم رفع الأصوات فوق صوت نبيه ، وحرم الجهر له بالقول لما في ذلك من الجفاء والإيذاء لنبيه ﷺ ، فكذلك رفع الأصوات عند قبره ﷺ في حكم رفع الصوت عنده في حياته من حيث التحريم لأن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمة حيا .

وقد شدد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في المسجد النبوي وذلك فيما رواه البخاري بسنده عن السائب بن يزيد قال :

(كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فاتني بهذين ، فجئته بهما . قال : من أنتما- أو من أين أنتما ؟ قال : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ !) (1) .

فإذا تقرر هذا علمنا أن ما يحدث من كثير من الناس عند قبره صلى الله عليه وسلم من رفع الأصوات واختلاطها ، وصنيع من يسمون " بالمزورين " من رفع الأصوات عند القبر والتشويش في المسجد النبوي ، كل هذا من الأمور المحرمة لما فيها من إيذاء النبي ﷺ ، وانتهاك حرمة المسجد . ومن مخالفة الأدب في هذا الباب رفع أراء بعض البشر وأقوالهم ومذاهبهم على سنة النبي ﷺ ، ومحاولة إسكات صوت السنة والداعين إليها وفي هذا من الإيذاء والجفاء ما هو أكبر بكثير من مجرد رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم (2) .

قال أبو بكر بن العربي:

(حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمة حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفع مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة في قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } .. (الأعراف : 204) .

¹ (صحيح البخاري . كتاب الصلاة . باب رفع الصوت في المساجد 1 / 127 .

² (انظر . مدارج السالكين ، 2 / 389 .

وكلام النبي ﷺ من الوحي ، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناه (1) ، بيانها في كتب الفقه والله أعلم (2) .

ومن الأدب مع الرسول ﷺ عدم جعل دعائه كدعاء الناس بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } (النور : 63) وللمفسرين في معنى هذه الآية قولان :

- أحدهما : معناه أن لا تجعلوا دعاءكم ونداءكم للرسول ﷺ كما ينادي بعضكم بعضا باسمه المجرد فنهاهم الله أن ينادوا رسوله ﷺ بيا محمد . بل الأدب معه ﷺ أن ينادوه : بيا رسول الله ، ويا نبي الله ، مع خفض الصوت احتراما وتوقيرا له (3) .

الثاني : أن لا تجعلوا دعاء الرسول لكم من جنس دعاء بعضكم بعضا إذا شاء أجاب وإن لم يشأ لم يجب . بل الأدب معه أنه إذا دعاكم لم يسعكم إلا إجابته والسمع والطاعة له (4) .

ومن الأدب معه ﷺ أن أصحابه إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه .

كما قال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (النور : 62) .
قال ابن القيم :

(ومن الأدب معه : أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع- من خطة أو جهاد أو رباط- لم يذهب أحدهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه . . . فإذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضة ، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين : أصوله ، وفروعه ، دقيقة ، وجليلة ؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ، { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (النحل : 43 ،

¹ (ذكر العلماء فروقا بين الحديث والقرآن منها : إن كلام الرسول ﷺ ليس معجزا كالقرآن . إننا متعبدون بالقرآن وتلاوته في الصلاة وخارجها وليس الحديث كذلك . - إن القرآن لا يقرأه القارئ إلا وهو طاهر على خلاف في ذلك وليس الحديث كذلك .

² (أحكام القرآن ، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ، تحقيق على محمد البجاوي ، 1702 / 4 - 1703

³ () انظر تفسير ابن كثير ، 3 / 306 - 307 ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن . الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، طبع مطبعة المدني ، مصر ، 6 / 251 - 252 .

⁴ (انظر مدارج السالكين ، 2 / 389 - 390 .

الأنبياء : 7) ومن الأدب معه . أن لا يستشكل قوله . بل تستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياس ، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا ، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول .

ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد ، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة (1) .

ومن الأدب مع الرسول ﷺ وتعظيمه : التأدب في الحديث معه والحديث عنه . وذلك باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها ، وأرق المعالي والطفها ، وتجنب كل ما فيه جفاء أو إساءة أدب مع الرسول ﷺ وتنزيه مقام النبوة والرسالة من كل عيب أو نقص ينافي عصمته ﷺ .

لأجل هذا نهى الله المؤمنين عن الجهر بالقول لرسول الله ﷺ ، كما نهاهم عن مخاطبته كما يخاطب بعضهم بعضا كما سبق آنفا . لما فيه من الجفاء والإيذاء له . ومن هذا الباب قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (البقرة : 104) .

فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ (راعنا) لما فيها من احتمال معنى : ارعنا نرعاك على سبيل المقابلة كما يقال حادثنا وجالسنا ، نحادثك ونجالسك . فكأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم . بل حقه ﷺ أن يرعى على كل حال ، أو يكون معناها : ارعنا معك حتى نفهمك وتفهم عنا (2) وكلا المعنيين فيه جفاء لا يليق بمقام النبوة .

وقيل نهوا عن ذلك لما فيه من التشبه باليهود لأنهم كانوا يورون بهذه الكلمة عن الرعونة فنهى المسلمون عن قولها قطعا للذريعة ، ومنعا للتشبه بهم في قولهم (3) .

وعلى ذلك فكل كلام يشعر بالجفاء وإن لم يقصده المتكلم- لا يجوز أن يخاطب به الرسول ﷺ أو يتحدث به عنه لما في ذلك من إيذائه ﷺ وإذهاب هيئته من النفوس .

¹ (مدارج السالكين ، 2 / 390 .

² () انظر . تفسير الطبري ، تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر ، طبع دار المعارف مصر ، 2 /

463 - 466 .

³ (انظر . الشفا للقاضي عياض ، 2 / 37 . وتفسير ابن كثير ، 1 / 148 - 149 .

ومن تعظيمه ﷺ الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به على نفسه ، أو أثنى به عليه ربه سبحانه وتعالى من غير غلو ولا تقصير ، ومن أعظم الثناء عليه : الصلاة والسلام عليه في مواطنها ، وعند ورود ذكره الشريف على المسامع واللسان وعند الخط بالبنان .

ويتضمن معنى الصلاة عليه : ثناء الله عليه والإشارة برفع ذكره ، والطلب من الله أن يعلى ذكره ، ويزيده تعظيما وتشريفا ، والمراد بالطلب هنا هو طلب الزكاة- زيادة الثناء والتشريف- لا طلب أصل الصلاة . أما السلام فيتضمن سلامته أي من كل آفة وعيب (1) .

أورد البخاري تعليقا عن أبي العالية قال : " صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء " .

قال ابن عباس :

يصلون : يبركون (2) .

وقد أخبر الله أنه وملائكته يصلون على النبي وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه فقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (الأحزاب : 56) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والسلام عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا " (3) .

كما رغب رسول الله ﷺ في الصلاة والسلام عليه في أحاديث عدة : منها ما أخرجه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى علي واحدة ، صلى الله عليه عشرا » (4) .

وأخرج أبو داود بسنده عن أوس بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي قالوا

¹ (انظر . جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام . لابن القيم ص84 ، وما بعدها ، وفتح الباري 11 / 152 - 153 ، 169 .

² (صحيح البخاري ، كتاب التفسير . باب « إن الله وملائكته يصلون على النبي » 6 / 151 .

³ (تفسير ابن كثير ، 3 / 507 .

⁴ (صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ، 1 / 306 .

يا رسول الله : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ ! يقولون : بليت . قال : إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » (1) .
وأخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي » الحديث (2) .
وأخرج الترمذي أيضا بسنده عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي » (3) .
وأخرج أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قברי عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » (4) .
وقد علم الرسول ﷺ أصحابه وأمته كيف يصلون عليه في الصلاة وغيرها وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم بسنديهما عند عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : (لقيني كعب بن عجرة فقال : ألا أهدي لك هدية ، إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا ، فقال يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك فقال : قولوا اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) (5) .

¹ (سنن أبي داود . كتاب الصلاة . باب فضل الجمعة وليلة الجمعة ، 1 / 635 ، ورواه أحمد في المسند 8 / 4 ، والنسائي في كتاب الصلاة . باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة 3 / 91 - 92 . وإسناده صحيح صححه الحاكم 1 / 278 . ووافقه الذهبي . وصححه النووي في الأذكار ، ط4 ، مصطفى الحلبي ، مصر ص106 .
² (سنن الترمذي كتاب الدعوات . باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده 5 / 210 ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر محمد عبد المحسن الكتبي ، المدينة المنورة . وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، 1 / 549 .
³ (المصدر نفسه ، 5 / 211 ، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي 1 / 549 .
⁴ (سنن أبي داود . كتاب المناسك . باب زيارة القبور 2 / 534 . ورواه أحمد في المسند 2 / 367 . والحديث سنده حسن على شرط مسلم ، وهو صحيح بما له من طرق وشواهد . انظر أحكام الجنائز وبدعها للشیخ الألبانی ، ط4 ، طبع المكتب الإسلامي ، 219 - 220 .
⁵ (البخاري . كتاب الدعوات . باب الصلاة على النبي ﷺ 8 / 95 . ومسلم . كتاب الصلاة . باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم 305 بعد التشهد

وأخرجنا أيضا بسنديهما عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : « يا رسول الله ﷺ كيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما ، صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » (1) .

إلى غير ذلك من الصيغ التي علمهم النبي ﷺ إياها وأرشدتهم إليها . وهذه الصيغ التي علمها النبي ﷺ لأصحابه وأمته من بعدهم هي أفضل كصفات الصلاة والسلام عليه لأنها صادرة من مشكاة النبوة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يختار لهم ولنفسه إلا الأشرف والأفضل والأكمل من الأعمال والكيفيات .

فإذا تبين هذا علمنا أن ما ابتدعه كثير من مشايخ الصوفية من صيغ في الصلاة على النبي ﷺ زاعمين لها من الفضل والثواب الشيء الكثير ، هذه الصلوات لا ترتقي إلى مرتبة الصيغ التي علمها النبي ﷺ لأصحابه وأمته في كيفية الصلاة والسلام عليه . هذا إن سلمت تلك الصلوات من الغلو وضروب البدع . كما يلاحظ أنه لم يرد في شيء من صيغ الصلاة على النبي ﷺ لفظ السيادة (سيدنا) . فدل عدم ورودها على أنها ليست مشروعاً أو خلاف الأولى .

وقد سئل الحافظ ابن حجر عن صفة الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة أو خارج الصلاة سواء قيل بوجوبها أو ندبيتها ، هل يشترط فيها أن يصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة . كأن يقول مثلاً . اللهم صل على سيدنا محمد أو على سيد الخلق ، وعلى سيد ولد آدم ؟ أو يقتصر على قوله : اللهم صل على محمد ؟ وأيهما أفضل ، الإتيان بلفظ السيادة لكونها صفة ثابتة له ﷺ ، أو عدم الإتيان بها لعدم ورود ذلك في الآثار ؟ . فأجاب رحمه الله :

(نعم ، اتباع الألفاظ المأثورة أرجح ، ولا يقال : لعله ترك ذلك تواضعاً منه ﷺ لم يكن يقول عند ذكره ﷺ : ﷺ وأمته مندوبة إلى أن تقول ذلك كلما ذكر . لأننا نقول : لو كان ذلك راجحاً لجاء عن الصحابة ثم عن التابعين . ولم نقف

في شيء من الآثار عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم قال : ذلك مع كثرة ما ورد عنهم من ذلك (1) .

وللصلاة على النبي ﷺ مواطن يتأكد وجوبها أو استحبابها فيها : منها :
التشهد الأخير في الصلاة ، واختلف في وجوبه واستحبابه على قولين (2) .
ومنها عند دخول المساجد والخروج منها ، وبين يدي الدعاء .
وعند ذكره ﷺ ، وروود اسمه الشريف وكتابته وفي الخطب وعند رواية
الحديث وتعليم الناس العلم إلى غير ذلك من المواطن
ومن تعظيمه ﷺ نصرته والذب عنه ، وقد أوجب الله على الأمة تعزيز نبيه
ﷺ وتوقيره ، وسبق أن بينا أن تعزيزه ﷺ يتضمن معنى النصر والتعظيم .
فوجب على الأمة أن تنصر الله ورسوله ، وأن تنتصر لله ورسوله ، وإذا كان
نصر أحاد المسلمين واجبا ، لقوله ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »
(3) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن
كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » (4) .
فكيف لا يكون نصر الرسول ﷺ من أوجب الواجبات ، بل حقه أن يفدى
بالأنفس والأموال وأن يؤثر بكل عزيز وغال .
قال تعالى : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ } (التوبة : 120) الآية .
فحرم الله على المؤمنين التخلف عن نصره نبيه والرغبة بالأنفس عنه ،
وأوجب على المؤمنين نصرته ، وذلك في آيات عدة من القرآن منها :
قوله تعالى : { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف : 157) .
وقال تعالى : { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ } . . . (التوبة : 40) الآية .

¹ (أوردها بتمامها : الألباني نقلا عن الحافظ محمد بن محمد الغرابيلي تلميذ الحافظ ابن حجر . انظر
صفة صلاة النبي ﷺ ، تأليف محمد نصر الدين الألباني ، ط11 ، المكتب الإسلامي 1403 هـ ، ص
153-155 .

² (انظر : جلاء الأفهام ، ص193-216 . وصفة صلاة النبي ﷺ ، ص 162 .

³ (أخرجه البخاري في كتاب المظالم . باب : أعن أخاك ظالما أو مظلوما 3 / 168 . والإمام
أحمد في المسند ، 3 / 99 .

⁴ (أخرجه البخاري في كتاب المظالم . باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه 3 / 186 .

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ } (الصف : 14)

وامتدح الله المهاجرين بقوله تعالى : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } (الحشر : 8) .

كما أثنى على الأنصار بقوله : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ونصر الرسول ﷺ يشمل نصره باللسان والسنان والبنان ، بالقول والفعل . نصرا له في ذات نفسه حماية لعرضه ، وصونا لحرمة ، وإرغاما لأعدائه ومبغضيه ، وانتصارا له من كل من يؤذيه ، وإجلالا لمقام النبوة من أي قدح أو عيب .

وقد أجمع أهل العلم على وجوب قتل من سب الرسول ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله ، أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له والإضرار عليه أو التحقير لشأنه .

فحكم من أتى بذلك أن يقتل بلا استتابة لأنه آذى رسول الله ﷺ بما يستوجب إهدار دمه إن كان مسلما ، ونقض عهده وقته إن كان ذميا (1) كل ذلك حماية لعرضه ﷺ وصونا لمكانته ومنزلته .

ومن نصر الرسول ﷺ نصر سنته والذب عن شريعته ودفع كيد الكائدين وطعن الطاعنين في سنته وسيرته ، برد شبههم ودحض مفترياتهم وإظهار ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق .

ويدخل في نصر الله ورسوله نصر الشريعة وأهلها والداعين إليها وتكثير سوادهم وإعانتهم على أمورهم ، وقمع أعدائهم . ولا يتأتى هذا النصر ولا يتحقق إلا برفع علم الجهاد في سبيل الله جهادا للكفار والمنافقين ، وتتبع الزنادقة والملحدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة حدود الله في أرضه . وتطبيق شرعه .

وترك النصر لرسول الله ﷺ ودينه والتخاذل عنها تمكين لأعداء الإسلام من الطعن فيه وتشويهه وإضعاف شوخته وانتهاك حرماته وإذهاب هيبة النبي ﷺ من النفوس .

¹ (انظر في بيان ذلك . الشفا 2 / 214 وما بعدها . والصارم المسلول ص 3 وما بعدها ، ص 418 - 419 .

ولا يكون ذلك إلا إذا ترك الجهاد في سبيل الله ، وذهبت الغيرة على محارم الله من القلوب ، حينما يكون الرضى بالذل والهوان حبا للدنيا وكراهية للموت ، وهذا هو حال المسلمين اليوم . فالانتصار لرسول الله ﷺ حق على كل من آمن بالله واتبعه وزعم أنه يحبه ، فمن ادعى حبه ولم ينصره وينتصر له فهو كاذب في دعواه .

فمقتضى الحب الصحيح أن تنصره وتفديه بالنفس والمال وأن تغار على حرمة الله أن تنتهك ، تلك هي أهم جوانب تعظيم الرسول ﷺ وتوقيره . لكن بقي أن أنبه إلى أمرين مهمين في هذا الباب :

الأمر الأول :

أنه يجب على المسلم المعظم لرسول الله ﷺ أن يفرق بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته وألوهيته ، والتي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ، وبين حقوق النبي ﷺ ليضع كل شيء في موضعه حتى يكون على الصراط المستقيم .

فالتجاء المضطر- مثلا- الذي أحاطت به الكروب ، ونزلت به الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله وحده ، حق ممن حقوق الله تعالى لا يجوز صرفه لغير الله بحال من الأحوال ، لأن كشف الضر ، وإجابة المضطر بيد الله وحده . فصرف هذا الحق لله وإخلاصه له ، هو عين طاعته سبحانه ومرضاته ، وهو طاعة لرسول الله ﷺ واتباع له في تجريد التوحيد من كل شوائب الشرك . أما صرف هذا الحق- أو غيره من الحقوق الخاصة بالله- لغير الله ولو لرسوله ﷺ بدعوى أنه تعظيم له - فهذا عين المحادة والمشاقة لله ورسوله " وهو من الشرك الذي نهى الله عنه فإذا تبين ذلك علمنا أن ما يفعله بعض المنتسبين إلى الإسلام من التجائهم وقت الشدائد إلى غير الله طالبين منه كشف الضر ورفع الشدة ، وما يفعل من هذا القبيل عند قبر الرسول ﷺ ، بدعوى أنه تعظيم له كل هذا من قبيل الشرك الذي حرمة الله ورسوله .

الأمر الثاني :

الفرق بين التعظيم المشروع وغير المشروع ، ينبغي على المسلم أن يعلم أن التعظيم الذي أوجبه الله لرسوله ﷺ هو التعظيم المشروع اللائق بمقام النبوة والرسالة .

ومدار هذا التعظيم وأساسه هو الاتباع والاقتداء به ﷺ فمن كان اتباعا واقتداء كان أكثر محبة وتعظيما ، وأبعد عن الغلو والبدع . وليس كل ما يظن أنه من باب التعظيم لرسول الله ﷺ هو في الحقيقة تعظيما مشروعا في حقه .

قال ابن عبد الهادي:

فالتعظيم نوعان : أحدهما : ما يحبه معظم ويرضاه ويأمر به ويثني على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة .

والثاني : ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم ، بل هو غلو مناف للتعظيم ، ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلي بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك ، ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا ، والنبي ﷺ قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه ، فأنكر على معاذ سجوده له ، وهو محض التعظيم .

وفي المسند بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك : « أن رجلا قال : (يا محمد ، يا سيدنا ، وابن سيدنا ، وخيرنا ، وابن خيرنا) ، فقال رسول الله ﷺ : (عليكم بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » (1) ، وقال ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله » (2) .

وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه ، ونهاهم أن يصلوا خلفه قياما . وقال : « إن كدتم أنفا لتفعلون فعل فارس والروم ، يقومون على ملوكهم » (3) ، وكل هذا من التعظيم الذي يبغضه ويكرهه (4) .

وقد أنكر النبي ﷺ على من قال له : ما شاء الله وشئت أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال أجعلتني والله عدلا . بل ما شاء الله وحده » (5) .

وأرشد النبي ﷺ أصحابه إلى أن يقولوا- إذا أرادوا- ما شاء الله ثم شاء محمد . كما في سنن الدارمي وابن ماجه بسنديهما عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها قال : « قال رجل من المشركين لرجل من المسلمين نعم القوم

¹ (المسند ، 3 / 153 ، 241 .

² (سبق تخريجه

³ (أخرجه مسلم في كتاب الصلاة . باب انتمام المأموم بالإمام ، 1 / 309 ، والنسائي في كتاب السهو . باب الرخصة في الالتفات في الصلاة يمينا وشمالا 3 / 9 .

⁴ (الصارم المنكي في الرد على السبكي ، 288 .

⁵ (المسند ، 1 / 214 ، والحديث إسناده حسن . انظر السلسلة الصحيحة 1 / 56-57 .

أنتم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد فسمع النبي ﷺ فقال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » (1) .
فيجب على المسلم أن يفرق بين المشروع وبين غيره في هذا الجانب وعدم التفرقة بينهما هو الذي أوقع المبتدعة في الغلو الذي ذمه الله ورسوله وذلك كالاستغاثة به وطلب الحاجات منه ودعائه من دون الله واعتقاد أنه خلق من نور وأن الكون كله قد خلق من نوره ، وأنه يتصرف في الأكوان ، ويعلم الغيب مطلقا إلى غير ذلك من العقائد الباطلة ، وابتداع أنواع كثيرة من الصلوات عليه . فكل هذا من الغلو والشرك الذي نهى الله عنه ، وفاعل هذا مضاد لتعظيمه ﷺ .

ثالثا : ومن مظاهر محبته صلى الله عليه وسلم □ :
كثرة تذكره وتمني رؤيته والشوق إلى لقائه ، ذلك أن من أحب شيئا أكثر من ذكره ، ولا يكون ذلك إلا إذا شغلت المحبة قلب المحب وفكره ، وسبب ذلك استحضر الأسباب والدواعي الباعثة على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة قدر النعمة التي أنعم الله بها على الناس إذ بعث فيهم رسوله ﷺ .

قال تعالى : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } { فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ } (البقرة : 151 - 152) .

ويتبع ذلك تمني رؤيته ﷺ والشوق إلى لقائه وسؤال الله اللحاق به على الإيمان وأن يجمع بينه وبين حبيبه ونبيه ﷺ في مستقر رحمته . وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه سيوجد في هذه الأمة أناس يودون رؤيته بكل ما يملكون . فأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أشد أمتي لي حبا ، ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رأي ، بأهله وماله » (2) .

فأين شوق المسلمين اليوم إلى نبيهم وحبيبهم ﷺ أين هو ؟ لقد غاب عند أكثر العالمين إلا من رحم الله . نعم . لقد غاب . لأن الفكر والقلب قد شغل بالتنافس في حطام الدنيا حتى قل تذكر الرسول ﷺ فضلا عن الشوق إلى لقائه . فنسأل

⁽¹⁾ سنن الدارمي . كتاب الاستئذان . باب في النهي عن أن يقول ما شاء الله وشاء فلان 2 / 295 . وابن ماجه . كتاب الكفارات . باب النهي عن أن يقال ما شاء الله وشئت 1 / 684 . والحديث صحيح بشواهده . انظر السلسلة الصحيحة 1 / 54-56 .

⁽²⁾ صحيح مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله 4 / 2178 .

الله أن يوقظنا من رقدة الغافلين وأن يرزقنا الشوق إلى لقائه ولقاء حبيبه ﷺ في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

رابعا : ومن مظاهر محبته ﷺ محبة قرابته وآل بيته وأزواجه وصحابته :
ويتمثل هذا في توقيرهم ومعرفة فضلهم وحفظ حرمتهم ومكانتهم وبغض من أبغضهم أو آذاهم .
وقد أوصى النبي ﷺ الأمة بآل بيته خيرا فقال :
« أذكركم الله في أهل بيتي » .

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن زبد بن أرقم رضي الله عنه قال : « قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا . بماء يدعى " خما " بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال : أما بعد . ألا أيها الناس ! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله . واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه . ثم قال : (وأهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي) فقال له حصين ومن أهل بيته ؟ يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته . من حرم الصدقة بعده . قال ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس ، قال كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم « (1) . وأخرج البخاري عن ابن عمر أن أبا بكر الصديق قال : (ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته) (2) .

ومن مظاهر حبه ﷺ حب أصحابه ومعرفة فضلهم وقدرهم والثناء عليهم بما هم أهل له ، والانتصار لهم ممن يؤذيهم وبغير الخير يذكرهم ، فهم خير هذه الأمة بعد نبيها ، ويكفي أنهم فازوا بشرف صحبة النبي ﷺ ، وأن الله قد خصهم بهذا الشرف دون غيرهم من العالمين فكانت لهم منزلة الصحبة التي لا تعادلها أي منزلة سواها في هذه الأمة . وقد أثنى الله عليهم في كتابه في مواضع كثيرة منها :

قوله تعالى : { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (التوبة : 100) .

¹ (صحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب فضائل علي رضي الله عنه ، 4 / 1873 .

² (صحيح البخاري . كتاب فضائل الصحابة ، 5 / 26 .

وقال تعالى : { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } (الفتح : 18) الآية .

وقال تعالى : { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (الحشر : 8 - 10) .
فهذه الآيات وغيرها تتضمن الثناء على الصحابة وتذكرهم بالخير وسابق الفضل وعلو المنزلة .

كما تبين حال من أتى بعدهم من المؤمنين بأنهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم ، وهذا هو شأن المؤمنين مع صحابة رسول ﷺ ومن أتى بعدهم من صالح المؤمنين .

وقد أثنى الرسول ﷺ على أصحابه خيرا فقال كما في الصحيحين عن عمران بن حصين وغيره : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال عمران : فلا أدري . أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا (الحديث (1) .
وقال فيما أخرجه الشيخان بسنديهما عن أبي سعيد الخدري : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (2) .

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم حيث قال : (إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، وما رآوه سيئا فهو عند الله سيئ) (3) .

¹ (صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، 5 / 2 - 3 .
وصحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . فضل الصحابة . 4 / 1964 .

² (صحيح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضائل قول النبي ﷺ ، لو كنت متخذا خليلا 5 / 10 . وصحيح مسلم . كتاب فضائل الصحابة . باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، 4 / 1967 .

³ (أخرجه أحمد في الحسد ، 11 / 379 . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، 3 / 78 - 79 .

فصار من لوازم محبة رسول الله ﷺ محبة صحابته وقرابته وأهل بيته ومعرفة فضلهم والثناء عليهم بما هم أهلُه والدفاع عنهم وصون حرمتهم .

خامسا : ومن مظاهر محبة النبي ﷺ محبة سنته والداعين إليها :

والمتمسكين بها وأهل العلم الذين لهم في هذه الأمة قدم صدق وهم السلف الصالح ومن أتى بعدهم على مناهجهم حتى يومنا هذا وتوليهم والدفاع عنهم ومعرفة قدرهم وحفظ حرمتهم والتأدب معهم والاعتذار لمن أخطأ منهم بأحسن المعاذير ، وحمل أقوالهم وأحوالهم على أحسن المحامل والوجوه ، لأن قصدهم إنما هو نصرة الدين ، ولا يعني ذلك عدم تبين الحق فيما اختلفوا فيه أو الصواب فيما أخطأوا فيه فذلك هو واجب العلماء إلى يوم القيامة . وإنما المقصود هو إحسان الظن وإنصافهم والتأدب معهم ، لأنهم حملة الشريعة ، ولولا أن الله هياهم لهذا الأمر لما كان لنا عن هذا الدين خبر ، فهم سلفنا الصالح فلنكن لهم خير خلف ، لا أن نفيد من تراثهم ونجد فضلهم أو نتلمس معائبهم ومطاعنهم دون النظر إلى فضائلهم ، فهذا هو سبب ذهاب بركة العلم . ولن نرزق بركة العلم والدين إذا لم نعتزف لهم بسابق الفضل والمنزلة وتسلم صدورنا لهم ونترحم عليهم ونسأل الله لهم المغفرة ، وهذا هو شأن المؤمن في كل زمان .

قال تعالى : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (الحشر : 10) .

قال شارح العقيدة الطحاوية:

(فيجب على كل مسلم بعد موالاته الله ورسوله موالاته المؤمن ، كما نطق به القرآن خصوصا (العلماء) الذين هم ورثة الأنبياء ، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم ، يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر . وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها ، إلا المسلمين ، فإن علماءهم خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول في أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، فبهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وكلهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث

صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر (1) فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق ، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا ، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا ، فرضي الله عنهم وأرضاهم (2) .

وكما أن من لوازم المحبة لرسول الله ﷺ محبة سنته والداعين إليها فإن من لوزامها بغض من أبغض السنة وأهلها والدعاة إليها من علماء هذه الأمة وسلفها ، كما هو صنيع أهل البدع قديما وحديثا من الطعن في السنة وأهلها والوقعية فيهم وتشويه صورتهم وتاريخهم .
فيجب على المسلم معرفة هؤلاء المبتدعة وبغضهم في الله ، كما ينبغي التنبيه للمارقين والمنافقين والمنهزمين من حملة الأقلام المسمومة من الكتاب والأدباء والمؤرخين ، الذين راحوا يشوهون التاريخ ويقلبون الحقائق ويطنعون في خيار هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم من علماء هذه الأمة ويختلقون الأكاذيب أو ينقلونها على هوى وعدم بصيرة فيجب على أهل الاختصاص من المسلمين الكشف عن مخططاتهم وتعريف الأمة بهم والرد عليهم وتبيين الحقائق .

{ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } (الأنفال : 42) .
تلك هي أهم مظاهر محبة الرسول ﷺ ولوازمها في صورتها العامة والتي يجب أن يتحلى بها المسلم في سلوكه وفعله وتظهر آثار ذلك عليه .

آثار المحبة على السلوك والأفعال :

المقصود بهذه الآثار هو ما يظهر على سلوك المؤمن المحب لله ورسوله وفعله . لأن هذه الآثار هي التي تبين صدق هذه المحبة ، وهي عنوان انتفاع المسلم بهذه المحبة ، وإذا كان الحب يحرك إرادة القلب نحو تحصيل المحبوبات ودفع المكروهات ، فإن محبة المؤمن لله ورسوله تحمله على تحصيل ما يحبه الله من أعمال القلوب والجوارح ، واجتناب ما يبغضه الله ورسوله من الأقوال والأفعال فلا بد لكل محبة في القلب من آثار تظهر على الجوارح . وآثار محبة الرسول ﷺ منها ما هو ظاهر يقع عليه الحكم وينطق فيه الوصف ، ومنها ما هو باطن بمنزلة الثمرة الإيمانية .

¹ (بين الشيخ بعد ذلك الأعذار التي اعتذر بها أهل العلم للأئمة . وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية القول في بيانها في رسالته القيمة (ردع الملام عن الأئمة الأعلام) فلتراجع ضمن مجموع الفتاوى ، 20 / 231 وما بعدها .

² (شرح العقيدة الطحاوية ، ط 6 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1400 هـ ، ص 555 .

فأما الظاهرة منها : فهي أن يكون المسلم محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤثرا حبه على كل محبوب وغال ، وأن يكون مكثرا لذكره وتذكره والصلاة عليه متشوقا لرؤيته ، سائلا الله اللحاق به والاجتماع به في الجنة ، والورود على حوضه والشرب منه .

ومنها : أن يكون معظما لرسول الله ﷺ تعظيما شرعيا يليق به ، موقرا له ، ومتأدبا معه وحافظا لحرمة ، ومعظما لدينه وسنته ، متجافيا عن البدع والغلو وضروب المعاصي .

ومنها : أن يكون متبعا لرسول الله ﷺ في منشطه ومكرهه ، في سره وعلانيته ، باذلا كل ما في وسعه للوقوف على هديه واتباع سنته ، متحريرا في كل أقواله وأفعاله موافقة سنته ، وأن يكون حريصا على الاقتداء به في الواجبات والمستحبات ، في الفرائض والنوافل ، مكثرا من ذكر الله والدار الآخرة مجاهدا في سبيل الله بكل ما يستطيع .

ومنها : أن يكون متأدبا بآدابه متأسيا بأخلاقه ﷺ من سعة الصدر ولين الجانب وسماحة الخلق ، وبذل الندى وكف الأذى ، وبسط الوجه ، وأن يكون صبورا حلما ، قريبا من البر ، بعيدا عن الإثم ، ودودا لإخوانه ، منصفاهم ، ينزل الناس منازلهم ، ويعرف لأهل الفضل فضلهم . ويمتليء قلبه حبا لإخوانه المسلمين ، غير عياب ولا متفحش ولا ملتمس للبراء المعاييب زاهدا في حطام الدنيا وزخارفها ، راغبا فيما عند الله من الأجر والثوبة .

تلك هي بعض أخلاق النبي ﷺ ، والتي يجب على من أحبه أن يتأسى به فيها ، لا أن يدعي حبه ، وخلقه وسمته مباين لخلق الصالحين والأبرار . وإن حسن الخلق هو عنوان استفادة المسلم من هذا الدين وهديه ، وهو الركيزة الأساسية في النجاة من النار وسلوك مسلك الأبرار بعد تقوى الله عز وجل . ومنها : أن يكون محبا لأصحابه وقرابته وآل بيته والصالحين والعلماء وكل ما يحبه الله ورسوله ، وأن يبغض كل من أبغض الله ورسوله أو الصحابة أو آل بيت النبي ﷺ ، أو أبغض دينه وكره ظهوره من الكفرة والمنافقين .

ثمرات المحبة :

أما الآثار الباطنة فمن أعظمها أن يجد المؤمن في قلبه حلاوة الإيمان كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (1) .

فهذا الحديث يبين أثر محبة الله ورسوله في قلب المؤمن وهو أن يجد حلاوة الإيمان في قلبه إذا اتصف بهذه الصفات الثلاث . يقول ابن تيمية :

(أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له ، فمن أحب شيئا أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك . . . فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح بما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور . تكميل هذه المحبة ، وتفريعتها ، ودفع ضدها .

(" تكميلها " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه سواهما كما تقدم .

" وتفريعتها " أن يحب المرء لا يحبه إلا الله .

" ودفع ضدها " أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار) .

(2) وكلما ازداد المؤمن محبة لله ورسوله كلما ازداد ذوقه لحلاوة الإيمان فإن للإيمان من الحلاوة في القلب واللذة والبهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه إلا لمن ذاقه ، والناس متفاوتون في ذوق الإيمان واللذة به تفاوتاً عظيماً لا يعلمه إلا الله .

والمقصود أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ورسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة (3)

1 (سبق تخريجه

2 (مجموع الفتاوى ، 10 / 205 - 206 .

3 (انظر : مجموع الفتاوى ، 10 / 648 - 650 .

وأما عاقبة هذه المحبة فهي أن يكون المرء مع من أحب كما أخبر بذلك نبينا ﷺ فمن أحب رسول الله ﷺ كان معه في الجنة بإذن الله ، ولو لم يكن لمحبة النبي ﷺ ثواب سوى مرافقته في الجنة والتنعيم برويته لكفى .

أخرج البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه : « أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : وماذا أعددت لها ؟ قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله ، قال أنت مع من أحببت » . (1)

وفي رواية : « قال : وماذا أعددت لها كما قال : لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله ﷺ فقال : أنت مع من أحببت » . قال أنس فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ : أنت مع من أحببت . قال أنس : فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم » . (2) وأخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : المرء مع من أحب » . (3)

فهذه الأحاديث تبين أن المرء مع من أحب طالما كان هذا الحب سببه محبة الأعمال الصالحة وأهلها . فالمحبة الصحيحة تقتضي مشاركتهم في أصل عملهم وهو فعل الواجبات وترك المنكرات ، وإن لم يبلغ درجتهم في التقرب إلى الله عز وجل ، وعلى ذلك دل قول السائل : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ويقصد بذلك ما زاد على الواجبات من النوافل التي تقبل الكثرة والزيادة ، أو أن حظه منها قليل جدا بالمقارنة مع فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأكابر أصحابه ورضي الله عنهم (4)

ويؤكد هذا قول أنس رضي الله عنه : فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .

⁽¹⁾ صحيح البخاري . كتاب الأدب ، باب علامة حب الله عز وجل ، 8 / 49 .

⁽²⁾ صحيح البخاري . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب عمر بن الخطاب 5 / 14 - 15 .

وأخرجه مسلم في البر والصلة . باب المرء مع من أحب ، 4 / 2032 .

⁽³⁾ صحيح البخاري . كتاب الأدب ، باب علامة حب الله عز وجل ، 8 / 48 - 49 . ومسلم . كتاب

البر والصلة . باب المرء مع من أحب ، 4 / 2032 .

⁽⁴⁾ ويدل على هذا إحدى روايات مسلم وفيها : ما أعددت لها من كثير أحمد عليه نفسي) .

صحيح مسلم 4 / 2032 .

قال ابن حجر :

(.. ودل الخبر على أن اتباع الرسول ﷺ وإن كان الأصل أنه لا يحصل إلا بامتثال جميع ما أمر به ، أنه يحصل من طريق التفضل باعتقاد ذلك وإن لم يحصل استيفاء العمل بمقتضاه بل محبة من يعمل ذلك كافية في حصول أصل النجاة والكون مع العاملين بذلك ، لأن محبتهم إنما هي لأجل طاعتهم ، والمحبة من أعمال القلوب ، فأثاب الله محبتهم على معتقده ، إذ النية هي الأصل والعمل تابع لها ، وليس من لازم المحبة الاستواء في الدرجات) . (1) نخلص من هذا إلى أن من أحب رسول الله ﷺ حبا صحيحا يصدقه الاتباع كان معه في الجنة بإذن الله فضلا وتكرما منه سبحانه ، أما مجرد ادعاء الحب بدون تحقيق الاتباع لرسول الله ﷺ فلن يصل صاحبه إلى هذه المعية ما لم يحقق الاتباع .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى :

(ابن آدم لا تغتر بقول من يقول : المرء مع من أحب ، أنه من أحب قوما اتبع آثارهم ، ولن تلحق بالأبرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم ، وتقتدي بسنتهم وتصبح وتمسي وأنت على منهجهم ، حريصا على أن تكون منهم ، فتسلك سبيلهم ، وتأخذ طريقهم وإن كنت مقصرا في العمل ، فإنما ملاك الأمر أن تكون على استقامة ، أما رأيت اليهود ، والنصارى ، وأهل الأهواء المردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم ، لأنهم خالفوهم في القول والعمل ، وسلكوا غير طريقهم فصار موردتهم النار ، نعوذ بالله من ذلك) . (2) (3)

عاقبة المعاندين للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

بنو النضير – عليهم لعنة الله

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، لاستعينهم في دية القبليتين من بني عامر اللذين قتلتهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد حلف فلما أتاهاهم ﷺ قالوا : نعم ، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، فقالوا : أنكم لن تجدوا الرجل على مثله حاله هذه – ورسوله الله ﷺ إلي جنب جدار من بيوتهم قاعد

¹ (فتح الباري ، 10 / 558 .

(2) استنشاق نسيم الأنس ، لابن رجب ، ص 87 .

(3) عبد الرؤوف محمد عثمان ، محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ، ص 120 – 130

— خَمَنَ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فقال : أنا كذلك فصعد ليلقي عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحاب فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فاخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به قال الواقدي : فبعث رسول الله ﷺ محمد بن سلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر فقويت عن ذلك نفوسهم ، وحمى حيي بن أخطب ، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يخرجون ، ونايزوه بنقض العهود ، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

قال ابن إسحاق : فسار حتى نزل بهم ، فحاصروهم ست ليال ، وتحصنوا في الحصون فأمر رسول الله ﷺ بالشروع في إتلاف وإحراق اللينة ، أردأ أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه ، وهو نوع يخالف العجوة والبرني ، الذي كان الغذاء الرئيسي لأهل المدينة ولم يكد الدخان يتصاعد وفروع هذه النخل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعييب من صنعه فما بال النخيل وتحريقها ؟ ! فأنزل الله عز وجل : " ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين " (الحشر: 5) ولم يستمر اليهود طويلاً في المقاومة ، فقد خارت قواهم ، إذ لمك يمس على ضرب الحصار أكثر من عشرين يوماً ، حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي ﷺ للتفاوض ، وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء ، أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاءً تاماً إلى أي مكان يشاؤون . أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يملكون من سلاح بكافة أنواعه ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تماماً . لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدر أن يحملوه على حملته ما عدا السلاح مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

بعد الذي يقدر اليهود على حملته من المال يكون كل ما تبقي من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيناً للمسلمين وملكاً من أملاكهم . أوقر اليهود ستمائة بغير من الأموال التي قدروا على حملها خرجوا كلهم رعب وغيظ ويقول سلام بن أبي الحقيق وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهباً

فكان يضرب بيده على هذه الجلد ويقول : هذا الذي أعدناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركناه نخلاً ففي خيبر النخل .
وكان اليهود يعمدون فعند مغادرتهم المدينة — إلى سقف بيوتهم وعُمدُها وجدرانها فينفضونها لئلا يستفيد منها المسلمون .
يقول الله تعالى : " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار " (الحشر : 2)
أما الذي أراد رمي الحجر :

فقد ذكر ابن إسحاق : أن رسول الله ﷺ قال لليهودي الذي أسلم — يا مين — أترى ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شائي؟! فجعل يا مين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله ، لعنه الله (1) .
أبو جهل عليه لعنة الله :

روي البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لفي الصف يوم بدر ، إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن ، فكأني لا أمن لمكانهما ، انتقل لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل . فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه ، وقال الآخر لي سراً من صاحبه مثله .

قال : فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت وليهما إليه فشد عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء .

وفي الصحيحين أيضاً : من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " من ينظر ماذا صنع أبو جهل ؟ " قال ابن مسعود " أنا يا رسول الله ، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، حتى يرد . قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبو جهل ؟ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه ، أو قال : قتله فوق .
وعند البخاري : عن ابن مسعود : أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزأك الله ؟ فقال : هل أعمد من رجل قتلتموه .

أبو لهب وامراته حماله الحطب .

وأبو لهب هذا الذي أفرد الله ذكره من كفار قريش هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه عبد العزي بن عبد المطلب وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه ولتلهب وجنتيه ، وكان كنيته من جنس عمله وماله إلي ذات اللهب ، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها ، وامراته أم جميل واسمها أروي بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان .
ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له والازدراء به والتنفث له ولدينه .

روي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلي البطحاء فصعد الجبل فنادي : " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : " أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ " قالوا : نعم ، قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ بتالك ، فأنز الله : " تبت يدا أبي لهب وتب " رواه البخاري .
ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي لهب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه بدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته وحالف عليهم قريشاً ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً ﷺ ، وكان قد خطب بنتي الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثه النبي ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى ينقل كاهل محمد بهما !

وعن عطاء : حينما مات ابن الرسول ﷺ ذهب أبو لهب إلي المشركين وقال : بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك : " إن شانئك هو الأبتر " قال ابن كثير : روي ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب عن طريق محمد بن إسحاق عن هُبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلي الشام فجهزت معهما فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلي محمد ولأؤذينه في ربه - سبحانه - فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، هو يكفر بالذي دنا فتدلي فكان قاب قوسين أو أدنى - فقال النبي ﷺ : " اللهم ابعث إليه كلباً من كلابك " ثم انصرف عنه مرجع إلي أبيه ، فقال : يا بني ما قلت له ؟ فذكر ما قال له ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال : " اللهم سلط عليه كلب من كلابك " قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه .

فسرنا حتى نزلنا الشراه وهي مأسدة – كثيرة الأسود – فنزلنا إلي صومعه راهب فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد ، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم ، فقال لنا أبو لهب : أنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما أمنها عليه ، فأجمعوا متاعكم إلي هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد ، تقيض فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزيمة – ضربه ضربة - ، ففضح – شرخ – رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد (1) .

نهاية أبو لهب :

قال نافع مولي رسول الله ﷺ : رماه الله بالعدسة فقتلته ، فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً ، ما دفناه حتى انتن ، وكانت قريش تتقي هذه العدسة كما تتقي الطاعون حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكم ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفناه ؟ فقالا : إنا نخشى عدوه هو القرحة ، فقال : انطلقا فأنا أعينكم عليه ، فو الله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلي أعلى مكة ، فأسندوه إلي جدار ثم رجموا عليه بالحجارة .

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا إلا تسترت بنوبته حتى تجوز " سيصلي ناراً ذات لهب * وامراته حمالة الحطب " .

مَنْ لِلأَحْوَالِ غَيْرُ أُمِّ قَبِيحٍ ، أُمِّ جَمِيلِ الْعَوْرَاءِ !؟

قال ابن العربي : العوراء أم قبيح ، وكانت عوراء ، من لها غير أبي النار أبي لهب ؟! حقق الله نسبه ، لقد صرفهم الله على أن يقولوا : أبو النور ، وأبو الضياء ، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه وأجري على ألسنتهم أن يضيفوه إلي لهب ، الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره .

قال ابن كثير عن أم جميل : كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوره وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه نار جهنم ولهذا قال : " حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد " يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهياة لذلك مستعدة له (1)

(1) تفسير ابن كثير في سورة النجم .

(1) تفسير بن كثير .

وكانت أم جميل تحمل الشوك فتضعه في طريق رسول الله ﷺ .
وقال قتادة : كانت تُعير رسول الله ﷺ بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل
الحطب لشدة بخلها .

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : " تبت يدي أبي لهب وتب "
أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولوعة وفي يدها فهر – حجارة –
وهي تقول

مزمما أبينا

ودينه قلينا

وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر ، قال : يا
رسول الله قد أقبلت ، وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : " أنها
لن تراني " وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال تعالى : " وإذا قرأت القرآن جعلنا
بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً " (الإسراء : 45)
فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر
أني أخبرت أن صاحبك هجاني ؟ قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فولت
وهي تقول : قد علمنا قريش إنني ابنة سيدها .

قال الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإباله – حزمة كبيرة – من الحسك
– شوك – فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة
أعيت فقعدت على حجر لتستريح ف جذبها الملك من خلفها فأهلكها – ضفتها
الله بحبها .

قال سعيد بن صبير : حمالة الخطايا والذنوب من قولهم : فلان يحتطب على
ظهره دليله قوله تعالى : " وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم " (الأنعام :

31) ، ولا يظلم ربك أحداً (2)

عقبة بن أبي معيط :

هذا الشقي الذي آذي رسول الله ﷺ وانفرد بما لم يفعله أحد ووضع رجله على
عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ ففقطعت عنقه جزاء وفاقاً .

قال ابن إسحاق في أسري بدر وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبراً :
قال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد ؟ قال : " النار "
وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت قال : يا معشر قريش علام أقتل من بين من هنا ؟ قال : على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال : لما أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد من بين قريش ؟ قال : " نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي ، جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران وجاء مرة أخرى بسلاشاه فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة مغسلته عن رأسي (1)

أبي بن خلف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلي راعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله " رواه البخاري ومسلم .

قال ابن إسحاق : " كان أبي بين خلف يلقي رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يا محمد إن عندي العوذ ، فرساً أعلفه في كل يوم فرقاً - مكيال - من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : " بل أنا أقتلك إن شاء الله "

قال ابن كثير : عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جمع ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : " بل أنا أقتله إن شاء الله " فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعاً وهو يقول لا نجوت إن نجا محمد فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله ، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجه سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بالحرية فوقع إلي الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : " أنا أقتل أبيا " ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا

أجمعون فمات إلي النار " بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير " (الملك : 11) . وفي رواية : لما رجع إلي قومه وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشاً غير كبير قال : قتلني والله محمد ، قالوا له : ذهب والله فؤادك والله ما بك من بأس قال : إنه قد كان قال بمكة : " أنا أقتلك " فو الله لو بصق علي لقتلني ، فكان هذا الشقي هو الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة (2) .

(1) البداية والنهاية ، 3 / 306 .

(2) البداية والنهاية ، 33/3 - 34 .

عبد الله بن قُمئة – أقماه الله

عن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من دمّي وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن حجر : ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شجّع وجهه وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ووهي منكبة من ضربة ابن قمئه وجحشت ركبته .

وعن ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري : أن عبد الله بن قمئة جرحه – أي الرسول ﷺ – في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وصنته ﷺ . قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر : إن الذي رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد مخرجه في وجهه قال : خذا مني وأنا ابن قمئه ، فقال : " قمأك الله " قال فانصرف إلي أهله فخرج إلي غنمه ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليها تيسها فنطحه نطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع . وعن أبي أمامة قال : رمي عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشجع وجهه وكسر رباعيته ، فقال : خذا وأنا ابن قمئة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : " مالك أقماك الله " . فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة "

كسري ملك الفرس :

روي محمد بن إسحاق عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة السهمي بكتابه إلي كسري ، فلما قرأه مزقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال : " مزق ملكه " .

وعن ابن جرير قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس إلي كسري بن هرمز ملك فارس ، وكتب معه : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . من محمد رسول الله إلي كسري عظيم فارس .

سلام على من أتبع الهدى وأمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله فإني رسول الله إلي الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أتيت فإن إثم المجوس عليك .

قال : فلما قرأه شقه وقال : يكتب إليّ بهذا وهو عدي ، قال : ثم كتب تسري إلي باذان – نائبه على اليمين – أن أبعث إلي هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأيتاني به ، فبعث باذان قهرمانه ، وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس ، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له : فرفرة ، وكتب معهما إلي رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلي كسري ، وقال لبازويه : انت بلاد

هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره ، فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف ، فسأله عنه فقال : هو بالمدينة واستبشر أهل الطائف – يعني قريش – بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد نصب له كسري ملك الملوك ، كفيتم

الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه باذويه فقال : شاهنشاه – ملك الملوك – كسري قد كتب إلي الملك باذان ، يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلك ومهلك قومك ومخرب بلادك ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما ، وأعينا شواربهما ، فكرة النظر إليهما وقال : " ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ " قال : أمرنا ربنا – يعينان كسري – فقال رسول الله ﷺ : " ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي " ثم قال : " رجعا حتى تأتيا غداً " قال : وأتي رسول الله الخبر من السماء ، بأن الله قد سلط على كسري ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا من الليالي ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

قال فدعاهما فأخبرهما ، فقالا : هل تدري ما تقول ؟ أنا قد لقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا وتخبر الملاك باذان ؟ قال : " نعم أخبروه ذلك عني ، وقولا له : أن ديني وسلطاني سيلغ ما بلغ كسري وينتهي إلي الحف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء " ثم أعطي خرخره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده قدما على باذان فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإني لارني الرجل نبياً ، كما يقول ، وليكونن ما يقول ، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل ، وإن لم يكن فسنري فيه رأياً ، فلم ينشب باذان قدم على كتاب شيرويه : أما بعد فإني قد قتلت كسري ولم أقتله إلا غضباً بفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانطلق الرجل الذي كان كسري قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمر فيه ، فلما انتهى كتاب شيرويه إلي باذان قال : إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس ، من كان منهم باليمن .

قال : وقد قال باذويه لباذان : ما كلمت أحداً أهيب عندي منه ، فقال له باذان : هل معه شرط ؟ قال : لا .

قال الشافعي : لما أوتي كسري بكتاب رسول الله ﷺ : لما أوتي كسري بكتاب رسول الله ﷺ مزقه فقال رسول الله ﷺ " يمزق ملكه " وحفظنا أن قيصر

أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه في سك فقال رسول الله ﷺ : " ثبت ملكه " ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة فأسلم من أسلم منهم شكوا خوفهم من ملكي العراق والشام إلي رسول الله ﷺ : " إذا هلك كسري فلا كسري بعده ، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده " فباد ملك الأكاسرة بالكلية وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية وإن ثبت لهم ملك في الحملة ببركة دعاء النبي ﷺ لهم حين عطوا كتابه والله أعلم (1)

رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول :

قال البخاري في باب قوله تعالى : " يقولون لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " (المنافقون : 8)

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ثم كثر المهاجرون بعد ، فيقال عبد الله من أبي : أو قد فعلوا ، والله لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " رواه البخاري .

كان ذلك في غزوة بني المصطلق من فزاعة ، وهي غزوة لم يسيع ، وهو ماء من مياههم ، قال ابن إسحاق : فبينما الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدهم جهجاه وسان من دبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا فصرح الجهني يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبي بن سلول ، وعنده رهط من فوقه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال : أوفد فعلوها ، قد ناخرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيب قریش هذه إلا كما قال الأولون : لُسَعُ نَّ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من فوقه ، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلي غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم خمشي به إلي رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُر عباد من بشر فليقتله ، فقال رسول الله ﷺ : " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل " وذلم في ساعة لم تكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها فارتحل الناس وقد مشي عبد الله بن أبي بن سلول إلي رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية 268/4 - 271 .

ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عيسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حذّباً على ابن أبي ودفعاً عنه ، فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه اسيد بن حضير فحيّاه بتحية النبوة وسلم عليه وقال : يا رسول الله والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها .

فقال رسول الله ﷺ : " أو ما بلغك عن صاحبك ؟ " فقال : أي صاحب يا رسول الله ؟ قال : " عبد الله بن أبي " قال : وما قال ؟ ، قال : " زعم أنه إن رجع إلي المدينة أخرج الأعز منها الأذل " قال : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، قال : يا رسول الله أرفق به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لتوجه فإنه يري أن قد سلبته ملكاً .

ثم مش رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمس ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا يناماً وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي .

قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتاده : أن عبد الله بن أبي بن سلول أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنه بلغني إنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني وإني أخشي أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلي قاتل عبد الله بن أبي يمشي بين الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله ﷺ عليه الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : " كيف تري يا عمر ؟ أما والله لو قتله يوم قلت لي ، لا رعدت له نوف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته " فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

وقال ابن كثير : ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلي المدينة وقف عبد الله ابن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي ، قال له ابنه :

وراءك ، فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان يسير ساقه – مؤخرة الجنس – فشكا إليه عبد الله ابن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن (1) .

القرطاء البكريون :-

بعث رسول الله ﷺ إلي القرطاء البكرين بناحية ضريه في نجد شرقي المدينة بكتاب يدعوهم فيه إلي الإسلام فاستهزؤا به وبكتابه فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلي التوحيد فغسلوها من الحبر ، ثم رقعوا بها استادلولهم وأبوا أن يجيبوا الرسول إلي ما دعاهم إليه ، فأنكرت امرأة عاقله منهم ما فعلوه بكتاب الرسول ﷺ ، وهي أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنه ابن أخي سيد القوم حارثه بن عمر واستهجت ما صنعوا ، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة .

إذا ما أتتهم آية من محمد محوها بماء البئر فهي عصير ويذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ﷺ ما فعلوا فصاروا دائما أهل رعدة ومجلة وكلام مختلط وأهل سفه ، وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عرينة ، يقال له : عبد الله بن عوسجة . قال الواقدي : رأيت بعضهم عيباً لا يبين الكلام .

جرد رسول الله ﷺ حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب في شهر ربيع الأول ، سنة تسع هجرية ، فهزمهم في مكان بنجد يقال له : زج لاوه (2) .

حُي بن أخطب :

كان حُي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ليصيبه ما اصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب دون أن تستأصل شافه المسلمين وتقضي عليهم قضاءً تاماً ، وفعلوا فقد وفي له حُي بذلك ، فقد أتى الله به إلي حصون بني قريظة يحنى ثمار أعماله الشريرة ، فيقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

(1) البداية والنهاية ، 3 / 158 – 160 .

(2) الجراء من جنس العمل ، 1 / 279 .

قال ابن إسحاق يصف موقف حيي بن أخطب ساعة إعدامه :
وأتي بحي بن أخطب - عدو الله - مجموعة يداه إلي عنقه بحبل ، فلما نظر
إلي رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكن من يخذل الله
يخذله الله ، وزاد السهيلي : أن النبي ﷺ قال ليحي بن أخطب حين رآه موثقاً
:

ألم يمكنني الله منك ؟ فقال : بلي ، ولكن من يخذلك يخذل .
وحينما تقدم لضرب عنقه قال : أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر
، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

أُسَيْرُ زَارِمٍ مَلِكِ خَيْبَرِ :

نصبه اليهود ملكاً على خيبر خلفاً لأبي رافع ، وجدَّ أسير لشن حملته أحزاب
جديدة على المسلمين في المدينة وحاول أن يصنع برسول الله ﷺ ما لم
يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه ، فذهب إلي مناطق القبائل النجدية غطفان
وغيرها وصار ينتقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية يحرضها
على رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ ثلاثين من
أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة لأسير بم زارم برسالة شفوية
تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلي المدينة لمقابلة النبي صلى الله عليه
وسلم بنفسه لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يبقيه النبي
صلى الله عليه وسلم □ أميراً على خيبر ، حيث قال له ابن رواحة : يا أسير إن رسول الله
إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويسحن إليك .

وخرج أسير بن زارم في ثلاثين من خلصاء أصحابه بصحبة عبد الله بن
رواحة وصحبه وقد أدف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجزاً من
أصحاب أسير بن زارم وكان سيد خيبر أسير رديف عبد الله بن أنيس .
وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فأهو
أسير بن زارم بيده إلي سيف عبد الله بن أنيس ليقتله إلا أن ابن أنيس كان
أسرع منه ، إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة
بين بقية الركب ، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته
ما عدا رجلاً واحداً تمكن من الفرار (1)

يهود بني قريظة :

لقد كان للمسلمين حلف مع بني قريظة قبل مجيء الأحزاب ولكنهم بعد مجيء الأحزاب غدروا المسلمين وقد كانوا خلفهم وقواهم على ذلك شيطان بني النضير حيي بن أخطب ذهب إلي بني قريظة وما زال بهم حتى أجابوه إلي ما طلب فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين والانضمام إلي جيش الأحزاب ، وأخذ كعب بن أسد سيد بني قريظة الصحيفة ومزقها .
غدروا برسول الله ﷺ وجيوش الأحزاب توشك أن تفتك بالمدينة وبلغت القلوب الحناجر .

أوفد إليهم النبي ﷺ وفداً من الأنصار على رأسه سعد بن معاذ وسعد بن عباد فقالوا للوفد وقد تملكهم الغرور : الآن جنتم تطلبون الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد وهو الذي كسر جناحنا ، وأخرج إخواننا بني النضير ، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، من هو رسول الله هذا ؟! فغضب سيد الخرج وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه وأغضبوه كثيراً .

غير أن سيد الأوس سعد بن معاذ – وهو حليف هؤلاء اليهود – قد دخل في الأمر وقال لسعد بن عباد : عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربي من المشاتمة ، وأقبل عليهم ناصحاً ومحذراً : إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة ، وأنا أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه ، فقالوا لسعد : أكلت أير أبيك ، فقال لهم سعد – وكان حليماً – غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة قتماوي بنو قريظة في غيهم وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عوده حلفائه إلي جاده الصواب ، فعاد الوفد تحمل إلي النبي ﷺ بواسطة كلمة سر : عضل والقارة أن القوم قد غدروا دون أن يعلم أحد من المعسكر هذا الخبر المزعج .

وحين أخزي الله الأحزاب أتى وقت حساب بني قريظة :
وجاء جبريل إلي رسول الله ﷺ قائلاً : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟!
قال : نعم ، فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من حلب القوم ، إن الله يأمرك بالمشير إلي بني قريظة ، فإني عائد إليهم فمزعز لهم .

ونادي رسول الله ﷺ : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة .

ولما رأت اليهود بني قريظة فإنهم لما نظروا إلي طلائع الجيش النبوي تتقدم بقيادة علي بن أبي طالب ، فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تخترنه من

خبث ودناءة ووضاعه وأسمعوا أن عن رسول الله ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطاهرات الطيبات من السب والشتم والقذف ، ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه أن يورد نصه لفظاعته وبشاعته ، وكل الجواب الذي سمعوه من على : السيف بيننا وبينكم ، وأشفق على – وهو أول من سبق باللواء إلي بني قريظة – من أن يسمع الرسول ﷺ في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح . وأتاب على في حمل اللواء أبا قتادة الأنصاري وانطلق مسرعاً نحو رسول الله ﷺ واستوقفه على بُعد من حصون اليهود ، وطلب منه أن يقف بعيداً عن هذه الحصون ، لئلا تتأذي بسماعه ما فاه به اليهود من سب وقذف فقال على : لا عليك يا رسول الله ، أن تدنوا من هؤلاء الأخايث فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لعلك سمعت منهم فيّ أذي ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فقال ﷺ : له رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود حتى دنا من حصون قريظة الغادرة ، نادي نفرأ من قادتهم فلما ظهرُوا في أبراج حصونهم قال لهم : يا أخوان القردة وعبد الطاغوت ، هل أخراكم الله لأنزل بكم نقمته ، وهنا أسقط في أيدي اليهود ، فأنكروا أن يكونوا شتموه ونسأه ، وانطلقوا يحلفون كذبا ، إنهم ما فاهو الشيء مما بلغه بهذا الشأن ، ثم اندفعوا في ليونة الأفاعي يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء ما ظنوا أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمي ، فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

واشتد حصار المسلمين لليهود وانهارت أعصابهم وتحطمت مغنوياتهم إلي درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب وقدر الصحابة اقتحام حصون اليهود مهما كان الثمن ، وصاح على بن أبي طالب حامل لواء المسلمين وابن عمه الزبير بن العوام ، صاح : والله لأذوقن ما ذاقن حمزه ولا فتحن حصنهم .

ولما سمع اليهود هذا الإنذار من حامل لواء الجيش على بن أبي طالب ايقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه طلبوا إيقاف الهجوم وأعلنوا الاستسلام وإعلان النزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط .

وسارع اليهود إلي فتح أبواب معاقلم وحصونهم فوراً بعد أن ألقوا سلاحهم وأخذوا في مغادرة الحصن مستسلمين وأمر النبي ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي وقد حبس الرجال من بني قريظة وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل في دار

أسامه بن زيد ، أما النساء والأطفال فقد رأي النبي ﷺ بعد أن أوكل أمرهم إلي عبد الله بن سلام أن يحفظوا في مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق وأنزلوا دار الضيافة وكان هؤلاء النساء والذراري يناهز الأنف .
وشفع الأوس لحفائهم يهود بني قريظة عند رسول الله ﷺ ففوض أمر هؤلاء اليهود إلي سيد الأوس سعد بن معاذ ، قال رسول الله ﷺ : " ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ " قالوا : بلي ، قال : فذاك سعد بن معاذ " .

روي الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال : رُمي سعد بن معاذ فقطعوا أكله ، فحسمه رسول الله ﷺ بالنار ، فانتفخت يده فحسمه أخرى فانتفخت يده ، فنزف فلما رأي ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة ، فاستمسك عرقه مما قطر ، حتى نزلوا على حكم سعد فحكم أن تقتل رجالهم وتسبي نساؤهم وذرايرهم ، فلما فرغ منهم اتفق عرقه فمات ، فأخذهم من الغم ما أخذهم وصعق اليهود لهذا الحكم الصارم وعلاهم الذهول وخيم عليهم الوجوم .

ولقد أعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة وجرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل ، وتولي عملية قتل اليهود الخونة على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد كلما استدعي الحرس جماعة منهم لإعدامهم لاذوا بسيدهم كعب يسألونه في جزع وارتيك ، ما تراه يصنع بنا ؟ فيجيبهم : أفي كل موطن لا تعقلون ؟! هو والله القتل (1)

فافهم

وروي عن أبي عروبة وهو من أولاد الزبير رضي الله عنه قال كنا جلوسا عند مالك يوما فإذا رجل أتى وذكر نقائص الصحابة ومساوئهم فقال مالك اسمع ثم تلا هذه الآية { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } حتى بلغ إلى { ليغيظ بهم الكفار } ثم قال من كان في باطنه سيء الظن بالصحابة ويعيش عدوا لهم فهو داخل في هذا اللفظ فافهم .

فاتهمه على الإسلام

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لما سئل عن رجل تنقص معاوية ، وعمر بن العاص أيقال له رافضي ؟ فقال : " إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيئة سوء ، ما انتقص أحدٌ أحداً من الصحابة إلا وله داخله سوء ". وفي رواية أخرى قال : " إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام " (1).

ومن مواقف الأدب مع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

ومن أحبّ عثمان فقد استنار بنور الله

كان أيوب السختياني من الزهاد والعقلاء ، وهو الذي قال : من أحبّ أبا بكرٍ فقد أقام الدين ، ومن أحبّ عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحبّ عثمان فقد استنار بنور الله ، ومن أحبّ علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى . (2)

إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه

قال مالك رحمه الله في شأن أيوب السختياني رضي الله عنه : " حجّ حجتين ؛ فكنّ أرمقه ولا أسمع منه ، غير أنّه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه ؛ فلما رأيتُ منه ما رأيتُ وإجلاله النبي صلى الله عليه وسلم كتبتُ عنه ! " (3)

ويكون قلبه لهم سليماً

قال أبو أيوب السختياني : (... ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد برىء من النفاق ومن ينتقص أحداً منهم أو بغضه لشيء كان منه فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح والخوف عليه ان لا يرفع له عمل الى السماء حتى يحبهم جميعاً ويكون قلبه لهم سليماً) (4).

¹ (البداية والنهاية ، 142/8 .

² (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 102 / 8

³ (سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي ، التعديل والتجريح ، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح ، تحقيق د. أبو لبابة حسين ، دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ، الطبعة الأولى ، 1406 - 1986م ، 386/1

⁴ (محمد بن أبي يعلى أبو الحسين ، طبقات الحنابلة ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الناشر دار المعرفة ، 245/1

ما أشبهكم بأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، قال: أتينا أنسا أنا وثابت، ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا، فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- لأنتم أحب إلي من عدة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار(1).

فمع من تريد أن تكون؟

الأوزاعي: لو لم تكن جنة ولا نار إلا أنهما داران، دار فيها الملائكة، والمرسلون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ودار فيها إبليس، والشياطين، وفرعون، وهامان، وقارون، فمع من تريد أن تكون؟ (2)

عليّ قاسم الجنة والنار

سئل أحمد بن حنبل عن قول الناس : عليّ قاسم الجنة والنار ، قال : هذا صحيح ، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وعلى آله قال لعليّ بن أبي طالب : ' لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ' ، فالمؤمن في الجنة والمنافق في النار '(3).

هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقال: إن الشافعي رضي الله عنه قدم إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة في أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله ابن العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر، ولم يزل الشافعي بمصر إلى أن ولي السري ابن الحكم البلخي - من قوم يقال لهم الزط - مصر واستقامت له، وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحداً عليه، وكان الشافعي محبباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه، وحسن كلامه وأدبه وحلمه، وكان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس يقال له فتیان فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجوار بيعه على أحد أقواله، ومنع فتیان منه، لأنه يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتیان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً فلم يرد عليه الشافعي حرفاً ومضى في كلامه في

¹ (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 444/9

² (الزمخشري ،ربيع الأبرار، 1 / 63 ، 94 ، 96 ، 257 ، 259 ، 324

³ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 32/ 8

المسألة، فرفع ذلك رافع إلى السري، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه فأخبره بما جرى، وشهد الشهود على فتیان بذلك، فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي. على فتیان لضربت عنقه، وأمر فتیان فضرب بالسياط وطيف به على جمل وبين يديه مناد ينادي: هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن قوماً تعصبوا لفتیان من سفهاء الناس وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلًا حتى مات .

قال ابن يونس: كان لشافعي ابن اسمه محمد، قدم مع أبيه مصر وتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وقيل: كان له ولد آخر اسمه محمد أيضاً يروي عن سفيان ابن عيينة. ولي قضاء الجزيرة وتوفي بها بعد أربعين ومائتين.⁽¹⁾

الإمام مالك : نسب المرء داره

وأما زهد الإمام مالك في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار فقال لا ولكن أحدثك فيه حديثاً سمعت ربيعة بن عبد الرحمن يقول نسب المرء داره .

الإمام مالك : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله ﷺ بحافر دابة ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي أنه قال رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك ما أحسنه فقال هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت دع نفسك منها دابة تركبها فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله ﷺ بحافر دابة .

الإمام مالك : فلا أوثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ

وسأله الرشيد هل لك دار فقال لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخص قال لمالك ينبغي أن تخرج معنا قال عزمتم أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله

⁽¹⁾ (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 352-339/2

ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال رسول الله ﷺ اختلاف أمتي رحمة وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله ﷺ المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وقال عليه الصلاة والسلام المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد وهذه دنائيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني إنك إنما كلفتني مفارقة المدينة لما اصطنعتة إلي فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول ﷺ فهكذا كان زهد مالك في الدنيا. (1)

التوبة :

التوبة لغة: مصدر قولك: تاب يتوب وهو مأخوذ من مادة (ت وب) التي تدلّ على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه توبة ومتابا، والوصف منه تائب، والتوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار؛ فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه:

إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، أو يقول: فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك وهذا الأخير هو التوبة، يقال: تاب إلى الله أي تذكر ما يقتضي الإنابة، نحو قوله سبحانه: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً (النور/ 31) أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا إليه .. ويقال: تاب الله عليه أي قبل منه التوبة، والتائب يقال لبازل التوبة ولقابل التوبة فالعبد تائب إلى الله. والله تائب على عبده، والتّوَاب العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كلّ وقت بعض الذنوب على الترتيب حتّى يصير تاركا لجميعه، وقد يقال لله عزّ وجلّ ذلك (أي توّاب) وذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال، والمتاب في قوله تعالى وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (الفرقان/ 71) يقصد به التوبة التامة وهي الجمع بين ترك القبيح وتحريّ الجميل.

والتوبة في الاصطلاح:

قال الرّاغب: التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة.

وقال الجرجاني: التوبة هي الرجوع إلى الله بحلّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكلّ حقوق الرّب، وقيل: التوبة الاعتراف والندم والإقلاع.

وقيل: التوبة في الشرع: الندم على معصيته من حيث هي معصية، مع عزم ألا يعود إليها إذا قدر عليها.

فقولهم على معصية: لأنّ الندم على المباح أو الطاعة لا يسمّى توبة، وقولهم من حيث هي معصية: لأنّ من ندم على شرب الخمر لما فيه من الصّداع أو خفة العقل أو الإخلال بالمال والعرض لم يكن تائباً شرعاً، وقولهم: مع عزم ألا يعود، زيادة تقرير؛ لأنّ الندم على الشّيء لا يكون إلّا كذلك، ولذلك ورد في الحديث «الندم توبة». وقولهم: إذا قدر عليها، إشارة إلى أنّ من سلب القدرة على معصية مثل الزّنا وانقطع طمعه عن عود القدرة إليه لم يكن ذلك توبة منه.»

التوبة النصوح:

قال الجرجاني: التوبة النصوح هي توثيق العزم على ألا يعود بمثله. وقيل هي ألا يبقى (التائب) على عمله أثراً من المعصية سرّاً وجهراً، وهذه التوبة هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

وقال التّهانوي: التوبة النصوح وهي من أعمال القلب تعني تنزيه القلب عن الذّنوب، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال ولا ترد في خاطره أصلاً.

معاني التوبة وأنواعها:

قال صاحب التعريفات: التوبة على ثلاثة معان:

أولها: الندم. وثانيها: العزم على ترك العود إلى ما نهى الله عنه. وثالثها: السّعي في أداء المظالم.

أمّا أنواعها:

فقليل هي نوعان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك، وتوبة الاستجابة أن تستحي من الله لقربه منك، قال تعالى: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق/ 16) وقيل: بل ثلاثة:

التوبة الصّحيحة: وهي أنّه إذا اقترف العبد ذنباً تاب عنه بصدق في الحال.

والتوبة الأصحّ: وهي التوبة النصوح (وقد سبق تعريفها).

والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في خاطر.

التوبة والإنابة والأوبة:

يقال لمن خاف العقاب هو صاحب توبة، ولمن يتوب بطمع الثّواب هو صاحب

إنابة، ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر الله فهو صاحب أوبة. وقيل:

التَّوْبَةُ صفة عامة المؤمنين. قال تعالى: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (النور/ 31). والإنابة صفة الأولياء والمقربين. قال تعالى: وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (ق/ 33) والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص/ 30) .

وردت كلمة التوبة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:
- بمعنى التجاوز والعفو. وهذا مقيد بعلى، كقوله تعالى فَتَابَ عَلَيْكُمْ (البقرة/ 54).

- بمعنى الرجوع والإنابة. وهذا مقيد بآلى، كقوله تعالى وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (النور/ 31)

- بمعنى الندامة. وهذا غير مقيد لا ب (إلى) ولا ب (على): كقوله تعالى: فَإِنْ تُبَتْمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (التوبة/ 3)

شروط التوبة:

قال النووي- رحمه الله تعالى:- التوبة واجبة من كلّ ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها شروط ثلاثة وهي:
- أن يقلع عن المعصية.

- أن يندم على فعلها.

- أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصحّ توبته .

ويزاد شرط رابع إذا كان الذنب يتعلق بحق آدمي: أن يبرأ من حق صاحبه؛

فإن كان مالا أو نحوه ردّه إليه، وإن كان حدّ قذف مكّنه منه أو طلب عفوّه،

وإن كان غيبة استحلّه منها، هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم. ويجب

أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحّت توبته من ذلك الذنب .

التوبة من ترك المأمور أولى من التوبة من فعل المحظور:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى:- من تاب توبة عامة كانت هذه

التوبة مقتضية لغفران الذنوب، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن

يعارض هذا العامّ معارض يوجب التخصيص مثل أن يكون بعض الذنوب لو

استحضره لم يتب منه، لقوة حبه إيّاه، أو لاعتقاده أنّه حسن ليس بقبيح، فما

كان من ذنب لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأمّا ما كان لو

استحضره بعينه لكان ممّا يتوب منه؛ فإنّ التوبة العامة شاملة له. وأمّا التوبة

المطلقة:

وهي أن يتوب توبة مجملّة، فإنّها لا تستلزم التوبة من كلّ ذنب. فهذه لا

توجب دخول كلّ فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق،

لكن هذه تصلح أن تكون سببا لغفران المعين، كما تصلح سببا لغفران الجميع، بخلاف التوبة العامة فإنها مقتضية للغفران العام. وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المعاصي المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من الأمور الذي يجب عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش؛ فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية. والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك؛ فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائما .

شمول التوبة لكل مراتب الدين (الإسلام، الإيمان، الإحسان) قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به. وترك ما نهى عنه. فإذا التوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا. ويدخل في مسميها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علما وعملا وحالا. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيلها وآثارها .

وقد قال الله تعالى : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة: 54)

وقال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة: 159-160)

وقال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (النساء: 64)

وقال تعالى: " لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (التوبة: 117-118)

وقال تعالى: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة 127-128)

وقال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة: 111-112)

وقال تعالى: " الرِّكَابُ أَكْثَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (هود: 1-4)

وقال تعالى: " أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (مريم: 58-60)

وقال تعالى : " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ (الأحقاف: 15-16)

وقال تعالى : " وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (التحریم: 3-5)

التوبة من الكفر أو النفاق لا تكون إلا بالإيمان الصادق:

وقال تعالى : " كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (آل عمران: 86-89)

وقال تعالى : " وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا * إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (النساء: 15-18)

وقال تعالى : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (البقرة: 222)

وقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي

اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحریم: 8)
وقال تعالى: " يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفًا (النساء: 26-28)

وعن عقبه بن عامر- رضي الله عنه- قال: إن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب. قال: «يكتب عليه». قال: ثم يستغفر منه ويتوب. قال: «يغفر له ويتاب عليه». قال: فيعود فيذنب. قال: «فيكتب عليه». قال: ثم يستغفر منه ويتوب. قال: «يغفر له ويتاب عليه، ولا يملّ الله حتى تملّوا (1).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد إذا أخطأ نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه وهو الرّان (2) الذي ذكر الله كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (المطففين/ 14). (3)

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله- عز وجل- يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها. (4) وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر (5)

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا.

¹ (قال الهيثمي في المجمع (10/ 200): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن.

² (الران: الطبع والختم.

³ (الترمذي (3334) وقال: حديث حسن صحيح واللفظ له. وابن ماجه (4244). والحاكم (2/ 517) من حديث أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

⁴ (مسلم (2759)

⁵ (الترمذي (3537) وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (4253) وأحمد برقم (6160، 6400). والحاكم (4/ 257) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند: إسناده صحيح (9/ 17) حديث (6160).

فقتله فكمّل به مائة، ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم، فقال: إنّه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التّوبة. انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنّ بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء، فانطلق حتّى إذا نصف (1) الطريق أتاه الموت، فاخصمت فيه ملائكة الرّحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرّحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يعمل خيراً قطّ.

فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فألى أيّتهما كان أدنى فهو له. فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرّحمة (2) وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التّوابون. (3)

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتّى اشتدّ عليه الحرّ والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثمّ رفع رأسه فإذا راحلته عنده (4).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو أخطأتم حتّى تبلغ خطايكم السّماء، ثمّ تبتّم لتاب عليكم (5).» وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «للجنة ثمانية أبواب، سبعة مغلقة وباب مفتوح للتّوبة حتّى تطلع الشّمس من مغربها (6).

¹ (نصف الطريق: في منتصف الطريق.

² (البخاري- الفتح 6 (3470). ومسلم برقم (2766) واللفظ له.

³ (الترمذي (2499) وهذا لفظه وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة.

ابن ماجة (4251) وقال الحافظ: سنده قوي (4/ 346) والدارمي (2/ 393) وأحمد (3/ 198)

والحاكم (4/ 244). وقال محقق جامع الأصول (2/ 515): حسن.

⁴ (البخاري- الفتح 11 (6308) واللفظ له ومسلم (3744).

⁵ (ابن ماجة (4248) وفي الزوائد: هذا إسناد حسن، وشيخ ابن ماجة مختلف فيه وباقي رجاله

ثقات. وقال العراقي في تخريج الإحياء (4/ 13): إسناده حسن. وذكره في الترغيب والترهيب

(4/ 90) وقال: رواه ابن ماجة بإسناد جيد.

⁶ (ذكره في الترغيب والترهيب (4/ 89) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه- عز وجل- قال: «أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنوب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنوب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنوب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك⁽¹⁾.

وعن شداد بن أوس- رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقفاً بها فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة⁽²⁾.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: إن كنا لنعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم⁽³⁾.

قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة. وقال أيضاً- رضي الله عنه- في معنى قوله تعالى: توبوا إلى الله توبة نصوحاً (التحريم/ 8). يذنب العبد ثم يتوب فلا يعود فيه.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال الله- عز وجل-: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (النجم/ 32) قال: هو الرجل يصيب الفاحشة يلم بها ثم يتوب منها. قال يقول:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا ... وأيّ عبد لك لا ألما
قال الحسن البصري- رحمه الله:- يابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة.

¹ (البخاري- الفتح 13 (7507). مسلم (2758) واللفظ له.

² (البخاري- الفتح 11 (6306)

³ (أبو داود (1516) وهذا لفظه والترمذي (3434) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه (3814)، وعزاه شاكر للنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 148).

وقال أيضا- رحمه الله- في معنى التَّوْبَةِ النَّصُوحُ: «أن يكون العبد نادما على ما مضى، مجمعا على أن لا يعود فيه.
وقال فيها أيضا: ندم بالقلب، واستغفار باللسان وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن.
وقال سعيد بن المسيّب: «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ ما تنصحون بها أنفسكم.
وقال محمد بن كعب القرظي: «التَّوْبَةُ يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، الإقلاع بالأبدان، إضمار ترك العود بالجنان، مهاجرة سيئ الإخوان.
وقال أبو حازم- رحمه الله-: «عند تصحيح الضّمان تغفر الكبائر، إذا عزم العبد على ترك الآثام أمّه الفتوح .

قال يحيى بن معاذ- رحمه الله تعالى: «الَّذِي حجب النَّاسُ عن التَّوْبَةِ طول الأمل، وعلامة التَّائب إسبال الدُّمعة وحبّ الخلوة والمحاسبة للنفس عند كلِّ همّة.

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى:- التَّوْبَةُ من أفضل مقامات السَّالِكِينَ لَأَنَّهَا أَوَّلُ المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقها العبد أبدا ولا يزال فيها إلى الممات. وإن ارتحل السَّالِكُ منها إلى منزل آخر ارتحل به، ونزل به. فهي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النِّهَايَةِ ضروريّة، كما حاجته إليها في البداية كذلك.

قال محمود الورّاق- رحمه الله:-

قدّم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنّها ... ذخّر وغنم للمنيب المحسن

قال بعض أهل العلم: «من أعطي أربعة لم يمنح أربعة: من أعطي الشُّكْرَ، لم يمنح المزيد، ومن أعطي التَّوْبَةَ، لم يمنح القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنح الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنح الصَّواب.
من فوائد التَّوْبَةِ

- التَّوْبَةُ من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- سبب حبّ الله تعالى ورضاه؛ لأنّ الله يحبّ التَّوَّابِينَ ويحبّ المتطهّرين.
- سعة رحمة الله تعالى للتَّائب.
- ضعف الإنسان لكون الخطيئة جزءا منه.
- عموم وشمول مغفرة الله ورحمته لكلّ ذنب تاب العبد منه وإن كان شركا.

- حرمة المسلم (عرضه وماله) فلا تقبل التوبة من حقوق العباد إلا بأن يأخذ حقه أو يعفو.
- يتجلى الله على التائب برضوانه وإحسانه.
- يقبل الله على التائب أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته.
- تسبب التوبة ذهاب الضيق وإزالة الهم.
- الرجاء في العفو والتوبة ما دامت الروح في الجسد إلى طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة.
- وجوب التوبة على العموم وعلى الخصوص والمبادرة بها.
- المعاصي سواد والتوبة جلاؤها.

ومن المواقف :

قد آذاني هذا المتخلف من كثرة ما يتوب

وحكى بعضهم قال: كان لنا صديق يكثر التوبة من الشرب والعود إليه. ففارقنا يوماً على أنه قد تاب فجاءنا صبيحة غداة وقد أنمحت من أحد عارضيه لحيته فقال: رأيت إبليس في منامي وهو يستعرض أصحابه، فأتى بي إليه بعض أعوانه وقال: قد آذاني هذا المتخلف من كثرة ما يتوب لم يرجع، حلفوه على أن لا يتوب فحلفت ثم قال: الحسوا لحيته من جانب يكون ذلك تذكرة معه، فأصبحت على تلك الحالة.

توبة كعب بن مالك رضي الله عنه

عن الزهري قال أخبرني ابن كعب بن مالك عن أبيه قال لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ولم يعاتب النبي صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف عن غزوة بدر إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مغوثين لغيرهم فالتقوا على غير موعد كما قال الله تعالى ولعمري إن أشرف مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس لبدر وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حيث تواتقنا على الإسلام ثم لم أتخلف بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة غزاها حتى إذا كانت غزوة تبوك وهي آخر غزاة غزاها وأذن النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار وكان قلما أراد غزوة إلا ورى بغيرها وكان يقول الحرب خدعة

إلا غزوة تبوك فإنه جلى للناس أمرهم فأراد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبطه وأنا أيسر ما كنت قد جمعت راحلتين وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحاذ وأنا في ذلك أصغي إلى الظلال وطيب الثمار فلم أزل كذلك حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا بالغداة وذلك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج يوم الخميس فأصبح غاديا فقلت أنطلق غدا إلى السوق فأشتري جهازا ثم ألحق بهم فانطلقت إلى السوق من الغد فعرس علي بعض شأني فرجعت فقلت أرجع غدا إن شاء الله فألحق بهم فعرس علي بعض شأني أيضا فقلت أرجع غدا إن شاء الله فلم أزل كذلك حتى ألبس بي الذنب وتخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف بالمدينة فيحزنني أني لا أرى أحدا تخلف إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق وكان ليس أحد تخلف إلا رأى أن ذلك سيخفى له وكان الناس كثيرا لا يجمعهم ديوان وكان جميع من تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم بضعة وثمانين رجلا ولم يذكرني النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوكا قال ما فعل كعب بن مالك قال رجل من قومي خلفه يا رسول الله برده والنظر في عطفه فقال معاذ بن جبل بنس ما قلت والله يا نبي الله ما علمنا عليه إلا خيرا قال فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب فقال النبي صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة جعلت أتذكر بماذا أخرج به من سخط النبي صلى الله عليه وسلم وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي حتى إذا قيل النبي صلى الله عليه وسلم هو مصبحكم غدا بالغداة زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو إلا بالصدق فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ضحى فصلى في المسجد وكان إذا جاء من سفر فعل ذلك دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه فيستغفر لهم ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل فدخلت المسجد فإذا هو جالس فلما رأيته تبسم تبسم المغضب فجئت فجلست بين يديه فقال ألم تكن ابتعت ظهرك فقلت بلى يا نبي الله قال فما خلفك فقلت والله لو بين يدي أحد من الناس غيرك جلست لخرجت من سخطه علي بعذر ولقد أوتيت جدلا ولكن قد علمت يا نبي الله أني إن أخبرتك اليوم بقول تجد علي فيه وهو حق فإني أرجو فيه عقبي الله وإن حدثتك اليوم حديثا ترضى عني فيه وهو كذب أو شك الله أن يطلعك علي والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حاذا مني حين تخلفت

عنك قال أما هذا فقد صدقكم الحديث فقم حتى يقضي الله فيك فقامت فتار على
إثري أناس من قومي يؤنبونني فقالوا والله ما نعلمك أذنبت ذنبا قط قبل هذا
فهلا اعتذرت إلى نبي الله صلى الله عليه و سلم بعذر يرضى عنك فيه وكان
استغفار رسول الله صلى الله عليه و سلم سيأتي من وراء ذنبك ولم تقف
نفسك موقفا لا تدري ماذا يقضى لك فيه فلم يزالوا يؤنبونني حتى هممت أن
أرجع فأكذب نفسي فقلت هل قال هذا القول أحد غيري قالوا نعم قاله هلال بن
أمية ومرارة بن ربيعة فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة
فقلت والله لا أرجع إليه في هذا أبدا ولا أكذب نفسي قال ونهى النبي صلى الله
عليه و سلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة قال فجعلت أخرج إلى السوق فلا
يكلمني أحد وتتكر لنا الناس حتى ما هم بالذين نعرف وتتكرت لنا الحيطان
حتى ما هي بالحيطان التي نعرف وتتكرت لنا الأرض حتى ما هي بالأرض
التي نعرف وكنت أقوى أصحابي فكنت أخرج وأطوف في السوق وآتي
المسجد فأدخل وآتي النبي صلى الله عليه و سلم فأسلم عليه فأقول هل حرك
شفتيه بالسلام إذا قمت أصلي إلى السارية فأقبلت قبل صلاتي نظر إلي بمؤخر
عينيه وإذا نظرت إليه أعرض عني قال واستكان صاحباي فجعلا يبكيان الليل
والنهار ولا يطلعان رؤوسهما فبينما أنا أطوف في السوق إذا رجل نصراني
جاء بطعام له يبيعه يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له
إلي فأتاني بصحيفة من ملك غسان فإذا فيها أما بعد فإنه بلغني أن صاحبك قد
جفاك وأقصاك ولست بدار مضیعة ولا هوان فالحق بنا نواسك قال فقلت هذا
أيضا من البلاء والشر فأسجرت لها التنور وأحرقتها فلما مضت أربعون ليلة
إذا رسول من النبي صلى الله عليه و سلم قد أتاني فقال اعتزل امرأتك فقلت
أطلقها قال لا ولكن لا تقربها وأرسل إلى صاحبني بمثل ذلك فجاءت امرأة
هلال بن أمية فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف فهل
تأذن لي أن أخدمه قال نعم ولكن لا يقربنك قالت يا نبي الله والله ما به من
حركة لشيء ما زال مكتنبا يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان قال
كعب فلما طال علي البلاء اقتحمت على أبي قتادة حائطه وهو ابن عمي
فسلمت عليه فلم يرد علي فقلت أنشدك الله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله
ورسوله فسكت ثم قلت أيضا يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله فسكت ثم
قلت أنشدك الله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله قال الله ورسوله أعلم
قال فلم أملك نفسي أن بكيت ثم اقتحمت الحائط خارجا حتى إذا مضت
خمسون ليلة من حين نهى النبي صلى الله عليه و سلم الناس عن كلامنا

صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عز و جل قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت إذ سمعت نداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجدا وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج ثم جاء رجل يركض على فرس يبشرني فكان الصوت أسرع من فرسه فلما جاءني الذي سمعت صوته أعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين قال وكانت توبتنا نزلت على النبي صلى الله عليه و سلم ثلث الليل فقالت أم سلمة يا نبي الله ألا نبشر كعب بن مالك قال إذا يحطمكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة قال وكانت أم سلمة محسنة في شائي تحزن بأمرني فانطلقت إلى النبي صلى الله عليه و سلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر وكان إذا سر استنار فجئت فجلست بين يديه فقال أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت يا نبي الله أمن عند الله أم من عندك قال بل من عند الله ثم تلا عليهم لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار حتى بلغ التواب الرحيم التوبة 117 118 قال وفيما نزلت اتقوا الله وكونوا مع الصادقين التوبة 119 قال فقلت يا نبي الله إن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا وأن أتخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال أمسك بعض مالك فهو خير لك فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخير قال فما أنعم الله علي نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه و سلم حين صدقته أنا وصاحبائي أن لا نكون كذبناه فهلكنما كما هلكوا وإني لأرجو أن لا يكون ابتلى الله أحدا في الصدق مثل الذي ابتلاني ما تعمدت لكذبة بعد وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي . (1)

ليس لذا خلقت، ولا بذأ أمرت

قال إبراهيم بن بشّار، قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدوّ أمرك قال: غير ذا أولى بك، قلت: أخبرني لعلّ الله أن ينفعنا به يوماً، فقال: كان أبي من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان المياسير، وحبّب إلينا الصيد، فخرجت راكباً فرسي ومعي كلب، فينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب، فحرّكت فرسي، فسمعت نداء من ورائي: ليس لذا خلقت، ولا بذأ أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً فقلت، لعن الله إبليس، ثم حرّكت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذأ أمرت، فوقفت وقلت، انتهيت انتهيت، جاءني

¹ (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، التوابين ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1403 - 1983 ، ص 94 - 101)

نذير من ربّ العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي إذا ما عصمني ربّي. فرجعت إلى أهلي، فخلّيت عن فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت منه جبّة وكساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً، فلم يصف لي منها الحلال، فقل لي: عليك بالشام، فصرت إلى المصيصة، فعملت بها، فلم يصف لي الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس، فإنّ فيها المباحات والعمل الكثير، فأتيته، فعملت بها انظر في البساتين وأحصد، فبينما أنا على باب البحر جاءني رجل أنظر له، فكتبت في البستان مدّة، فإذا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه، فقع في مجلسه فصاح: يا ناظر، اذهب فآتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فذهبت فأتيته بأكبر رمان، فكسر رمانة فوجدها حامضة فقال: أنت عندنا كذا وكذا تأكل فاكهتنا ورماننا، لا تعرف الحلو من الحامض، قلت: والله ما ذقتها. فأشار إلى أصحابه تسمعون كلام هذا، ثم قال لي: أترأك لو أنّك إبراهيم بن أدهم زاد على هذا فانصرف، فلمّا كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عتق من الناس، فلمّا رأيته قد أقبل اختفيت خلف الشجر والناس داخلون، فاختلطت معهم وهم داخلون وأنا هارب(1).

وأيّ دين لو كان له رجال

قال إبراهيم بن بشّار الصوفي، سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: وأيّ دين لو كان له رجال من طلبة العلم لله كان الخمول أحبّ إليه من التطاول، وقال: والله ما الحياة بثقةٍ يرجى نومها، ولا المنية بعذر فيؤمن غدرها، ففيم التفريط والتقصير والاتكال والإبطاء، قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن طلب التوبة بالتواني، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني(2).

كم شهوة قد ذهبت لذتها وبقيت تبعثها

قال مالك بن دينار بينا أنا أطوف بالبیت إذا أنا بجويرية متعبدة فإذا هي تقول يا رب كم شهوة قد ذهبت لذتها وبقيت تبعثها يا رب ما كان لك عقوبة ولا أدب إلا النار قال فوالله ما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فوضعت يدي على راسي ثم صرخت وجعلت أقول ثكلت مالكا أمه وعدمته جويرية منذ الليلة قد بطلته (3)

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 54/10

(2) أبو نعيم، حلية الأولياء، 40/8

(3) (ابن الجوزي، صفة الصفوة، 16 / 4)

فرجعت إلى بلدي فجعلت أسير سير الضعفاء

قال إبراهيم بن زياد المقرئ قال إبراهيم بن أدهم بابتدائه كيف كان قال كنت يوما في مجلس لي له منظره إلى الطريق فإذا أنا بشيخ عليه أظمار وكان يوما حارا فجلس في فيء القصر ليستريح فقلت للخادم اخرج إلى هذا الشيخ فأقرئه مني السلام وسله أن يدخل إلينا فقد أخذ بمجامع قلبي فخرج إليه فقام معه فدخل إلي فسلم فرددت عليه السلام واستبشرت بدخوله وأجلسته إلى جنبي وعرضت عليه الطعام فأبى أن يأكل فقلت له من أين أقبلت فقال من وراء النهر فقلت أين تريد قال الحج إن شاء الله تعالى قال وكان ذلك في أول يوم من العشر أو الثاني فقلت في هذا الوقت فقال بل يفعل الله ما يشاء فقلت الصحبة فقال إن أحببت ذلك حتى إذا كان الليل قال لي قم فلبست ما يصلح للسفر وأخذ بيدي وخرجنا من بلخ فمررنا بقرية لنا فلقيني رجل من الفلاحين فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه فقدم إلينا خبزا وبيضاً وسألنا أن نأكل فأكلنا وجاء بماء فشربنا وقال لي بسم الله قم فأخذ بيدي فجعلنا نسير وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج فمررنا بمدينة بعد مدينة فجعل يقول هذه مدينة كذا هذه مدينة كذا هذه الكوفة ثم قال الموعد هاهنا في مكانك هذا في الوقت من الليل حتى إذا كان الوقت إذا به قد أقبل فأخذ بيدي وقال بسم الله قال فجعل يقول هذا منزل كذا هذا منزل كذا وهذه فيد وهذه المدينة وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج فصرنا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزرناه ثم فارقتني وقال الموعد في الوقت من الليل في المصلى حتى إذا كان الوقت خرجت فإذا به في المصلى فأخذ بيدي ففعل كفعله في الأولى والثانية حتى أتينا مكة في الليل ففارقتني فقبضت عليه وقلت الصحبة فقال إني أريد الشام فقلت أنا معك فقال لي إذا انقضى الحج فالموعد هاهنا عند زمزم حتى إذا انقضى الحج إذا به عند زمزم فأخذ بيدي فطفنا بالبيت ثم خرجنا من مكة ففعل كفعله الأول والثاني والثالث فإذا نحن ببيت المقدس فلما دخل المسجد قال لي عليك السلام أنا على المقام إن شاء الله هاهنا ثم فارقتني فما رأيته بعد ذلك ولا عرفني اسمه قال إبراهيم فرجعت إلى بلدي فجعلت أسير سير الضعفاء منزلاً بعد منزل حتى رجعت إلى بلخ فكان ذلك أول أمري (1) .

¹ (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، التوابين ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1403 - 1983 ، 160/1

أمجنون أنت ؟

قال مالك بن دينار: رأيت بالمصيصة شيخاً في عنقه غل وسلسلة والصبيان يرمونه وهو يقول:

إن من قد أرى على صور النا ... س وإن فتشوا فليسوا بناس
قال فتقدمت إليه فقلت أمجنون أنت ؟ قال أنا مجنون الجوارح لا مجنون القلب
ثم مر وأنشأ يقول:

واريت أمري بالجنون عن الورى ... كيما أكون بواحي مشغول
يا من تعجب في الأنام لمنطقي ... ماذا أقول ومنطقي مجهول (1)

قلوب الملوك بيدي

عن مالك بن دينار: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك،
قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم
عليه نقمة. لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، ولكن توبوا إلى الله أعظمهم
عليكم (2).

قد عاهدناك مراراً فوجدناك كذوباً

قال مالك بن دينار: دخلت على جار لي وهو مريض فقلت له: عاهد الله أن
تتوب فلعله أن يشفيك. فقال: هيهات قد عاهدته فسمعت هاتفاً من جانب البيت:
قد عاهدناك مراراً فوجدناك كذوباً (3).

ما سبب توبتك ؟

قال يوسف بن الحسين الرازي : حضرت ذا النون ، فقيل له : يا أبا الفيض ،
ما كان سبب توبتك ؟ قال : نمت في الصحراء ، ففتحت عيني فإذا قنبرة عمياء
سقطت من وكر ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرجتان ذهب وفضة ، في
إحداهما سمسم ، وفي الأخرى ماء ، فأكلت وشربت . فقلت : حسبي ، فتبت
ولزمت الباب إلى أن قبطني .

وكان يفتي ويعاشر الفتيان

قال حاتم الأصم: كان شقيق بن إبراهيم موسراً، وكان يفتي ويعاشر الفتيان،
وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلباً
من كلابه، فسعى برجل أنه عنده، وكان الرجل في جوار شقيق، فطلب الرجل،

¹ (أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري ، عقلاء المجانين ، 1 / 9

² (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1 / 439

³ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 1 / 495

فهرب... فدخل دار شقيق مستجيراً، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال: خلوا سبيله، فإن الكلب عنيد أردّه إليكم إلى ثلاثة أيام. فخلوا سبيله، وانصرف شقيق مهتماً لما صنع. فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ فرجع إليها، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة، فأخذه، وقال: أهديه إلى شقيق، فإنه يشتغل بالتفتي. فحمله إليه، فنظر شقيق فإذا هو كل الأمر، فسرّ به وحمله إلى الأمير وتخلّص من الضمان فرزقه الله الانتباه، وتاب مما كان فيه. وسلك طريق الزهد.

فما حقيقتها؟!

قال الجنيد بن محمد دخلت يوماً على سري السقطي فرأيت عليه هما فقلت أيها الشيخ أرى عليك هما فقال الساعة دق على داق الباب فقلت أدخل فدخل على شاب في حدود الأرادة فسألني عن معنى التوبة فأخبرته وسألني عن شرط التوبة فأنبأته فقال هذا معنى التوبة وهذا شرطها فما حقيقتها فقلت حقيقة التوبة عندكم أن لا تنسى ما من أجله كانت التوبة فقال ليس هو كذلك عندنا فقلت له فما حقيقة التوبة عندكم فقال حقيقة التوبة ألا تذكر ما من أجله كانت التوبة وأنا أفكر في كلامه قال الجنيد فقلت ما أحسن ما قال فقال لي يا جنيد وما معنى هذا الكلام فقال يا أستاذ إذا كنت معك في حال الجفاء ونقلتني من حال الجفاء إلى حال الصفاء فذكرني للجفاء في حال الصفاء غفلة قال ودخلت عليه يوماً آخر فرأيت عليه هما فقلت أيها الشيخ أراك مشغول القلب فقال أمس كنت في الجامع فوقف على شاب وقال لي أيها الشيخ يعلم العبد أن الله تعالى قد قبله فقلت لا يعلم فقال بلى يعلم وقال لي ثانياً بلى يعلم فقلت له فمن أين يعلم قال إذا رأيت الله عز وجل قد عصمني من كل معصية ووفقتي لكل طاعة علمت أن الله تبارك وتعالى قد قبلني . (1)

حسن الخاتمة :

إن نصيب الإنسان من الدنيا عمره، فإن أحسن استغلاله فيما ينفعه في دار القرار فقد ربحت تجارته، وإن أساء استغلاله في المعاصي والسيئات حتى لقي الله على تلك الخاتمة السيئة فهو من الخاسرين، وكم حسرة تحت التراب، والعاقل من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله وخاف من ذنوبه قبل أن تكون سبباً في هلاكه، قال ابن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه⁽¹⁾.

وكم شخص أصر على صغيرة فألفها وهانت عليه ولم يفكر يوماً في عظمة من عصاه فكانت سبباً في سوء خاتمته، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الموبقات⁽²⁾.
وقد نبه الله في كتابه جميع المؤمنين إلى أهمية حسن الخاتمة، فقال - تعالى - : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [آل عمران: 102].
وقال - تعالى - : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) [الحجر، آية: 99].

فالأمر بالتقوى والعبادة مستمر حتى الموت لتحصل الخاتمة الحسنة وقد بين - صلى الله عليه وسلم - أن بعض الناس يجتهد في الطاعات ويبتعد عن المعاصي مدة طويلة من عمره ولكن قبيل وفاته يقترف السيئات والمعاصي مما يكون سبباً في أن يختم له بخاتمة السوء، قال - صلى الله عليه وسلم - : "وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"⁽³⁾.
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»⁽⁴⁾.

¹ (البخاري 88/11 ، 89 ومسلم أيضاً).

² (البخاري 283/11)

³ (البخاري 417/11 ومسلم برقم: 2643).

⁴ (ابن حبان [347] ، تعليق الألباني "صحيح" .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (1)
وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَدَخَلَ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَدَخَلَهَا» (2)

وورد في حديث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رجلاً من المسلمين في إحدى المعارك مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبلى بلاءً شديداً فأعجب الصحابة ذلك وقالوا: ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أما إنه من أهل النار" فقال بعض الصحابة: أيننا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه سأنظر ماذا يفعل فتبعه، قال فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فرجع الرجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: "وما ذاك؟" قال: الرجل الذي ذكرت أنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك فقلت أنا لكم به فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة" وفي بعض الروايات زيادة "وإنما الأعمال بالخواتيم" (3)

وقد وصف الله - سبحانه - عباده المؤمنين بأنهم جمعوا بين شدة الخوف من الله مع الإحسان في العمل فقال: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

¹ (مسلم [2651] باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ، واللفظ له ، أحمد [10291] ، تعليق شعيب الأرناؤوط "إسناده صحيح على شرط مسلم".

² (أحمد [24806] ، تعليق شعيب الأرناؤوط "إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح".

³ (رواه البخاري ومسلم.

وهم لها سابقون) [سورة المؤمنون آية 57-61]. وقد كانت هذه حالة الصحابة - رضي الله عنهم -

وقد روى أحمد عن أبي بكر الصديق أنه قال: "وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن وكان رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد" وكان علي بن أبي طالب يشتد خوفه من اثنتين طول الأمل واتباع الهوى قال: "فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وكان يقول: ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة ولكل واحدة منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل". وقد كان موت الفجأة مذموماً في الإسلام لأنه يباغت صاحبه ولا يمهلُه فربما كان على معصية فيختم له بالخاتمة السيئة. وقد كان السلف الصالح يخافون من سوء الخاتمة خوفاً شديداً، قال سهل التستري: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله - تعالى - إذ قال: (وقلوبهم وجلة). وينبغي أن يكون الخوف من سوء الخاتمة ماثلاً أمام عين العبد في كل لحظة لأن الخوف باعث على العمل وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة" (1)

لكن إذا قاربت وفاة الشخص وأشرف على الموت فينبغي له حينئذ أن يغلب جانب الرجاء وأن يشترك إلى لقاء الله فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. قال - ﷺ -: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله - عز وجل -" (2).

بشائر تدل على حسن الخاتمة

نبه النبي - ﷺ - على بشائر تدل الخاتمة إذا كانت وفاة العبد مع واحدة منها كان ذلك فالأ طيباً وبشارة حسنة منها:

نطقه بكلمة التوحيد عند الموت فقد روى الحاكم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" (3) - أن يموت شهيداً من أجل إعلاء كلمة الله قال - تعالى -: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا

¹ (الترمذي برقم 2452)

² (أبو داود 3116 والحاكم 351/1 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.)

³ (مسلم برقم 2877)

هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين)
[سورة آل عمران آية 169-171].

- أن يموت غازياً في سبيل الله، أو محرماً بحج، قال - ﷺ -: "من قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في سبيل الله فهو شهيد" (1)
، وقال - ﷺ -: في المحرم الذي وقعته ناقته: "اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً" (2)
- أن يكون آخر عمله طاعة الله فقد روى حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة" (3)

- الموت في سبيل الدفاع عن الخمس التي حفظتها الشريعة وهي الدين والنفس والمال والعرض والعقل. عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد" (4)
- أن يموت صابراً محتسباً بسبب أحد الأمراض الوبائية وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعضها مثل الطاعون: روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: "الطاعون شهادة لكل مسلم" (5)
و السل: روى راشد بن حبيش قال، قال رسول الله - ﷺ -: "قتل المسلم شهادة والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة والسل شهادة" (6) "وداء البطن: روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله - ﷺ -: "ومن مات في البطن فهو شهيد" (7)

الوسائل التي جعلها الله سبباً في حسن الخاتمة :

- تقوى الله في السر والعلن والتمسك بما جاء به النبي - ﷺ - فهو سبيل النجاة، قال - تعالى -: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [سورة آل عمران آية 102]. وأن يحذر العبد من الذنوب أشد

¹ (رواه مسلم وأحمد

² (مسلم برقم 1206].

³ (رواه أحمد 391/5].

⁴ (رواه أبو داود برقم 4772 والترمذي برقم 1418 و 1421].

⁵ (رواه أبو داود برقم 4772 والترمذي برقم 1418 و 1421].

⁶ (رواه أحمد 289/3].

⁷ (رواه مسلم برقم 1915].

الحذر فإن الكبائر موبقات وإن الصغائر مع الإصرار تتحول إلى كبائر وكثرة الصغائر مع عدم التوبة والاستغفار ران على القلب. قال - صلى الله عليه وسلم -: "إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه⁽¹⁾"

-المداومة على ذكر الله فمن داوم على ذكر الله وختم به جميع أعماله، وكان آخر ما يقول من الدنيا لا إله إلا الله نال بشارة النبي - ﷺ - حيث قال: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"⁽²⁾

وروى سعيد بن منصور عن الحسن قال: سئل النبي - ﷺ -: أي الأعمال أفضل؟ قال: "أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله"⁽³⁾.
ورحم الله الحسن البصري حين قال: "المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن؛ كيف يأمن المؤمن وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء ثبتته وإن شاء قلبه كما صح في الخبر؛ ولهذا كان ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يكثّر من قول: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"؛ "اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك".

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "فالخواتيم ميراث السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق.

وقد قيل إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟

ويحكي أن بعض الصحابة خاف عند موته، فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين، فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، ولا أدري في أي القبضتين كنت".
ولكن كيف نأمن سوء الخاتمة وقد ختم بها لبعض من بايع الرسول صلى الله عليه وسلم وجاهد في سبيل الله وأبلى في الجهاد؟

⁽¹⁾ [رواه احمد 331/5].

⁽²⁾ [أبو داود 3116 والحاكم 351/1 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

⁽³⁾ [المغني لابن قدامة 450/2]

فذو الخويصرة التميمي وهو الحرقوص السعدي، قال عنه ابن الأثير في "أسد الغابة في تمييز الصحابة": (من الصحابة، ذكره الطبراني وقال: إن الهرمزان الفارسي، كفر ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد، وكثر جمعه، فكتب عتبة بن غزوان إلى عمر رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر يأمره بقصده، وأمر المسلمين بحرقوص بن زهير وكانت له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره بالقتال، فاقتتل المسلمون والهرمزان، فانهزم الهرمزان، وفتح الحرقوص سوق الأهواز ونزل بها، وله أثر كبير في قتال الهرمزان؛ وبقي حرقوص إلى أيام علي رضي الله عنه، وكان مع الخوارج لما قاتلهم علي، فقتل حرقوص يومئذ سنة سبع وثلاثين. هذا الرجل خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولذلك ختم له بسوء، لما سبق له في الكتاب الأول، فهو الذي:

... {بال في مسجد رسول الله ﷺ.

... {وهو الرادّ على الرسول ﷺ قوله وهو يقسم: اعدل؛ فقال رسول الله ﷺ: "ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل؟"

... {وهو الذي خاصم الزبير في شراج الحرة، وقال: إن كان ابن عمتك؛ فأمر النبي ﷺ الزبير باستيفاء حقه.

... {وهو الذي خرج على عليّ فيمن خرج، وفجر، وقاتله قتالاً شديداً.

... {وهو من القوم الذين قال فيهم الرسول ﷺ: "ينكر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية"، وفي رواية: "ثم لا يعودون."

... {وهو الذي قتله أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، واستبشر عندما وجده بين القتلى مع أهل النهروان.

هذه الفعال هي التي أوردت هذا الرجل موارد الهلاك، وجعلت ربنا سبحانه و تعالى يحكم عليه بما ختم له به، وما ربك بظلام للعبيد.

من قصص السلف في حسن الخاتمة

فمجاهد بن جبر رضي الله عنه مات وهو ساجد.

ولما احتضر حذيفة رضي الله عنه قال: اللهم إني أعوذ بك من صباح إلى النار، لا أفلح من ندم، مرحباً بالموت حبيب جاء على فاقة

وكذلك بلال رضي الله عنه، لما احتضر كان يقول: غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه؛ فلما بكت زوجته وقالت: وابلالاه! واحزنناه! قال لها: وفرحاه!

وسروراه.

وخيثمة بن عبد الرحمن ، دخلت عليه امرأته وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟! الموت لأبد منه.

فقالت: الرجال بعدك عليّ حرام، فقال: ما كل هذا أريد منك -ما كنت أريد منك كل هذا الشيء- إنما كنت أخاف رجلاً واحداً، وهو أخي فلان- حيث كان له أخ، يقول: أخشى أن يتزوجك بعدي، وكان رجلاً فاسداً يتناول الخمر- فكرهت أن يشرب في بيتي الشراب، بعد إذ كان يتلى فيه القرآن فهو يقول: بعد أن كنت أختم القرآن في كل ثلاثة أيام مرة، يشرب أخي الخمر في بيتي: هذا الذي كنت أخشاه.

ومالك بن دينار لما حضره الموت قال: لولا أنني أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد من قبلي من الأنبياء والصالحين؛ لأوصيت أهلي إذا مت أن يقيدوني ويجمعوا يديّ إلى عنقي، فينطلقوا بي على تلك الحال، فإني عبد آبق من مولاه يقول: لا أريد أن ابتدع في الدين وإلا أنا أتمنى أن تربط يدي إلى عنقي ويفعلون بي فعلهم بالأسير العبد الذي هرب من مواليه فأمسكوا به؛ لعل الله عز وجل أن يراني على تلك الحالة فيرحمني.

وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: اخرجوا فلا يبقى عندي أحد، فخرج من كان عنده وجلسوا عند الباب يستمعون، فسمعه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جن، ثم قال: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83] ثم مات رحمه الله.

و آدم بن أبي إياس ختم القرآن وهو مسجى على سريرته ثم قال: " يا رب، بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت أوملك لهذا اليوم، ثم قال: لا إله إلا الله ثم لفظ روحه ".

والإمام أحمد قال لولده عبد الله : " جنني بالحديث عن طاوس ، أنه كان يكره الأنين -هات الحديث- فجاء ابنه وقرأ عليه الحديث عن طاوس : أنه كان يكره الأنين -يكره أن المريض يئن- فقرأه عليه فلم يئن الإمام أحمد إلا في الليلة التي توفي فيها.

يقول ابنه عبد الله : كان يغمى عليه ثم يفيق، فإذا أغمي عليه فتح عينيه، ثم قال بيديه هكذا: لا بعدُ بعدُ، قال: ففي المرة الثالثة قلت: يا أبه ما هذا، إنني أراك تحرك يدك وتقول: لا بعدُ بعدُ، قد لهجت بهذا الكلام ولا أدري له معنى، فقال الإمام أحمد : إبليس -لعنه الله- قائم بحذائي عاض على أنامله، يقول: يا

أحمد فتني يا أحمد ، فتّني، فتّ علي فأقول له: لا بعدُ بعدُ حتى أموت " يعني ما دام الروح في الجسد، فلا زال هناك خوف من كيد الشيطان.

ولما احتضر أبو الوقت السجزي رحمه الله، أسنده بعض تلاميذه إلى صدره، فقال: { قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ }

[يس:26-27]

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة قال: " يادنيا ما أطيبك، إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا منك لفي غرور " ثم أنشأ يقول: إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب .

ومحمد بن واسع رحمه الله، كان عنده قوم جلوس وقوم قيام، فقال: ما يغني عني هؤلاء إذا أخذ بناصيتي وقدمي وألقيت في النار، ثم تلا قول الله عز وجل: { يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ }

[الرحمن:41]

أوتروا لي قوسي

وقيل إن إبراهيم غزا في البحر مع أصحابه، فاختلف في الليلة التي مات فيها إلى الخلاء خمساً وعشرين مرة، كلّ مرة يجدد الوضوء، فلما أحسّ بالموت قال: أوتروا لي قوسي، وقبض على قوسه، فتوفي وهو في يده، فدفن في جزيرة في البحر في بلاد الروم(1).

لا حتى أموت

عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: لما حضرت أبي الوفاة فجلست عنده والخرقة بيدي أشد بها لحية، قال: فجعل يغرق ثم يفيق ويفتح عينيه ويقول: بيده هكذا لا بعد لا بعد لا بعد، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبة إيش هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟! فقال: يا بني أما تدري؟! قلت: لا، فقال: إبليس لعنه الله قائم بحدائي عاض على أنامله يقول: يا أحمد فتّني! فأقول: لا حتى أموت.

كيف أصبحت ؟

وحدث المزني وهو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله جل ذكره وارداً، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيتها ثم بكى وأنشأ يقول:

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاضمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تنزل ... تجود وتعفو منة وتكرماً
فلولاك لم يقدر إبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدماء؟
هذه نعم الله

قال أبو بكر العطار يقول حضرت الجنيد أبا القاسم عند الموت في جماعة
من أصحابنا قال وكان قاعدا يصلي ويثني رجله إذا أراد أن يسجد فلم يزل
كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقلت عليه حركتها فمد رجله فرآه بعض
أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت يقال له البسامي وكانت رجلاً أبي القاسم
تورمها فقال ما هذا يا أبا القاسم قال هذه نعم الله أكبر فلما فرغ من صلاته
قال له أبو محمد الجريري يا أبا القاسم لو اضطجعت فقال يا أبا محمد هذا وقت
منة الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله قال الشيخ كان الجنيد
رحمه الله ممن أحكم علم الشريعة فكان عنده اقتباس آثار الزريعة وقبوله
المدرجة البديعة وكان القيام بحقائق الآثار يدفعه عن الرواية والآثار . (1)
ارفق بنفسك!

وقال أبو محمد الجريري: " كنت واقفاً علي رأس الجنيد وقت وفاته - وكان
يوم جمعة - وهو يقرأ، فقلت: " ارفق بنفسك! " فقال: " ما رأيت أحداً
أحوج إليه مني في هذا الوقت، هو ذا تطوي صديقتي " .

اعذرنى! فإني كنت في وردي

وقال ابن عطاء: " دخلت عليه، وهو في النزاع، فسلمت عليه، فلم يرد، ثم رد
بعد ساعة، وقال: " اعذرنى! فإني كنت في وردي " ، ثم حول وجهه إلي
القبلة ومات " .

الرزق :

الرزق لغة: كل ما ينتفع به من المال أو الجاه أو السلطان أو الصحة أو الملبس أو المسكن أو الذرية أو العلم. ويشمل العطاء الدنيوي والأخروي. والأرزاق نوعان: أرزاق ظاهرة للأبدان "كالأقوات" وأرزاق باطنة للقلوب والنفوس "كالمعارف والعلوم.

واصطلاحاً: الرزق يتسع ليضم كل ما يتغذى به سواء كان حراماً أم حلالاً وهذا ما يقول به أهل السنة. كما ورد في عبارة الباقلاني التالية: "فإن قالوا: أفَتَقُولُونَ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ الحلالَ والحرامَ ؟ قيل لهم: أجل ، فقد دل على ذلك بقوله: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميّتكم ثم يحييكم} الروم: 40 ، فلما كان منفرداً بالخلق والإماتة والاحياء كان منفرداً بتولى الأرزاق ، فإن قيل: ما معنى قولكم إن الله يرزق الحرام ؟ قيل لهم: تأويل ذلك أن يجعله غذاء للأبدان ، وقواماً للأجسام ، لا على معنى التملك والاباحة لتناوله ، لأن ذلك مما قد أجمع المسلمون على خلافه .

ويرى أهل السنة أن كل ما أكله الإنسان أو شربه فهو رزقه حلالاً أو حراماً لا يتعداه ، فلا يأكل أحد رزق غيره ، ولا يأكل غيره رزقه. أما الرزاق: فهو من غلبت نعمه شكر العباد، ولا يصح إطلاقه إلا على الله سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22].
قال الله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: 60].

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: 212].
قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37].
قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الأنفال: 2 - 3].

قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: 31].

قال الله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد: 26]

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [النحل: 71].

قال الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: 75].

قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} [الإسراء: 30 - 31].

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 17].

قال الله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: 62 - 63].

قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الروم: 37].

قال الله تعالى: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: 15].

قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: 36 - 37].

قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: 39].

قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الزمر: 52].

قال الله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الشورى: 12].

قال الله تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى: 19 - 20].

قال الله تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى: 27 - 28].

قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبا: 24].

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِّي تُؤْفَكُونَ} [فاطر: 3].

قال الله تعالى: {أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} [المالك: 21].

قال الله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132].

قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: 58].

قال الله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 17].

قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} [الأحزاب: 31].

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: 13 - 14].

قال الله تعالى: { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ

الْخُرُوجُ} [ق: 9 - 11].

قال الله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 11].

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه : أن النبي - ﷺ - قال : «اثنتان يكرههما ابن آدم ، الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب»⁽¹⁾

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه ، كما يدركه الموت⁽²⁾
وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : «الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله»⁽³⁾
وعنه رضي الله عنه : قال رسول الله - ﷺ - : إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله⁽⁴⁾

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبى الله أن يجعل أرزاق عباده المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون " ⁽⁵⁾.
وقال عليه السلام: " ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا ينال ما عنده بما يكره، اتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حرم " ⁽⁶⁾.
وقال عليه السلام لعبد الله بن مسعود: " لا تكثر همّك يا عبد الله، ما يقدر يكن، وما ترزق يأتك " ⁽⁷⁾.
قال الشاعر:

فإنك ما يقدر لك الله تلقه ... كفاحاً وتجلبه عليك الجوالب

(1) أحمد (23647) ، تعليق شعيب الأرئوط "إسناده جيد" ، تعليق الألباني "صحيح" ، صحيح الجامع (139) ، الصحيحة (813)

(2) حلية الأولياء (7 / 90) ، تعليق الألباني "حسن" ، صحيح الجامع (5240)

(3) مسند الشاميين (560) ، تعليق الألباني "حسن" ، صحيح الجامع 1630.

(4) ابن حبان (3227) تعليق الألباني "صحيح لغيره" ، تعليق شعيب الأرئوط "حديث قوي

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (74/2 ، رقم 1197) .

(6) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج 8 / ص 166 حديث رقم: 7694

(7) (البيهقي في القدر ، والديلمي ، وابن النجار عن ابن مسعود . وعبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد ، والخرائطي ، وابن أبي الدنيا في ... ، وأبو نعيم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر عن مالك عن عبادة الغافقي . البغوي ، وابن قانع ، وابن أبي الدنيا في ... ، وأبو نعيم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن أبي رافع ، وقال البغوي : لا أعلم له غيره ولا أدري له صحبة أم لا)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " (1). وأنشد ابن أبي الدنيا:

ومن ظنَّ أنَّ الرِّزْقَ يأتي بحيلةٍ ... فقد كذَّبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لا ينام عن السُّرى ... وآخر يأتي رزقه وهو نائم
فما الفقر في ضعف احتيالٍ ولا الغنى ... بكذِّ وللأرزاق في النَّاسِ قاسم
سأصبر إن دهرٌ أناخ بكلِّ ... وأرضى بحكم الله ما الله حاكم
لقد عشت في ضيق من الدهر مدَّة ... وفي سعةٍ والعرض مني سالم
وقال جعفر بن محمد: إني لأملق فأتاجر الله بالصدقة فأربح.
وقال عروة بن الزبير: العاقل من إذا رزق ما لا نظر فيه، فإنه لا يدري لعله يكون آخر رزقه.

ومما يروي لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه نظر:
لو كان صخرة في البحر راسيةً ... صمّاء مملومةً ملسٍ نواحيها
رزقٌ لعبدٍ يراه الله لانفلقت ... حتّى يؤدّي إليه كلُّ ما فيها
أو كان تحت طباق السَّبْعِ مطلبها ... لسهّل الله في المرقى مراقبها
حتّى تؤدّي الذي في اللّوح خطّه ... إن هي أتته وإلاّ سوف يأتيها
وأنشد ابن الأعرابي:

الحمد لله ليس الرِّزْقُ بالطلب ... ولا العطايا لذي عقلٍ ولا أدب
إن قدّر الله شيئاً أنت طالبه ... يوماً وجدت إليه أقرب السبب
وإن أبى الله ما تهوى فلا طلب ... يجدي عليك ولو حاولت من كذب
وقد أقول لنفسي وهي ضيقةٌ ... وقد أناخ عليها الدهر بالعجب
صبراً على ضيقة الأيام إن لها ... فتحاً وما الصَّبْرُ إلّا عند ذي الأدب
سيفتح الله أبواب العطاء بما ... فيه لنفسك راحاتٌ من التعب
ولو يكون كلامي حين أنشره ... من اللّجين لكان الصّمّت من ذهب
وقيل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم؟
قال: كما قسّم بينهم أرزاقهم.
ولسريع بن يونس المحدث:
يا طالب الرِّزْقِ في الآفاق مجتهداً ... أتعبت نفسك حتّى شَفَكَ التعب
تسعى لرزق كفاك الله مؤنته ... أقصر فرزقك لا يأتي به الطلب

1 (أخرجه أبو نعيم في الحلية (27/10). وأخرجه أيضاً : القضاعى فى مسند الشهاب (185/2) ، رقم (1151). تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : 2085 فى صحيح الجامع .

كم من سخيْفٍ ضعيفِ العقلِ نعرفه ... له الولاية والأرزاق والذهب
ومن حصيفٍ له عقلٌ ومعرفةٌ ... بادي الخصاصة لم يعرف له نشب
فاسترزق الله مما في خزائنه ... فالله يرزق لا عقل ولا حسب
وقال آخر:

كم من قويٍّ قويٍّ في قلبه ... مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
وكم ضعيفٍ ضعيف الرأي تبصره ... كانه من خليج البحر يغترف
أنشد أبو حاتم عن الأصمعي:

يا أيُّها المضمِر هماً لا تهم ... إنك إن تقدر لك الحمى تحم
ولو علوت شاهقاً من العلم ... كيف توقّيك وقد جفّ القلم
قالوا: المقادير تبطل التقدير، وتنقض التدبير.

قال الشاعر:

إذا عقد القضاء عليك عقداً ... فليس يحلّه إلا القضاء
وقال ابن المعتز:

يا مكلّ العيس في ديمومة ... يتبع الآمال كالباعي المضلّ
إنّ مفتاح الذي تطلبه ... بيد المقدار فاصبر واتكل
فرغ الله من الرزق ومن ... مدّة العمر ومن وقت الأجل
وقال أبو العتاهية:

وفدت إلى الله في وفده ... لألتمس الرزق من عنده
إذا ما قضى الله أمراً مضى ... ولم يقو حيٌّ على رده
قال أبو هريرة: إذا سأل أحدكم الله الرزق فليُنظر كيف يسأل، فإن الله يرزق
الحلال والحرام، ولكن ليقلّ اللهم أرزقني ما ينفعني ولا يضرني.
قالوا: الرزق رزقان رزق لا يأتيك إلا بالتسبّب ورزق يأتيك به الله من حيث لا
تحتسب. وقلت أنا الرزق رزقان. فرزق تطلبه، ورزق يأتيك عفواً.
قال عروة بن أذينة أو بكر بن أذينة، وهو الصحيح:

إنّي لأعلم والأقدار نافذة ... أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلبه ... ولو قعدت أتاني لا يعييني

وقال آخر:

توكّل على الرحمن في كلّ حاجة ... ولا تؤثرن العجز يوماً على الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ... إليك فهزّي الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّها ... جنته ولكن كلّ شيء له سبب
وقال آخر:

ما يغلق الله باب الرِّزْق عن أحدٍ ... إلّا سيفتح دون الباب أبواباً
وقال بكر بن حماد:

النَّاسُ حرصى على الدُّنيا وقد فسدت ... فصفوها لك ممزوج بتقدير
فمن مكبٍ عليها لا تساعده ... وعاجزٍ نال دنياه بتقصير
لم يدركوها بعقلٍ عندما قسمت ... وإنما أدركوها بالمقادير
لو كان عن قدرةٍ أو عن مغالبةٍ ... طار البزاة بأرزاق العصافير
وقال آخر:

قد يرزق المرء لم تتعب رواحله ... ويحرم الرِّزْق من لم يؤت من تعب
وإنني واجدٌ في النَّاسِ واحدةً ... الرِّزْقُ أروغ شيءٍ عن ذوي الأدب
ولعلي بن هشام:

المرء يسعى ويسعى الرِّزْق يطلبه ... وربّما اختلفا في السَّعي والطلب
حتّى إذا قدَّر الرَّحْمَنُ جمعهما ... للإتِّفاق أتاكَ الرزق عن كُثْب
وقال آخر:

يخيب الفتى من حيث يرزق غيره ... ويعطى الفتى من حيث يحرم صاحبه
قال بعض الحكماء: الحلال يقطر قطراً والحرام يسيل سيلاً.
قال الغزال:

طالب الرِّزْق الحلال لا يقر ... نهاره وليله على سفر
في الحرِّ والبرد وأوقات المطر ... وماله في ذاك نزرٌ محتقر
إنَّ الحلال وحده لا يختمر ... أين ترى مالاً حلالاً قد ثمر
ما إن رأينا صافياً منه كثر
قال الناشئ:

إذا المرء أحمى نفسه كلَّ شهوةٍ ... لصحّة أيامٍ تبید وتنفد
فما باله لا يحتمي عن حرامها ... لصحّة ما يبقى له ويخلد
وقال آخر:

إنَّ الحرام غزيرةٌ حلباته ... ووجدت حالبة الحلال نزورا
قال أكثم بن صيفي: من فاته الرزق فبالعاقبة ظفر.
قال منصور الفقيه:

أرزاقنا مقسومةٌ وهكذا آجالنا ... فما تحول بيننا وبينها أحوالنا
وله أيضاً:

ما ضيَّع الله خلقاً ... فأتَّقِ أن أضيعا
الله يرزق من لا ... يطيعه والمطيعا

فاجعل سكوتك لله ... ونجواك جميعا
وكلُّ بؤسى ونعمي ... سيفنيان سريعا
وقال آخر:

يا ربِّما جاءني مالا أو مِله ... وربِّما خاب مأمولٌ ومنتظر
لو زاد في الرزق حرصٌ أو مطالبةٌ ... ما كان من قد يطيل الكدَّ يفتقر

وعن ابن السماك قال: لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض،
وكن اليوم مشغولاً بما أنت عنه غداً مسؤول، وإياك والفضول فإن حسابها
طويل.

وقال عمرو بن عتبة: من لم يقدِّمه الحزم أخره العجز.
وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان فإن الكريم
محتال والدنيّ عيَّال، وقال:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيشٍ بدونٍ ولا تنم ... وكيف ينام الليل من كان معسرا
وتقول العرب: كلب جوال خير من أسد رابض. وتقول أيضاً: من غلى دماغه
صائفاً غلت قدره شاتياً.

قيل: ووجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة فيه مكتوب: كن لما
لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى، عليه السلام، خرج يقتبس ناراً
فنودي بالنبوة. وأنشد:

ولما أن عييت بما ألقى ... وأعيتني المسائل والقروض
ذكرت الله لا أرجو سواه ... وربُّ العرش ذو فرجٍ عريض⁽¹⁾.

ومن المواقف :

الرزق على قدر النفقة

قال محمد بن عمر الواقدي : أوصلت إلى أمير المؤمنين رقعة أشكو فيها غلبة
الدين وحالا قد دفعت إليها، فوقع على ظهر رقعتي: فيك يا شيخ خلطان:
الحياء والسخاء، أما السخاء فهو الذي أخرج ما في يدك، وأما الحياء فهو
الذي قطعك عن إطلاعنا على حالك، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كانت
فيها بلغة فذاك، وإن يكن غير ذلك فهذه ثمرة ما جنيت على نفسك، فأنت

حدثتني وأنت قاض لأبي الرشيد، عن محمد بن إسحاق الزهري، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن مفاتيح الرزق متوجهة نحو العرش فينزل الله عز وجل على الناس أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قل قل له ". قال الواقدي: فكنت أنسيت هذا الحديث حتى حدثني به المأمون فكان أحظى عندي من الصلة.

فرزق الله مضمون، سيأتيك

وأمسينا ليلة مع إبراهيم وليس لنا شيء نفطر عليه، فرآني حزينا فقال: يا ابن بشر، ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة، ولا حج، ولا صدقة، ولا صلة رحم، لا تغنم، فرزق الله مضمون، سيأتيك. نحن والله الملوك الأغنياء، نحن والله الذين تعجلنا الراحة، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله. ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتي، فما لبثنا إلا ساعة، فإذا برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير، فوضعه، فقال: كل يا مغموم، فدخل سائل فقال: أطعمونا فدفع إليه ثلاثة أرغفة مع تمر، وأعطاني ثلاثة وأكل رغيقين (1).

الطعام كان من غيب الله

قليل اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم عند أحمد بن حنبل يتذكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي مم تضحك يا أبا عبد الله قال خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعي فما سببه قال أحمد قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكي الرائحة فقال يا أحمد بن حنبل فقلنا لبيك فقال هاكم خذوا هذا فسلم إلينا زنبيلاً أبيض وعليه منديل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له فقال الشافعي يا أبا عبد الله فما في الزنبيل والطبق فقال عشرون رغيفاً قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكي من المسك ما رأى الرأعون مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضع بين أيديهم فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك

الطعام ما أحتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا تحتسب رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم.(1)

يا هذا لا تعد إلينا فتفسد على الله قلوبنا

وأتى رجل إلى شقيق البلخي يطلبه فقال امرأته: قد خرج إلى الجهاد. فقال: وما خلف عليكم؟ فقال: أرزاق شقيق أو مرزوق؟ فقال: بل مرزوق. فقالت: إن المرزوق خلف علينا الرزق، يا هذا لا تعد إلينا فتفسد على الله قلوبنا.

خمسا في خمس

وقال شقيق البلخي طلبنا خمسا فوجدناها في خمس طلبنا النور في القبر فوجدناه في قيام الليل وطلبنا جواب منكر ونكير فوجدناه في قراءة القرآن وطلبنا الجواز على الصراط فوجدناه في الصدقة وطلبنا الري يوم القيامة فوجدناه في صيام النهار وطلبنا البركة في الرزق فوجدناه في صلاة الضحى..

من شك في رزقه شك في خالقه

وصلى معروف الكرخي خلف إمام فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف من أين تأكل قال أصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك قال ولم قال لأن من شك في رزقه شك في خالقه.

على أي شيء بنيت أمرك؟

وروى الخطيب بسنده إلى الحسن بن علي العابد، أنه قال: سمعت حاتماً الأصم، وقد سأله سائل: على أي شيء بنيت أمرك؟ فقال: على أربع خصال، على أن لا أخرج من الدنيا حتى أستكمل رزقي، وعلى أن رزقي لا يأكله غيري، وعلى أن أجلي لا أدري متى هو، وعلى أنني لا أغيب عن الله تعالى طرفة عين.

نعم الزاد زادك يا حاتم

وقال له رجل: بلغني أنك تجوز المفاوز من غير زاد. فقال حاتم: بل أجوزها بالزاد، وإنما زادي فيها أربعة أشياء. قال: وما هي؟ قال: أرى الدنيا كلها ملكاً لله، وأرى الخلق كلهم عباد الله وعياله، وأرى الأسباب والأرزاق كلها بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض.

فقال له الرجل: نعم الزاد زادك يا حاتم، أنت تجوز به مفاوز الآخرة، فكيف مفاوز الدنيا!!

ما الذي تعلمت مني منذ صحبتني؟

وروي أن شقيقا البلخي قال لحاتم الأصم: ما الذي تعلمت مني منذ صحبتني؟ قال: ستة أشياء: الأول، رأيت الناس كلهم في شك من أمر الرزق، فتوكلت على الله تعالى، لقوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) فعلمت أني من جملة الدواب فلم أشغل نفسي بشيءٍ قد تكفل لي به ربي. قال: أحسنت.

والثاني، رأيت أن لكل إنسان صديقاً يفئ إليه بسرّه، ويشكو إليه امره، فاتخذت لي صديقاً يكون لي بعد الموت، وهو فعل الخير، فصادقته ليكون عوناً لي عند الحساب، ويجوز معي على الصراط، ويثبتني بين يدي الله تعالى. قال: أحسنت.

والثالث، رأيت لكل أحدٍ من الناس عدواً، فقلت: أنظر من عدوي، فرأيت من اغتابني أو أخذ من مالي أو ظلمني فليس عدوي، ولكن عدوي إذا كنت في طاعة الله تعالى أمرني بمعصيته، فرأيت أن ذلك إبليس اللعين وجنوده، فاتخذتهم أعداء، ووضعت الحرب بيني وبينهم، ووترت قوسي، وفوقت سهمي، ولا أدع أحداً منهم يقربني. قال: أحسنت.

والرابع، رأيت كل واحدٍ من الناس له طالب، فرأيت أن ذلك الطالب ملك الموت، ففرغت نفسي له، حتى إذا جاء بادرت معه بلا علاقة. قال: أحسنت. والخامس، نظرت في الخلق، فأحببت واحداً وأبغضت واحداً، فالذي أحببته لم يعطيني شيئاً، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئاً، فقلت: من أين أتيت؟ فنظرت، فإذا هو الحسد، فنفيته عني، وأحببت الناس كلهم، فكل شيءٍ لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم. قال: أحسنت.

والسادس، رأيت كل واحدٍ من الناس له بيت يسكنه ويأوي إليه، فرأيت مسكني القبر، فكل شيءٍ قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي، حتى أعمر قبري، فإن القبر إذا كان خراباً لا يمكن المقام فيه. فقال له شقيق: يكفيك، ولست بمحتاج إلى غيره.⁽¹⁾

¹ (الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، ص 212

يا أبا عبد الرحمن، خذ هذا الخبز

وقال حاتم: وقع الثلج ببلخ فمكثت في بيت ثلاثة ومعى أصحابي فقلت: يخبرني كل رجل منكم بهمته؛ قال: فأخبروني فإذا ليس فيهم أحد لا يريد إلا أن يتوب من تلك الهمة؛ قال: فقالوا لي: همتك أنت يا أبا عبد الرحمن، قال: قلت: ما همتي إلا شفقة على إنسان يريد أن يحمل رزقي في هذا الطين؛ قال: وإذا رجل قد جاء ومعه جراب خبز وقد زلق فابتلت ثيابه بطين، وقال: يا أبا عبد الرحمن، خذ هذا الخبز.⁽¹⁾

آثار المعاصي والذنوب :

المعصية لغة: الخروج عن الطاعة ومخالفة الأمر. واصطلاحاً: ما يثاب على تركه ويعاقب على فعله ، ويرادفها: المحذور والحرام والذنب . ، وإذا كانت المعصية عبارة عن مخالفة أمر الله وطاعته مما يوجب سخط الله تعالى ويتوجب العقاب فاعلم أنها تنتج عن مجموعة صفات في الإنسان كل منها يتعلق به أنواع من المعاصي تختلف عن الأنواع الأخرى وهذه الصفات هي:

- صفات ربوبية: ومنها يحدث الكبر والفخر، وحب المدح والثناء ، والعز، وطلب الإستعلاء ، ونحو ذلك ، وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها فلا يعدها ذنوباً.

- صفات شيطانية: ومنها يتشعب الحسد ، والبغى، والحيل ، والخداع ، والمكر والغش ، والنفاق ، والأمر بالفساد ، ونحو ذلك.

- صفات بهيمية: ومنها يتشعب الشر، والحرص على قضاء شهوات البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنا ، واللواط ، والسرقعة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

- صفات سبعية: ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة. فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان استعملت العقل في الصفات الشيطانية من المكر والخداع ، ثم تغلب الصفات الربوبية، فهذه أمهات المعاصي ومنابعها ، ثم تنفجر المعاصي من هذه المنابع إلى الجوارح ، فبعضها في القلب كالكفر، والبدعة والنفاق

وإضرار السوء، وبعضها في العين ، وبعضها في السمع ، وبعضها في اللسان ، وبعضها في البطن والفرج ، وبعضها في اليدين والرجلين ، وبعضها في جميع البدن ، وهذا كله واضح لا يحتاج إلى تفصيل. وقد اختلف الفقهاء في تصنيف الذنوب والمعاصي على ثلاثة أوجه: الأول: أنها تنقسم إلى صغائر وكبائر، وهو المشهور بين الفقهاء، ويساعدهم إطلاقات الكتاب والسنة، لقوله تعالى: " وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان " (الحجرات: 7) ، فجعل الفسوق وهو الكبائر تلي رتبة الكفر، وجعل الصغائر تلي رتبة الكبائر وقد خصص النبي ﷺ بعض الذنوب باسم الكبائر.

الثاني: أن الذنوب كلها قسم واحد وهو الكبائر، وهو طريقة جمع عند الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق ، ونفى الصغائر، وجرى عليه إمام الحرمين في الإرشاد، وابن فورك في كتابه "مشكل القرآن" فقال: المعاصي عندنا كبائر، وإنما يقال لبعضها: صغيرة بالنسبة إلى ما هو أكبر منها كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكلها كبائر.

الثالث: أن المعاصي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- كبيرة: كقتل النفس بغير حق.

- فاحشة: قتل ذا رحم.

- صغيرة: سائر الذنوب كالخدشة والضرب مرة أو مرتين.

ويظهر من هذه الأقوال أن الخلاف لفظي، فإن رتبة الكبائر تتفاوت قطعاً واختلف العلماء في تعريف الكبيرة اختلافاً كبيراً ، كذلك اختلفوا في حصرها وعدد أنواعها. لكن الصحيح كما قال الواحدى في البسيط: إنه ليس للكبائر حد يعرفه العباد، وتتميز به عن الصغائر تمييز إشارة، ولو عرف ذلك لكانت الصغائر مباحة، ولكن الله تعالى أخفى ذلك عن العباد ليجتهد كل واحد في اجتناب ما نهى عنه ، رجاء أن يكون مجتنباً للكبائر، ونظيره إخفاء الصلاة الوسطى في الصلوات ، وليلة القدر في رمضان. هل الإصرار على الصغائر يجعلها في منزلة الكبائر أم لا؟ نجد عند الأصوليين أن الإصرار له معنيان: أحدهما: العزم على فعل المعصية بعد الفراغ منها. والثاني: المداومة على فعل الصغائر.

وحكم الإصرار بالمعنى الأول حكم من كررها فعلا فيتحمل بذلك إثما، وحكم الإصرار بالمعنى الثانى أنه إن كان على نوع واحد من الصغائر غفرت بكثرة الطاعات، وإن كان الإصرار على أنواع متعددة لا تغفر بكثرة الطاعات بل لابد من التوبة عنها حتى تغفر.

أضرار المعاصي:

قال ابن القيم رحمه الله: ممّا ينبغي أن يعلم: أنّ الذّنوب والمعاصي تضرّ، ولا بدّ أنّ ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شرّ وداء إلّا بسبب الذّنوب والمعاصي؟ فما الذي أخرج الأبوين من الجنّة، دار اللذة والنّعمة والبهجة والسّرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السّماء وطرده ولغنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبذلّ بالقرب بعدا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحا، وبالجنّة نارا تلظى، وبالإيمان كفرا؟

وما الذي أغرق أهل الأرض كلّهم حتّى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذي سلط الرّيح على قوم عاد حتّى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنّهم أعجاز نخل خاوية، ودمّرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابّهم حتّى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصّيحة حتّى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع اللّوطيّة حتّى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثمّ قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعا؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظّل، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثمّ نقلت أرواحهم إلى جهنّم، والأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمّرها تدميرا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصّيحة حتّى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرا؟ .

وقال الله تعالى : " وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (البقرة: 61)

وقال الله تعالى : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (آل

عمران: 110-112)

وقال الله تعالى : " وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِأِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَ غَتُّمُ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران: 152)

وقال الله تعالى : " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (المائدة: 78)

وقال الله تعالى : " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (يونس: 90-92)

وقال الله تعالى : " وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُخَالِفُ بِهَا الْمُتَكِلِينَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخْتَلَفُ فِيهَا مِنْ دُونِ الظُّلُمِ وَالظُّلُمِ الْأَعْيُنِ وَمَا يَكْفُرُونَ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَغْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (هود: 59-60)

وقال الله تعالى : " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (طه: 117-121)

وقال الله تعالى : " وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (الحاقة: 9-10)

وقال الله تعالى : " إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (المزمل: 15-16)

وقال الله تعالى : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (النازعات: 15-26)

وقال الله تعالى : " فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (النساء: 41-42)

وقال الله تعالى : " وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَعِزَّ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الأنعام: 13-15)

وقال الله تعالى : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكَ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يونس: 13-15)

وقال الله تعالى : " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (الأحزاب: 36)

وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه (1) » .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج (2) » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله - ﷺ - : « يا عائشة ! إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبا (3) » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : عن النبي - ﷺ - قال : « لو غفر لكم ما تأتون (4) إلى البهائم لغفر لكم (5) كثيرا (6) » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه (7) » .

عن أرطاة بن المنذر عن أبي عامر الألهاني عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباء منثورا قال ثوبان يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم قال أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها (8) » .

¹ (سنن ابن ماجه المقدمة (90)، مسند أحمد بن حنبل (282/5) .

² (مسند أحمد بن حنبل (145/4) .

³ (ابن ماجه (4243) باب ذكر الذنوب ، تعليق الألباني " صحيح " ، ابن حبان (5542) تعليق شعيب الأرناؤوط " إسناده صحيح على شرط البخاري . " .

⁴ (ما تأتون البهائم : أي : من نحو ضرب وإجهاد وتحميل فوق طاقة .

⁵ (لغفر لكم كثير : أي : لغفر لكم شيء عظيم من الإثم .

⁶ (أحمد (27526) ، تعليق الألباني " حسن " ، صحيح الجامع (5274) ، الترغيب والترهيب (2476) ، الصحيحة (514) .

⁷ (المعجم الكبير (5872) ، واللفظ له ، أحمد (3818) ، تعليق الألباني " صحيح " ، صحيح الجامع (2686) ، الصحيحة (389) ، (3102) .

⁸ (أخرجه ابن ماجه (1418/2 ، رقم 4245) ، قال البوصيري (246/4) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات . والرويات .

(425/1 ، رقم 651) . وأخرجه أيضا : الطبراني في الأوسط (46/5 ، رقم 4632) ، وفي

الصغير (396/1 ، رقم 662) ، والديلمي (131/5 ، رقم 7715) .

و عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا ظَهَرَ
السُّوءُ فِي الْأَرْضِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَسْفَهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ " ، قَالَتْ : قُلْتُ : يَا
رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صَالِحُونَ
، يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ (1)

وقال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «لا تصحب الفجّار لتعلم من فجورهم،
واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين- ولا أمين إلا من خشي الله- وتخشع
عند القبور، وذلّ عند الطّاعة، واستعصم عند المعصية، واستشر الذين
يخشون الله.

وعن عمر- رضي الله عنه- قال: يا أهل مكّة اتّقوا الله في حرمكم هذا: أتدرون
من كان ساكن حرمكم هذا من قبلكم؟ كانوا فيه بنو فلان.
فأحلّوا حرمة فهلكوا، وبنو فلان فأحلّوا حرمة فهلكوا، حتّى عدّ ما شاء الله،
ثمّ قال: والله لأنّ أعمل عشر خطايا بغيره أحبّ إليّ من أعمل واحدة بمكّة.
وقال عمر- رضي الله عنه- يوما لأصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «فيم
ترون هذه الآية نزلت أيّودُ أحدكم أن تكون له جنّة؟ (البقرة/ 266) قالوا: الله
أعلم. فغضب عمر. فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عبّاس في نفسي
منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا بن أخي قل ولا تحقر نفسك.
قال ابن عبّاس: ضربت مثلا لعمل. قال عمر: أيّ عمل؟ قال ابن عبّاس: لعمل.
قال عمر: لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله- عزّ وجلّ- ثمّ بعث الله له الشّياطين
فعمل بالمعاصي حتّى أغرق أعماله.

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: توشك القرى أن تخرب وهي
عامرة. قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجّارها أبرارها، وساد
القبيلة منافقوها.

قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لفضيل بن زيد الرّقاشيّ قال: لا يلهيتك
النّاس عن ذات نفسك، فإنّ الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع النّهار بكيّ
وكيّ؛ فإنّه محفوظ عليك ما قلته، ولم تر شيئا أحسن طلبا، ولا أسرع إدراكا
من حسنة حديثه لذنب قديم.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: أقلّوا الذّنوب فإنكم لن تلقوا الله بشيء
أفضل من قلّة الذّنوب.

¹ (أخرجه أحمد (304/6 ، رقم 26638) ، والطبراني (325/23 ، رقم 747) . قال الهيثمي
(268/7) : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح .

قال رجل لابن عباس- رضي الله عنهما-: رأيت رجلا كثير الذنوب كثير العمل أو رجلا قليل الذنوب قليل العمل؟ قال ما أعدل بالسّلامة شيئا.

قال أبو أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- إنّ الرجل ليعمل الحسنة حتّى يأتي الله وقد حظر به، وإنّ الرجل ليعمل السيئة فيفرق منها حتّى يأتي الله آمنا. كتب أبو الدرداء إلى سلمة بن مخلد: أمّا بعد، فإنّ العبد إذا عمل بطاعة الله أحبّه الله، وإذا أحبّه الله حبّبه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه بغضه إلى خلقه.

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: ليحذر امرؤ أن تلغنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثمّ قال: تدري ممّ هذا؟ قلت: لا. قال: إنّ العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر. قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله تعالى اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ (آل عمران/ 102) قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا.

عن أبي الشعثاء- رضي الله عنه- قال: كنّا قعودا في المسجد مع أبي هريرة فأذن المؤذن، فقام رجل من المسجد يمشي. فأتبعه أبو هريرة بصره حتّى خرج من المسجد. فقال أبو هريرة: أمّا هذا فقد عصى أبا القاسم صلّى الله عليه وسلّم.

عن سعيد بن المسيّب- رضي الله عنه- قال: كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا، ومن عرّض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه.

قال كعب- رحمه الله-: «إنّما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقا من الرّبّ جلّ جلاله أن يطلّع عليها.

قال الحسن البصري- رحمه الله-: إنّ الرّجل يذنب الذّنوب فما ينساه وما يزال كئيبا حتّى يدخل الجنّة.

وقال أيضا: إنّ المؤمن لا يصبح إلّا خائفا ولا يصلحه إلّا ذاك، لأنّه بين ذنبيين؛
ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه وآجل أو قال آخر لا يدري ما كتب
عليه فيه.

وقال أيضا: اعملوا لله بالطّاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تردّ عليكم. إنّ
المؤمن جمع إيمانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.
سئل الحسن البصريّ - رحمه الله -:

ما برّ الوالدين؟ قال: أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به إلّا
أن يكون معصية.

قال الإمام عليّ زين العابدين:

ليس الغريب غريب الشّام واليمن ... إنّ الغريب غريب اللّحد والكفن
إنّ الغريب له حقّ لغربته ... على المقيمين في الأوطان والسّكن
لا تنهرنّ غريبا حال غربته ... الدّهر ينهره بالذلّ والمحن
سفري بعيد وزادي لن يبلغني ... وقوّتي ضعفت والموت يطلبني
ولي بقايا ذنوب لست أعلمها ... الله يعلمها في السرّ والعلن
ما أحلم الله عني حيث أمهلني ... وقد تماديت في ذنبي ويسترنني
وقال أيضا:

يا نفس كفي عن العصيان واكتسبي ... فعلا جميلا لعلّ الله يرحمني
يا نفس ويحك توبي واعلمي حسنا ... عسى تجازين بعد الموت بالحسن
عن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص فرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى
بعض فرأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في
يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟

فقال: ويحك يا جبير. ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره. بينما هي أمة
قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.
قال سفيان: «من أذنب ذنبا فعلم أنّ الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر
الله له ذنبه.

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة: «يقول الله عزّ وجلّ: «أنا الله
مالك الملوك. قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن
عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليّ
أعطفهم عليكم.

قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -

أيضمن لي فتى ترك المعاصي ... وأرهنه الكفالة بالخلاص

أطاع الله قوم فاستراحوا ... ولم يتجرّعوا غصص المعاصي
عن عبد الله بن المبارك، في ذكر شروط التوبة، قال: الندم، والعزم على عدم
العود، وردّ المظلمة وأداء ما ضيع من الفرائض، وأن يعمد إلى البدن الذي
ربّاه بالسّحت فيذيبه بالهمّ والحزن حتّى ينشأ له لحم طيّب، وأن يذيق نفسه
ألم الطّاعة، كما أذاقها لذّة المعصية.

عن عروة بن عامر- رحمه الله- قال:
المؤمن تعرض عليه ذنوبه يوم القيامة فيمرّ بالذنوب من ذنوبه يقول: أمّا إنّي
كنت منك مشفقاً فيغفر له.

قال طلق بن حبيب: التّقوى: العمل بطاعة الله رجاء رحمة الله، على نور من
الله، والتّقوى ترك معاصي الله، مخافة عقاب الله، على نور من الله.
قال مالك- رحمه الله-: «دخل عمر ابن عبد العزيز على فاطمة امرأته فطرح
عليها خلق ساج عليه، ثمّ ضرب على فخذاها فقال: يا فاطمة لنحن لياالي دابق
أنعم منّا اليوم ، فذكرها ما كانت نسيته من عيشها، فضربت يده ضربة فيها
عنف فنحتّها عنها وقالت: لعمرى لأنت اليوم أقدر منك يومئذ، فقام وهو يقول
بصوت حزين: يا فاطمة إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم. فبكت
فاطمة وقالت: اللّهمّ أعذه من النّار.

عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى بعض الأنبياء: إذا عصاني من
يعرفني سلّطت عليه من لا يعرفني.
قال ابن السّمّاك الواعظ:

يا مدمن الذّنوب أمّا تستحي ... والله في الخلوة ثانيكا؟
أغرّك من ربّك إمهاله ... وستره طول مساويكا؟
قال أبو عمران السّلميّ منشداً:

وإنّي لآتي الذّنوب أعرف قدره ... وأعلم أنّ الله يغفو ويغفر
لئن عظم النّاس الذّنوب فإنّها ... وإن عظمت في رحمة الله تصغر
عن العباس العميّ- رحمه الله- قال: «بلغني أنّ داود عليه السّلام قال:
سبحانك تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السّماوات
والأرض، فأقرب خلقك إليك أشدّهم لك خشية، وما علم من لم يخشك، وما
حكمة من لم يطع أمرك؟.

قال الشّافعي- رحمه الله:-

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا وربّي في القياس بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

قال محمود الورّاق:
هذا الدليل لمن أرا وأراد ... دغنى يدوم بغير مال
عزّا لم توطّ ... ده العشائر بالقتال
ومهابة من غير سل ... طان وجاها في الرجال
فليعتصم بدخوله ... في عزّ طاعة ذي الجلال
وخروجه من ذلّة العاصي له في كلّ حال
قال إبراهيم الألبيري:

ونفسك ذمّ لا تذمم سواها ... لعيب فهي أجدر من ذممتا
فأنت أحقّ بالتّفنيد منّي ... ولو كنت اللّبيب لما نطقنا
ولو بكت الدّما عيناك خوفا ... لذنبك لم أقل لك قد أمنتا
ومن لك بالأمان وأنت عبد ... أمرت فما انتمرت ولا أطعنا
ثقلت من الذّنوب ولست تخشى ... لجهلك أن تخفّ إذا وزنتا
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لفظ المعصية والفسوق والكفر إذا أطلقت
المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (الجن: 23) وقال تعالى: وَتِلْكَ
عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (هود:
59).

قال جمال الدّين الصّرصري:
أنا العبد الذي كسب الذنوبا ... وصدّته الأمانى أن يتوبا
أنا العبد الذي أضحى حزينا ... على زلّاته قلّقا كئيبا
أنا العبد الذي سطرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرّقيبا
أنا العبد المسيء عصيت سرّا ... فمالى الآن لا أبدي النّحيبا
قال ابن القيم- رحمه الله- من أعجب الأشياء أن تعرفه ثمّ لا تحبّه، وأن تسمع
داعيه ثمّ تتأخّر عنه الإجابة. وأن تعرف قدر الرّبح في معاملته ثمّ تعامل
غيره. وأن تعرف قدر غضبه ثمّ تتعرّض له. وأن تذوق ألم الوحشة في
معصيته ثمّ لا تطلب الأنس بطاعته. وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في
غير حديثه والحديث عنه ثمّ لا تشّاق إلى انشراح الصّدر بذكره ومناجاته.
وأن تذوق العذاب عند تعلّق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه
والإنابة إليه.

وقال- رحمه الله- مثال تولّد الطّاعة ونموّها وتزايدها كمثّل نواة غرستها فصارت شجرة ثمّ أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكّلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه وكذلك تداعي المعاصي، فليتدبّر اللبيب هذا المثال. قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله:-

قد ذكر غير واحد أنّ عروة بن الزّبير لما خرج من المدينة متوجّها إلى دمشق ليجتمع بالوليد، وقعت الأكلة في رجله في واد قرب المدينة كان مبدؤها هناك، فظنّ أنّها لا يكون منها ما كان، فذهب في وجهه ذلك، فما وصل إلى دمشق إلّا وهي قد أكلت نصف ساقه، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فاجتمعوا على أنّه إن لم يقطعها وإلّا أكلت رجله كلّها إلى وركه، وربّما ترقّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها، وقالوا: ألا نسقيك مرّقدا حتّى يذهب عقلك منه فلا تحسّ بألم النّشر؟ فقال: لا والله ما كنت أظنّ أحدا يشرب شرابا أو يأكل شيئا يذهب عقله، ولكن إن كنتم لا بدّ فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصّلاة، فإنّي لا أحسّ بذلك، ولا أشعر به. قال: فنشروا رجله من فوق الأكلة من المكان الحيّ، احتياطا أنّه لا يبقى منها شيء، وهو قائم يصليّ، فما تضرّور ولا اختلج، فلما انصرف من الصّلاة عزّاه الوليد في رجله، فقال: اللّهمّ لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت وإن كنت قد أبليت فلما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت، فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة، فبلغه أنّ بعض النّاس قال: إنّما أصابه ذلك بذنب عظيم أحدثه، فأنشد عروة في ذلك، والأبيات لمعن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفيّ لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أنّي لم تصبني مصيبة ... من الدّهر إلّا قد أصابت فتى مثلي
قال الأمير الصّنعاني:

القلب أعلم يا عدول بدائه ... ما غير داء الذّنب من أدوائه
والذّنب أولى ما بكاه أخو التّقى ... وأحقّ منك بجفنه وبمائه
فومن أحبّ لأعصينّ عواذلي ... قسما به في أرضه وسمائه
من ذا يلوم أخا الذّنوب إذا بكى ... إنّ الملامة فيه من أعدائه
قال الشّاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإنّ الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة ربّ العباد ... فربّ العباد سريع النّقم
وإيّاك والظّلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
وقال شاعر آخر:

اعتبر يأيّها المغرور بالعمر المديد
أنا شدّاد بن عاد ... صاحب الحصن المشيد
وأخو القوّة والبأ ... ساء والملك الحشيد
دان أهل الأرض طرّا ... لي من خوف وعيدي
وملكت الشّرق والغر ... ب بسلطان شديد
فأتى هود وكنا ... في ظلال قبل هود
فدعانا لو قبلنا ... هـ إلى الأمر الرّشيد
فعصيناه ونادى ... ما لكم هل من محيد؟
فأتتنا صيحة ته ... وي من الأفق البعيد
فمضينا كزروع ... وسط بيداء حصيد

وقال آخر:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويورثها الذلّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وقال آخر:

خلّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التّقى
واصنع كماش فوق أر ... ض الشّوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إنّ الجبال من الحصى.

وقال آخر:

أذنبت كلّ ذنوب لست أنكرها ... قد رجوتك يا ذا المنّ تغفرها
أرجوك تغفرها في الحشر يا سندي ... إذ كنت يا أملي في الأرض تسترّها
وقال آخر:

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوح حفيظ وتكتب
وقلبك في سهو ولهو وغفلة ... وأنت على الدّنيا حريص معذب
تباهي بجمع المال من غير حلّه ... وتسعى حثيثا في المعاصي وتذنب
أما تذكر الموت المفاجيك في غد ... أما أنت من بعد السّلامة تعطب

من مضار المعاصي

- حرمان العلم، فإنّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفأ ذلك النور.
- حرمان الرزق، فكما أنّ التقوى مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر.
- حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصدّ عن الطاعة لكان في ذلك كفاية من الحرمان.

- أنّ المعاصي توهن القلب والبدن.
- أنّ المعاصي تقصّر العمر، وتمحق البركة.
- أنّ المعاصي تزرع أمثالها، ويولّد بعضها بعضا.
- أنّ الذنوب تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا إلى أن تنسلخ من القلب إرادة التوبة بالكلية.
- أنّ كلّ معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله- عزّ وجلّ.

- أنّ المعصية سبب لهوان العبد على ربّه.
- أنّ غير المذنب من النّاس والدوابّ يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.
- أنّ العبد لا يزال يرتكب الذنب حتّى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك، فإنّ الذنب كلّما صغر في عين العبد عظم عند الله.
- أنّ المعصية تورث الذلّ، والعزّ كلّ العزّ في طاعة الله.
- أنّ المعاصي تفسد العقل، فإنّ للعقل نورا، والمعصية تطفأ نور العقل، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص.

- أنّ الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين، قال الله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (المطففين/ 14).
- أنّ الذنوب تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن، قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم/ 41).
- ذهاب الحياء الذي هو مادّة حياة القلب، وهو أصل كلّ خير وذهابه ذهاب الخير أجمعه، وقد صحّ عن النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الحياء خير كلّ» رواه البخاريّ ومسلم.

- أنّ الذنوب دليل ضعف إيمان العبد، وجرأته على ارتكاب المعاصي دليل على ظلمة قلبه، وانعدام بصيرته، وحرمانه من توقير ربّه سبحانه وتعالى واستشعار عظّمته.

- أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه.
- وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة.
- أن الذنوب تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي.
- أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ولا حلت به نعمة إلا بذنب، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة.»
- قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى / 30).
- وقوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال / 53)

ومن المواقف :

اللهم إنا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا

وذكر الإمام النووي رحمه الله في كتاب الأذكار عن يحيى القسائي عن بعض أهل الكتاب قال: أصاب الناس قحط في عهد داوود عليه السلام فاخترأوا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم، فقال أحدهم: اللهم إني أنزلت في توراتك أن نعفو عن ظلمنا، اللهم إنا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا.

وقال الثاني: اللهم إني أنزلت في توراتك أن نعق أرقاعنا، اللهم إنا أرقاؤك فاعتقنا. وقال الثالث: اللهم إني أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكين وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا ، فسقوا.

وكان إذا قيل لعيسى عليه السلام : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت لا أملك تقديم ما أرجوا ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتها بعملي والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني (أي إلى الله عز وجل صاحب الخير والغني)

ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا

قال شقيق بن إبراهيم: مر إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا أبا إسحاق إن الله يقول في كتابه: (ادعوني أستجب لكم) (غافر: 60) ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا، فقال إبراهيم: يا أهل البصرة، ماتت قلوبكم في عشرة أشياء، أولها: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه: والثاني: قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، والثالث: ادعيتم حب رسول الله عليه السلام وتركتم سنته، والرابع ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه، والخامس: قُلتُم نحب الجنة ولم تعملوا لها، والسادس: قُلتُم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها، والسابع قُلتُم إن الموت حق ولم تستعدوا له، والثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم، والتاسع: أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، والعاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم. (1)

اضرب رأساً طالما عصى الله

قال ابن الجوزي: كان إبراهيم بن أدهم يحفظ البساتين ، فجاءه يوماً جندي يطلب منه شيئاً من الفاكهة ، فأبى فضربه على رأسه بسوط ، فطأ إبراهيم له رأسه وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله فعرفه الجندي وأخذ في الاعتذار إليه فقال إبراهيم : الرأس الذي يليق له الاعتذار تركته ببلخ . (2)

ومنه يكون الفرح ، والمرح والضحك

لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً، وقال: قال محمد بن واسع: لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد.

ولعنتي تبلغ السابع من الولد

قال ابن القيم: ذكر الإمام أحمد عن وهب: أن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: " إني إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد " .

¹ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 1 / 45

² (بهاء الدين محمد بن حسين العاملي ، الكشكول ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الأولى 1418 هـ - 1998 م ، 1 / 8 ، 123 ، 2 / 164 ، 162

فلا تطفئه بالمعصية

قال له شيخه مالك بن انس رضي الله عنه إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية.

اتق الله واجتنب المعاصي

وقال الشافعي لما رحلت الى مالك فسمع كلامي نظر الي ساعة وكانت لمالك فإساسة فقال ما اسمك قلت محمد قال يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن فقلت نعم وكرامة فقال إذا كان غدا تجيء ويحيى من يقرأ لك الموطأ فقلت إني أقرأه ظاهراً فغدوت اليه وابتدأت فكلما تهيبت مالكا وأردت ان أقطع أعجبتة قراءتي وأغراني بقول زد يا فتى حتى قرأته عليه في ايام يسيرة ثم أقمت بالمدينة الى ان توفي مالك رضي اله عنه ثم ذكر خروجه إلى اليمن.

عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال : من ضبط بطنه ضبط دينه ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة ، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان ، والشبع يميت القلب ، ومنه يكون الفرح ، والمرح والضحك (1).

فقطعه ومات

قال: حدثنا الأوزاعي قال: كنا بالساحل فجيء بفحل لينزى على أمه، فأبى. فأدخلوها بيتاً، وألقوا على الباب سترأ، وجللواها بكساء. قال: فلما نزا عليها وفرغ شم ريح أمه. قال: فوضع أسنانه في أصل ذكره فقطعه ومات.(2)

¹ (محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، تحقيق : محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة : الثانية ، - 1423 هـ - 2002 م

، 90 / 2

² (ابن الكلبي ، أنساب الخيل ، 1 / 1

قيام الليل عبادة رغب فيها رسول الله ﷺ ، وامتدح الله تعالى أهلها ووعدهم الأجر العظيم، وهي أفضل الصلاة بعد صلاة الفريضة.
وقيام الليل سنة مؤكدة، وقربة معظمة في سائر العام، فقد تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحث عليه، والتوجيه إليه، والترغيب فيه، ببيان عظم شأنه وجزالة الثواب عليه، وأنه شأن أولياء الله، وخاصة من عباده الذين قال الله في مدحهم والثناء عليهم: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: 64].

فقد مدح الله أهل الإيمان والتقوى، بجميل الخصال وجليل الأعمال، ومن أخص ذلك قيام الليل، قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: 15 - 17]، ووصفهم في موضع آخر، بقوله: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} إلى أن قال: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: 64 - 75].

وفي ذلك من التنبيه على فضل قيام الليل، وكريم عائدته ما لا يخفى، وأنه من أسباب صرف عذاب جهنم، والفوز بالجنة، وما فيها من النعيم المقيم، وجوار الرب الكريم، جعلنا الله ممن فاز بذلك. قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: 54 - 55].

وقد وصف المتقين في سورة الذاريات، بجملة صفات - منها قيام الليل -، فازوا بها بفسيح الجنات، فقال سبحانه: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات: 15 - 17].

فصلاة الليل لها شأن عظيم في تثبيت الإيمان، والإعانة على جليل الأعمال، وما فيه صلاح الأحوال والمال قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} إلى قوله: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: 1-6].

وقال الحبيب محمد - ﷺ - قال: أفضل الصلاة بعد المكتوبة - يعني الفريضة - صلاة الليل ⁽¹⁾

وفي حديث عمرو بن عبسة قال - ﷺ - : أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن ⁽²⁾

ولأبي داود عنه - رضي الله عنه - قال: "أي الليل أسمع - يعني أخرى بإجابة الدعاء" - قال - ﷺ - : جوف الليل الآخر فصل ما شئت، فإن الصلاة فيه مشهودة مكتوبة ⁽³⁾

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر. فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟! من يسألني فأعطيه؟! من يستغفرني فأغفر له؟ ⁽⁴⁾

وفي صحيح مسلم، عن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه، وهي كل ليلة ⁽⁵⁾

وفي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي، - ﷺ - قال: ((من تعار من الليل - يعني استيقظ يلهج بذكر الله - فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له. فإن توضأ وصلى قبلت صلاته. وأخرج الإمام أحمد، وغيره عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : ((إن في الجنة غرفاً، يرى ظاهرها من باطنها،

¹ (رواه مسلم في الصحيح عن زهير بن حرب عن جرير وخالفهم في إسناده عبيد الله بن عمرو الرقي فرواه 8197\ والبيهقي في سننه الكبرى ج 4 / ص 291 حديث رقم: 8206

² (أخرجه الترمذي (569/5 ، رقم 3579) ، وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم (453/1) ، رقم 1162) وقال : صحيح على شرط مسلم . وأخرجه أيضاً : ابن خزيمة (182/2) ، رقم 1147) ، والبيهقي (4/3 ، رقم 4439) . قال المناوي (69/2) : قال الحاكم على شرط مسلم ، وأقره الذهبي ، وصححه الترمذي والبعثي .

³ (أخرجه أبو داود في سننه ج 2 / ص 25 حديث رقم: 1277 ، قال الألباني : صحيح .

⁴ (أخرجه مالك (214/1 ، رقم 498) ، والبخاري (384/1 ، رقم 1094) ، ومسلم (521/1) ، رقم 758) . وأخرجه أيضاً : أحمد (487/2 ، رقم 10318) ، وأبو داود (34/2 ، رقم 1315) .

⁵ (أخرجه أحمد 348/3 (14805) و"مسلم" 175/2

وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : قال الله - عز وجل - : أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر "

قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة:17].

وجاء في السنة الصحيحة، ما يفيد أن قيام الليل من أسباب النجاة من الفتن، والسلامة من دخول النار. ففي البخاري وغيره عن أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - استيقظ ليلة فقال : ((سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتنة؟! ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟! من يوقظ صواحب الحجرات؟! " وفي ذلك تنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه : عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَابُّ (1) الصَّالِحِينَ قَبْلُكُمْ ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَمَكْفَرَةٌ لِلْسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاجٌ لِلْإِثْمِ». (2)

وعن أنس رضي الله عنه قال : كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِذَا أَجْتَهَدَ لِأَحَدٍ فِي الدُّعَاءِ قَالَ : «جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صَلَاةَ قَوْمِ أَبْرَارٍ ، يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ ، لَيْسُوا بِأَثَمَةٍ وَلَا فُجَّارٍ» (3)

وقال رسول الله - ﷺ - : «شَرَفَ الْمُؤْمِنِ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» (4)

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إن الرجل ليصلي بالليل ، فيجعل الله في وجهه نورا يحبه عليه كل مسلم ، فيراه من لم يره قط فيقول : إن لأحبُّ هذا الرجل !! .

وقيل للحسن البصري رحمه الله : ما بال المتجهدين بالليل من أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره .

¹ (دأب الصالحين : الدأب هو : العادة والشأن.

² (الترمذي [3549] باب في دعاء النبي - ﷺ - ، تعليق الألباني "حسن صحيح.

³ (مسند عبد بن حميد [1360] ، تعليق الألباني "صحيح" ، صحيح الجامع [3097] ، الصحيحة [1810] .

⁴ (تاريخ دمشق لابن عساكر [81 / 23] ، الضعفاء الكبير للعقيلي [31 / 3] ، تعليق الألباني "حسن" ، صحيح الجامع [3710] ، الصحيحة [1903] .

و صلى سيد التابعين سعيد بن المسيب - رحمه الله - الفجر خمسين سنة
بوضوء العشاء وكان يسرد الصوم.

وكان شريح بن هانئ رحمه الله يقول : ما فقد رجل شيئاً أهون عليه من نعسة
تركها!!! (أي لأجل قيام الليل) .

و قال ثابت البناني رحمه الله : لا يسمى عابد أبداً عابداً ، وإن كان فيه كل
خصلة خير حتى تكون فيه هاتان الخصلتان : الصوم والصلاة ، لأنهما من
لحمه ودمه !!

وقال طاووس بن كيسان رحمه الله : ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل ،
فيصبح وقد كتبت له مائة حسنة أو أكثر من ذلك .

و قال سليمان بن طرخان رحمه الله : إن العين إذا عودتها النوم اعتادت ،
وإذا عودتها السهر اعتادت .

قال يزيد بن أبان الرقاشي رحمه الله : إذا نمت فاستيقظت ثم عدت في النوم
فلا أنام الله عيني .

أخذ الفضيل بن عياض رحمه الله بيد الحسين بن زياد رحم الله ، فقال له : يا
حسين : ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول الرب : كذب من
أدعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني ؟!! أليس كل حبيب يخلو بحبيبه ؟!! ها
أنا ذا مطلع على أحبائي إذا جنهم الليل ،.... ، غداً أقر عيون أحبائي في
جناتي .

قال ابن الجوزي رحمه : لما امتلأت أسماع المتجهدين بمعاقبة [كذب من
أدعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني] حلفت أجفانهم على جفاء النوم .

قال محمد بن المنكدر رحمه الله : كابدت نفسي أربعين عاماً (أي جاهدتها
وأكرهتها على الطاعات) حتى استقامت لي !!

كان ثابت البناني يقول كابدت نفسي على القيام عشرين سنة !! وتلدذت به
عشرين سنة .

كان أحد الصالحين يصلي حتى تتورم قدماه فيضربها ويقول يا أمارة بالسوء
ما خلقت إلا للعبادة .

كان العبد الصالح عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله يُفرش له فراشه لينام
عليه بالليل ، فكان يضع يده على الفراش فيتحسسها ثم يقول : ما أليّنك !!
ولكن فراش الجنة أليّن منك!! ثم يقوم إلى صلاته .

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام
النهار فاعلم أنك محروم مكبل ، كبلتك خطيئتك .

قال معمر : صلى إلى جنبي سليمان التيمي رحمه الله بعد العشاء الآخرة فسمعتة يقرأ في صلاته : {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} حتى أتى على هذه الآية {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} فجعل يرددها حتى خف أهل المسجد وانصرفوا ، ثم خرجت إلى بيتي ، فما رجعت إلى المسجد لأوذن الفجر فإذا سليمان التيمي في مكانه كما تركته البارحة !! وهو واقف يردد هذه الآية لم يجاوزها {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}.

قالت امرأة مسروق بن الأجدع : والله ما كان مسروق يصبح من ليلة من الليالي إلا وساقاه منتفختان من طول القيام !! ... ، وكان رحمه الله إذا طال عليه الليل وتعب صلى جالساً ولا يترك الصلاة ، وكان إذا فرغ من صلاته يزحف (أي إلى فراشه) كما يزحف البعير !!
قال مخلد بن الحسين : ما انتبه من الليل إلا أصبت إبراهيم بن أدهم رحمه الله يذكر الله ويصلي إلا أغتم لذلك ، ثم أتعزى بهذه الآية { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ } .

قال أبو حازم رحمه الله : لقد أدرکنا أقواماً كانوا في العبادة على حد لا يقبل الزيادة !!
قال أبو سليمان الدارني رحمه الله : ربما أقوم خمس ليال متوالية بآية واحدة ، أرددتها وأطالب نفسي بالعمل بما فيها !! ولولا أن الله تعالى يمن علي بالغفلة لما تعديت تلك الآية طول عمري ، لأن لي في كل تدبر علماً جديداً ، والقرآن لا تنقضي عجائبه!!

و كان السري السقطي رحمه الله إذا جن عليه الليل وقام يصلي دافع البكاء أول الليل ، ثم دافع ثم دافع ، فإذا غلبه الأمر أخذ في البكاء والنحيب .
و قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟! فقال : لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل ، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف ، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف .
و قال سفيان الثوري رحمه الله : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بسبب ذنب أذنبته.

وقال رجل للحسن البصري رحمه الله : يا أبا سعيد : إني أبیت معافی وأحب قيام الليل ، وأعد طهوري فما بالي لا أقوم؟! فقال الحسن : ذنوبك قيدتك!!
و قال رجل للحسن البصري : أعياني قيام الليل؟! فقال : قيدتك خطاياك .

و قال ابن عمر رضي الله عنهما : أول ما ينقص من العبادة : التهجد بالليل ، ورفع الصوت فيها بالقراءة.

و قال عطاء الخرساني رحمه الله : إن الرجل إذا قام من الليل متهجداً أبح فرحاً يجد لذلك فرحاً في قلبه ، وإذا غلبته عينه فنام عن حزبه (أي عن قيام الليل) أصبح حزيناً منكسر القلب ، كأنه قد فقد شيئاً ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً (أي قيام الليل).

و رأى معقل بن حبيب رحمه الله : قوماً يأكلون كثيراً فقال : ما نرى أصحابنا يريدون أن يصلوا الليلة.

و قال مسعر بن كدام رحمه الله حاثاً على عدم الإكثار من الأكل :

وجدت الجوع يطرده رغيف *** وملء الكف من ماء الفرات

وقل الطعم عون للمصلي *** وكثر الطعم عون للسبات

و كان العبد الصالح علي بن بكار رحمه الله تفرش له جاريته فراشه فيلمسه بيده ويقول : والله إنك لطيب !! والله إنك لبارد !! والله لا علوتك ليلتي (أي لا تمت عليك هذه الليلة) ثم يقوم يصلي إلى الفجر !!

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الهجعة !! إنما هو على الجنب ، فإذا تحرك (أي أفاق من نومه) قال : ليس هذا لك !! قومي خذي حظك من الآخرة !!

وقال هشام الدستوائي رحمه الله : إن لله عبادة يدفعون النوم مخافة أن يموتوا في منامهم.

ومن المواقف :

أيها السبع اطلب رزقك في مكان آخر !!

وعن جعفر بن زيد رحمه الله قال : خرجنا غزاة إلى [كابول] وفي الجيش [صلة بين أيثم العدوي] رحمه ، قال : فترك الناس بعد العتمة (أي بعد العشاء) ثم اضطجع فالتمس غفلة الناس ، حتى إذا نام الجيش كله وثب صلة فدخل غيضة وهي الشجر الكثيف الملتف على بعضه ، فدخلت في أثره ، فتوضأ ثم قام يصلي فافتتح الصلاة ، وبينما هو يصلي إذا جاء أسد عظيم فدنا منه وهو يصلي !! ففرعت من زئير الأسد فصعدت إلى شجرة قريبة ، أما صلة فوالله ما التفت إلى الأسد !! ولا خاف من زئيره ولا بالى به !! ثم سجد صلة فاقترب الأسد منه فقلت : الآن يفترسه !! فأخذ الأسد يدور حوله ولم

يصبه بأي سوء ، ثم لما فرغ صلاة من صلاته وسلم ، التفت إلى الأسد وقال : أيها السبع اطلب رزقك في مكان آخر !! فولى الأسد وله زئير تتصدع منه الجبال !! فما زال صلاة يصلي حتى إذا قرب الفجر !! جلس فحمد محامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله ، ثم قال : الله إني أسألك أن تجيرني من النار ، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة !!! ثم رجع رحمه الله إلى فراشه (أي ليوهم الجيش أنه ظل طوال الليل نائماً) فأصبح وكأنه بات على الحشايا (وهي الفرش الوثيرة الناعمة والمراد هنا أنه كان في غاية النشاط والحيوية) ورجعت إلى فراشي فأصبحت وبي من الكسل والخمول شيء الله به عليم.

إن لأستحي من الله أن أخاف شيئاً سواه!!

وكان العبد الصالح عمرو بن عتبة بن فرقذ رحمه الله يخرج للغزو في سبيل الله ، فإذا جاء الليل صف قدميه يناجي ربه ويبكي بين يديه ، كان أهل الجيش الذين خرج معهم عمرو لا يكلفون أحداً من الجيش بالحراسة ؛ لأن عمرو قد كفاهم ذلك بصلاته طوال الليل ، وذات ليلة وبينما عمرو بن عتبة رحمه الله يصلي من الليل والجيش نائم ، إذ سمعوا زئير أسد مفزع ، فهربوا وبقي عمرو في مكانه يصلي وما قطع صلاته !! ولا التفت فيها !! فلما انصرف الأسد ذاهباً عنهم رجعوا لعمرو فقالوا له : أما خفت الأسد وأنت تصلي !!؟ فقال : إن لأستحي من الله أن أخاف شيئاً سواه!!

و قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أفضل الأعمال ما أكرهت إليه النفوس

فاتني حزبي البارحة !!

قال أبو جعفر البقال : دخلت على أحمد بن يحيى رحمه الله ، فرأيت يبيكي بكاء كثيراً ما يكاد يتمالك نفسه !! فقلت له : أخبرني ما حالك؟! فأراد أن يكتمني فلم أدعه ، فقال لي : فاتني حزبي البارحة !! ولا أحسب ذلك إلا لأمر أحدثته ، فعوقبت بمنع حزبي !! ثم أخذ يبكي !! فأشفقت عليه وأحببت أن أسهل عليه ، فقلت له : ما أعجب أمرك !! لم ترض عن الله تعالى في نومة نومك إياها ، حتى قعدت تبكي !! فقال لي : دع عنك هذا يا أبا جعفر !! فما احسب ذلك إلا من أمر أحدثته !! ثم غلب عليه البكاء !! فلما رأيت لا يقبل مني انصرف وتركت.

ألا تقوم تصلي

وعن أبي غالب قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما ينزل علينا بمكة ، وكان يتهدد من الليل ، فقال لي ذات ليلة قبل الصبح : يا أبا غالب : ألا تقوم تصلي ولو تقرأ بثلاث القرآن ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن قد دنا الصبح فكيف اقرأ بثلاث القرآن ؟!! فقال إن سورة الإخلاص { قل هو الله أحد } تعدل ثلث القرآن .

صلوا ما دمتم شبابا !!

و قال محمد بن يوسف : كان سفيان الثوري رحمه الله يقيمنا في الليل ويقول : قوموا يا شباب !! صلوا ما دمتم شبابا !! إذا لم تصلوا اليوم فمتى ؟!!

من أثر دموع الشيخ في سجوده

ودخلت إحدى النساء على زوجة الإمام الأوزاعي رحمه الله فرأت تلك المرأة بلأ في موضع سجود الأوزاعي ، فقالت لزوجة الأوزاعي : ثكلتك أمك !! أراك غفلت عن بعض الصبيان حتى بال في مسجد الشيخ (أي مكان صلاته بالليل) فقالت لها زوجة الأوزاعي : ويحك هذا يصبح كل ليلة !! من أثر دموع الشيخ في سجوده.

يرجع الدم إلى مكانه من قيام الليل!!

قال أبو يزيد المعنى : كان سفيان الثوري رحمه الله إذا أصبح مدَّ رجله إلى الحائط ورأسه إلى الأرض كي يرجع الدم إلى مكانه من قيام الليل!!

حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالا !!

كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله يصلي من الليل فإذا أصابه فتور أو كسل قال لنفسه : أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يسبقونا عليه ، والله لأزاحمنهم عليه ، حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالا !! ثم يصلي إلى الفجر.

ثم يقوم يصلي إلى الفجر

وكان شداد بن أوس رضي الله عنه إذا دخل على فراشه يتقلب عليه بمنزلة القمح في المقلاة على النار!! ويقول اللهم إن النار قد أذهبت عني النوم !! ثم يقوم يصلي إلى الفجر.

ما شبت من القرآن والصلاة

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - : إني لأستقبل الليل من أوله فيهلوني طوله فأفتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتي (أي ما شبت من القرآن والصلاة.)

ولما احتضر العبد الصالح أبو الشعثاء رحمه الله بكى فقيل له : ما يبكيك !!
فقال : إني لم أشتف من قيام الليل!!

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : كان يقال : من أخلاق الأنبياء والأصفياء
الأخيار الطاهرة قلوبهم ، خلّاق ثلاثة : الحلم والإنابة وحظ من قيام الليل.
وكان ثابت البناني رحمه الله يصلي قائما حتى يتعب ، فإذا تعب صلى وهو
جالس.

وقال السري السقطي رحمه الله : رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل.
و كان بعض الصالحين يقف على بعض الشباب العباد إذا وضع طعامهم،
ويقول لهم : لا تأكلوا كثيرا ، فتشربوا كثيرا ، فتناموا كثيرا ، فتخسروا كثيرا
!!

وما نفعا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار

قال محمد بن إبراهيم رأيت الجنيد في النوم فقلت ما فعل الله بك قال طاحت تلك
الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم وما
نفعا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار. (1)

أنتام وأنا أربى لك في الخدود منذ خمسمائة عام؟!

وروى عن سليمان الداراني انه قال: " نمت ليلة عن وردي، فإذا حورية
تقول لي: أنتام وأنا أربى لك في الخدود منذ خمسمائة عام؟! " .

ولا أحب أن أفسد عليك نومك

يقول محمد بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله البخاري يصلي في وقت السحر ثلاث
عشرة ركعة وكان لا يوقظني في كل ما يقوم فقلت أراك تحمل على نفسك ولم
توقظني قال أنت شاب ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

ولم لا أبكى؟!

وقيل : " دخل رجل علي سليمان الداراني يوما وهو يبكي، فقلت له: " ما
يبكيك؟! " ، فقال: " يا احمد!، ولم لا أبكى؟!، إذا جن الليل، ونامت العيون،
وخلا كل حبيب بحبيبه، افترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على
خدودهم، وقطرت على محاريبهم، اشرف الجليل سبحانه فنأدى: يا جبريل!
بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى ذكرى، وأنى لمطلع عليهم في
خلواتهم، اسمع أنينهم وارى بكائهم، فلم لا تنادي فيهم، يا جبريل: ما هذا
البكاء؟!، هل رأيت حبيبا يعذب أحباءه؟! ام كيف يجمل بي أن أعذب قوما إذا

جنهم الليل تعلقوا بي؟! فبي حلفت!، إذا وردوا علي القيامة لا كشفن عن وجهي الكريم، حتى ينظروا إلي، وانظر اليهم!

فإني أحب أن أرزق وقتاً من الليل

وقال داود الطائي: ما حسدت أحداً على شيء إلا أن يكون رجلاً يقوم الليل؛
فإني أحب أن أرزق وقتاً من الليل. قال أبو خالد: وبلغني أنه كان لا ينام الليل،
[إذا غلبته عيناه احتبى قاعداً]؛ ومكث عشرين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء.

يا رب أرني رفيقي في الجنة

قال إبراهيم بن أدهم يا رب أرني رفيقي في الجنة فقل له في منامه إنها
امرأة سوداء اسمها سلامة في مكان كذا ترعى الغنم فهي زوجتك في الجنة
فلما سار إليها سلم عليها قالت وعليك السلام يا إبراهيم قال من أخبرك أنني
إبراهيم قالت : النبي صلى الله عليه وسلم أخبرك أنني زوجتك في الجنة فقال
يا سلامة عظيمي قال عليك بقيام الليل فإنه يوصل العبد إلى ربه وإن كنت
تدعي محبته فالنوم عليك حرام⁽¹⁾.

¹ (الصفوري ، نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، 132/1

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

المعروف في اللغة، يدور معناه غالباً على ما تعارف عليه الناس وعلومه ولم ينكروه، والمنكر في اللغة، يدور معناه غالباً على ما جهله الناس واستنكروه ووجدوه.

قال في القاموس: عرفه يعرفه معرفة وعرفاناً وعرفه بالكسر، وعرفانا بكسرتين مشددة الفاء، علمه، والمعروف ضد المنكر (1).

والنكر بالضم وبضميتين، المنكر كالنكراء، والأمر الشديد، والنكرة خلاف المعرفة، وتناكر تجاهل، والقوم تعادوا، ونكر فلان الأمر كفرح نكراً -محركة-، ونُكراً ونُكُوراً بضمها، ونكيراً، وأنكره واستنكره وتناكره جهله، والمنكر ضد المعروف اهـ (2).

وقال في لسان العرب: عرف العرفان العلم... والمعروف ضد المنكر، والعرف ضد النكر، يقال: أولاه عرفاً أي معروفاً، والمعروف والعارفة خلاف النكر، والمعرف كالعرف، وقوله تعالى: { وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } (لقمان: 15).

أي مصاحباً معروفاً (3) والإنكار: الجحود، وقوله: { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } (لقمان: 19). أي أقبح الأصوات، والنكر، والنكر: الأمر الشديد، والمنكر من الأمر خلاف المعروف، وقد تكرر في الحديث الإنكار والمنكر وهو ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر، والنكر والنكراء -ممدود-: المنكر، وفي التنزيل العزيز: { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } (الكهف: 74)

ونكر الأمر نكيراً، وأنكره إنكاراً ونُكراً، جهله عن كراع، وفي التنزيل العزيز: { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } (هود: 70). (4).

وقال في المعجم الوسيط: العُرفُ: المعروف، وهو خلاف النكر، وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم (5).

¹ (انظر ، 3 / 178 - 179.

² (انظر ، 2 / 153 - 154.

³ (انظر ، 9 / 236 - 239.

⁴ (انظر ، 5 / 233 - 234.

⁵ (انظر ، 2 / 601.

نَكَرَ فُلَانٌ نَكَرًا وَنَكَرًا وَنَكَرًا، فَطَنَ وَجَادَ رَأْيَهُ.. وَالشَّيْءُ جَهْلُهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ } (هود: 70) وَنَكَرَ الْأَمْرَ نَكَارَةً، صَعِبَ وَاشْتَدَّ وَصَارَ مَنْكَرًا، وَأَنْكَرَ الشَّيْءُ جَهْلُهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: { فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } (يوسف: 58) وَحَقُّهُ جَدُّهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: { يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا } (النحل: 83) (1).

بيان معنى المعروف والمنكر شرعًا

المعروف في الشرع: كل ما يعرفه الشرع ويأمر به ويمدحه ويثني على أهله، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وفي مقدمتها توحيد الله عز وجل والإيمان به.

والمنكر في الشرع: كل ما ينكره الشرع وينهى عنه ويذمه ويذم أهله، ويدخل في ذلك جميع المعاصي والبدع، وفي مقدمتها الشرك بالله عز وجل وإنكار وحدانيته أو ربوبيته أو أسمائه أو صفاته.

وعبارات المفسرين في تفسير المعروف والمنكر- لا تتجاوز ذلك.

ف قيل: المعروف: كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد.

وقيل: المعروف: الخير كله، والمنكر: جميع الشر.

وقيل: المعروف: ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر: ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا.

وقيل: المعروف: الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه (2).

وقيل: المعروف: طاعة الله وما يعرفه الشرع وأعمال البر كلها.

وقيل: المعروف: الإيمان، والمنكر الشرك، وقيل: المعروف السنة، والمنكر البدعة (3).

وقيل: المعروف: خلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام، والمنكر عبادة

الأصنام وقطع الأرحام، وقيل المعروف: الطاعات والفضائل أجمع.

وقيل: العرف: صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض

الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

¹ (انظر ، 2 / 960.

² (انظر تفسير ابن سدي ، 1 / 194 - 196 ، 2 / 77 ، 3 / 65 - 66.

³ (انظر تفسير البغوي ، 2 / 580 ، 4 / 249.

وقيل : المعروف: عبادة الله وتوحيده وكل ما أتبع ذلك، والمنكر: عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك (1) وهذه الأقوال كلها حق ولا تنافي بينها. وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث : (عرف) قد تكرر ذكر -المعروف- في الحديث، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه، من المحسنات والمقبحات، وهو من الصفات الغالبة، أي أمر معروف بين الناس، إذا رأوه لا ينكرونه، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس، والمنكر ضد ذلك جميعه اهـ (2) . وقال: وقد تكرر ذكر -الإنكار والمنكر- في الحديث، وهو ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه فهو منكر، يقال: أنكر الشيء ينكره إنكاراً فهو مُنكر، ونكره ينكره نُكْرًا فهو منكور، واستنكره فهو مستنكر، والنكير الإنكار، والإنكار الجحود، اهـ (3) .

عظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من آكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، حتى ألحقه بعض العلماء بالأركان التي لا يقوم بناء الإسلام إلا عليها، وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، وللنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك والعمل لغير الله، وشرع الجهاد لأجل ذلك، وإن كان الجهاد قدرًا زائدًا على مجرد الأمر والنهي.

إذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتوقف قيام الدين، فلولاه ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته، ويتوقف أيضًا قيام الدولة الإسلامية واستقامتها وصلاحها على القيام به، كما أن صلاح العباد متوقف على القيام به.

وبيان ذلك : أن جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، والأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعث الله به رسوله هو النهي عن المنكر، وبهذا نعت الله النبي والمؤمنين فقال تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ

¹ (انظر تفسير القرطبي 9 / 344 و 8 / 203، و 14 / 8 .

² (انظر : 3 / 216 .

³ (انظر : 5 / 115 .

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ { (التوبة: 71)
وجميع الولايات -كولاية الحكم، وولاية الحرب، وولاية المال، وولاية الحسبة، وغيرها، إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولي الأمر إنما نُصِّبَ ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، ولهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، فإن تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل.

بل إن صلاح العباد جميعهم يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن صلاح العباد ومعاشهم في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (آل عمران: 110) ولا يرى تركه والمداهنة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان، فما أَجَلَ هذا الأصل وما أَعْظَمَهُ وأخطر شأنه في الإسلام؟ (1).

والعلماء عليهم واجب عظيم ومسئولية خطيرة، فإن عليهم أمر الناس وإرشادهم إلى الخير، ونهيهم وتحذيرهم من الشر، وعليهم نصيحتهم وترغيبهم في الخير، وترهيبهم من الشر، وعليهم أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فإن الله تعالى لما ذمَّ اليهود على حرصهم ومبادرتهم بالإثم والعدوان، وأكلهم الحرام في قوله تعالى: { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } (المائدة آية: 62). بين واجب العلماء وحضهم على القيام به، وهو نهيهم للناس عن المعاصي والآثام التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل وتقوم عليهم الحجة، فقال تعالى: { لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ } (المائدة: 63) أي هلاً ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم والحكمة عمّا وقعوا فيه من الإثم وأكل الحرام.

وقد وبَّخَ الله العلماء في تركهم واجب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف فقال تعالى في الآية السالفة الذكر: { لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } (المائدة: 63).

¹ (انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، 28 / 75 - 67 وص 306، وانظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، 7 / 33 - 34.

كما أخذ الله الميثاق على أهل العلم أن يبينوا للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وحذرهم من الكتمان وتوعدهم عليه فقال تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } (آل عمران: 187) وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة: 159-160) وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } (البقرة: 174-175) وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ

سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (1) . وهذا الوعيد الشديد لما ينشأ عن ترك هذا الواجب العظيم -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- من الفساد والشر، إذ كيف يصلح الناس، وكيف ينزجر الناس عن المعاصي، وكيف تعظم المعصية في قلوب الجاهلين، وكيف يقفون عند الحدود، وكيف يتورعون عن الشبهات، والعلماء يرونها فلا ينكرونها؟! فما أعظم واجب العلماء؟ وما أشد خطر تقصيرهم في القيام به. (2) قال الإمام أحمد -رحمه الله- في رسالة الصلاة ما نصه: (فرحم الله رجلاً رأى أخاه يسبق الإمام، فيركع أو يسجد معه، أو يصلي وحده فيسيء في صلاته، فينصحه ويأمره وينهاه، ولم يسكت عنه، فإن نصيحته واجبة عليه لازمة له، وسكوته عنه إثم ووزر، وإن الشيطان يريد أن تسكتوا عن الكلام فيما أمركم الله به، وأن تدعوا التعاون على البر والتقوى الذي أوصاكم الله به، والنصيحة التي عليكم بعضكم لبعض، لتكونوا ماثومين مأزورين، وأن يضمحل الدين ويذهب، وأن لا تحيوا سنة ولا تميتوا بدعة، فأطيعوا الله بما أمركم به من التناصح والتعاون على البر والتقوى، ولا تطيعوا الشيطان؛ فإن الشيطان لكم عدو مبين، بذلك أخبركم الله عز وجل فقال تعالى: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } (فاطر: 6) وقال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ

(1) ابن ماجه: المقدمة (264). الحديث رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم عن أبي هريرة، وعلم عليه السيوطي بالصحة، العجلوني، كشف الخفاء، 2/ 352 مطبعة الفنون - حلب.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/ 315، طبعة الحكومة المجموع فيها تفسير ابن كثير والبغوي، وانظر أيضا تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي 2/ 148

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يُكْمُ مِنَ الْجَنَّةِ { (الأعراف: 27).

واعلموا أنه ما جاء النقص إلا من المنسوبين إلى الفضل، المكبرين في الجماعات فيمن بالشرق والمغرب من أهل الإسلام؛ لسكوت أهل العلم والفقه والبصر عنهم، وتركهم ما لزمهم من النصيحة، والتعليم، والأدب، والأمر، والنهي، والإنكار، والتغيير، فلم يروا أمراً ولا ناهياً، ولا ناصحاً، ولا مؤدباً، ولا معلماً، ولا منكرًا ولا مغيرًا، إلا ما شاء الله، فجرى أهل الجهالة على المسابقة للإمام، وجرى معهم كثير ممن ينسب إلى العلم والفقه والبصر والنظر استخفافاً منهم بالصلاة.

والعجب كل العجب من اقتداء أهل العلم بأهل الجهل ومجراهم معهم في المسابقة للإمام في الركوع والسجود، والرفع والخفض، وفعله معهم، وتركهم ما حملوا وسمعوا من الفقهاء والعلماء، وإنما الحق الواجب على العلماء أن يعلموا الجاهل وينصحوه، ويأخذوا على يده، فهم فيما تركوا آثمون عصاة خائنون، لجريانهم معهم في ذلك وفي كثير من مساوئهم: من الغش والنميمة، ومحقرة الفقراء والمستضعفين، وغير ذلك من المعاصي مما يكثر تعداده، وجاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « وَيَلُّ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ حَيْثُ لَا يَعْلَمُهُ » فتعليم الجاهل واجب على العالم، لازم له؛ لأنه لا يكون الويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه من تطوع، لأن الله لا يؤاخذ على ترك التطوع، وإنما يؤاخذ على ترك الفرائض. اهـ (1).

مسألة :

الأصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه فرض كفاية ولكنه يصير فرض عين في حالتين:
الأولى : أن لا يعلم به إلا هو. الثانية : أن لا يتمكن من إزالته إلا هو. قال أبو زكريا النووي -رحمه الله- في شرح صحيح مسلم : "وقد يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني يصير فرض عين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو غلامه أو ولده على منكر أو تقصير في المعروف" (2).

¹ (انظر رسالة الصلاة للإمام أحمد ص 110- 111، مطبعة الإمام ومعها رسالتان.

² (مسألة :شَرَطُ سقوط الحرج عن الباقي، إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من يكفي هو أن يكون سكوته لعلمه أن هذا الواجب قد قام به من يكفي.

قال ابن النحاس في كتابه "تنبيه الغافلين ص 15- 16": "واعلم أن مقتضى فرض الكفاية، أنه إذا قام به البعض حاز الأجر الجزيل من الله تعالى، وسقط الحرج عن الباقي، ولكن يشترط في

فائدة :

القائم والمؤدي لفرض الكفاية، له ميزة على القائم بفرض العين، تلك هي أن القائم بفرض العين أسقط الحرج عن نفسه فقط، والقائم بفرض الكفاية أسقط الحرج عن نفسه وعن المسلمين وفرض العين إذا ترك. وقد قال اختص هو بالإثم، وفرض الكفاية إذا ترك أثم الجميع. قال ابن النحاس⁽¹⁾ وقد قال النووي -رحمه الله- في "زوايد الروضة": للقائم بفرض الكفاية مزية على القائم بفرض العين، من حيث إنه أسقط الحرج عن نفسه وعن المسلمين

وقد قال إمام الحرمين -رحمه الله- في "الغياث": "والذي أراه أن القيام بفرض الكفاية أفضل من فرض العين؛ لأنه لو ترك المتعين لاختص هو بالإثم، ولو فعله اختص بسقوط الفرض، وفرض الكفاية لو ترك أثم الجميع، ولو فعله سقط الحرج عن الجميع، ففاعله ساع في صيانة الأمة عن الإثم، ولا يشك في رجحان من حل محل المسلمين أجمعين في القيام بمهمة من مهمات الدين والله أعلم" اهـ.⁽²⁾

ومن المواقف :

رأيت رب العزة في المنام

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى : رأيت رب العزة في المنام ، فقال لي : يا عبد الرحمن أنت الذي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . قلت : بفضلك يا رب . ثم قلت : يا رب أمتني على الإسلام . فقال عز وجل : وعلى السنة أيضاً . وتوفي رحمه الله ، في شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائة ، وكان سبب موته أنه دخل حمام بيروت ، وكان لصاحب الحمام شغل ، فأغلق الباب عليه ، وذهب ثم جاء وفتح الباب ، فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده

سقوط الحرج هنا أن يكون الساكت عن الأمر والنهي إنما سكت لعلمه بقيام من قام عنه بالغرض، فإن سكت ولم يعلم بقيامه، فالظاهر -والله أعلم- أنه لا يسقط عنه الحرج؛ لأنه أقدم على ترك واجب عمداً، كما لو أقدم على الفطر في رمضان؛ ظاناً منه النهار باقي وكان ليلاً، أو جامع ظاناً أن الفجر قد طلع وكان ليلاً، فإنه يأثم بذلك. اهـ.

(1) تنبيه الغافلين، ص 17-18

(2) عبد العزيز بن عبد الله الراجحي ، القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص 5 - 9 ، سليمان بن عبد الرحمن الحقييل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة ، ص 17

، وهو مستقبل القبلة . وقيل : إن امرأته فعلت ذلك به ولم تكن عامدة لذلك⁽¹⁾.

إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا

قال عبد الله بن داود : كتب رجل كتاباً على لسان أبي حنيفة إلى والي جرجان فوصله بأربعة آلاف درهم ، فقيل لأبي حنيفة فقال : إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا . كان أبو حنيفة يقول : ما صليت صلاة إلا وأنا أستغفر الله من تركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان أبو حنيفة يقول : ابن أبي ليلى استحل مني ما لا أستحل من سنور .

¹ (كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، تحقيق : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الثانية 1424 هـ - 2003 م ، 1 / 198 ،

الصلاة والسلام علي الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (الأحزاب/ 56) فالصلاة من العبد دعاء ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن الله رحمة، وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار.

وفي الحديث: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ ..» قال أبو بكر: الصَّلَوَاتُ معناها التَّرحُّم.

وقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ (الأحزاب/ 56) أي يترحمون.

وتكون الصلاة بمعنى الدعاء: وفي الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرا فليطعم، وإن كان صائما فليصل»⁽¹⁾. قوله:

فليصل: يعني فليدع لأرباب الطعام بالبركة والخير. ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صَلَّى علي صلاة صلت عليه الملائكة عشرا». وكلّ داع فهو مصل.

وأما قولنا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، فمعناه عظّمه في الدّنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيّعه في أمّته، وتضعيف أجره ومثوبته.

وقيل: المعنى لما أمرنا الله سبحانه بالصلاة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولما نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه على الله، اللَّهُمَّ صَلِّ أَنْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ، لَأَنَّكَ أَعْلَمُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ.

وهذا الدعاء قد اختلف فيه هل يجوز إطلاقه على غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لا؟ والصحيح أنّه خالص له، ولا يقال لغيره.

وقال الخطابي: الصلاة التي بمعنى التعظيم والتّكريم لا تقال لغيره، والتي بمعنى الدعاء والتّبريك تقال لغيره. ومنه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» أي ترحّم وبارك.

¹ (معنى فليصل: أي فليدعو لصاحب الطعام. والحديث أخرجه مسلم (1150)، والترمذي (780) وصححه الألباني صحيح الألباني (626). وعند مسلم بلفظ «إذا دعي أحدكم إلى طعام وهو صائم فليقل إنني صائم»- مسلم (1150).

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري- رضي الله عنه- قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عباد- رضي الله عنه- فقال له بشير بن سعد- رضي الله عنه- قد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، والسلام كما قد علمتم» (1). وزاد ابن خزيمة فيه: «فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا...» الحديث.

2- عن أبي مسعود- رضي الله عنه- قال: أقبل رجل (2). حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن عنده، فقال: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحببنا أن الرجل لم يسأله. ثم قال: «إذا أنتم صليتم علي فقولوا: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم (3)»
و عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (4)

¹ (أحمد (274 /5)، ومسلم (405)، والنسائي (3/ 45، 46)، والترمذي (3220)، وقال حديث حسن صحيح. وأبو داود (980، 981)، ومالك في «الموطأ» (1/ 165، 166).

² (هو بشير بن سعد.

³ (أحمد في «المسند» (4/ 119). والحاكم في «المستدرک» (1/ 268) وقال: حديث صحيح

على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وهو عند ابن خزيمة في صحيحه

⁴ (البخاري- الفتح (1/ 6357)، ومسلم (406) واللفظ له، وفي لفظ آخر عند البخاري [الفتح (61/ 3370)] من طريق عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: بلى، فاهدها لي، فقال: سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: يا رسول الله! كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم. قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وقد جمع هذا الحديث بين إبراهيم وآله في الصلاة والبركة، وهو على خلاف ما جزم به المؤلف من أن أكثر الأحاديث الصحاح والحسان، مصرحة بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وبذكر آله، أما في حق المشبه به وهو إبراهيم وآله، فإنما جاءت بذكر آل إبراهيم فقط دون ذكر إبراهيم أو بذكره فقط دون ذكر

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قلنا: يا رسول الله هذا السّلام عليك قد عرفناه، فكيف الصّلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللّهم صلّ على محمّد عبدك ورسولك، كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم»⁽¹⁾

وعن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله كيف الصّلاة عليك؟ قال: «قل: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد.»

وفي لفظ آخر عند النسائي أنّ رجلاً أتى نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: كيف نصليّ عليك يا نبيّ الله؟ قال: «قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم، إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم، إنّك حميد مجيد»⁽²⁾

فضائل الصّلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
- صلاة بصلوات:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشرا»⁽³⁾
وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من ذكرت عنده فليصلّ عليّ، ومن صلّى عليّ مرّة صلّى الله عليه عشرا»⁽⁴⁾

وعن عامر بن ربيعة- رضي الله عنه- قال: سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ما من عبد يصلّي عليّ إلّا صلّت عليه الملائكة ما دام يصلّي عليّ، فليقلّ العبد من ذلك أو ليكثر»⁽⁵⁾

آله، ولم يجيء حديث صحيح فيه لفظ إبراهيم وآل إبراهيم وهو سهو منه رحمه الله، وبتفصيل أكثر. انظر فتح الباري (11/ 158- 159).

¹ (البخاري- الفتح (11/ 6358)، والنسائي (3/ 49)، وابن ماجه (903).

² (أحمد في «المسند» (1/ 126)، والنسائي (3/ 48) وإسناده حسن.

³ (رواه مسلم برقم 408).

⁴ (رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص 60)، وابن السني (283)، والبخاري في الأدب المفرد (643)، وقال النووي رحمه الله: إسناده جيّد. انظر كتاب «الأذكار» له (ص 145). وقال ابن القيم رحمه الله: إسناده صحيح، انظر «جلاء الأفهام» (ص 295).

⁵ (رواه الإمام أحمد في المسند (3/ 445)، وابن ماجه برقم (907). وإسماعيل القاضي في «فضل الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص 925) وحسنه الألباني لشواهد، انظر

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: «من صَلَّى على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم صلاة صَلَّى الله عليه وملائكته سبعين صلاة فليقلّ من ذلك أو ليكثر»⁽¹⁾

- رفع للدرجات وحطّ للسيئات:

فعن أبي طلحة الأنصاري- رضي الله عنه- قال: أصبح رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يوماً طيّب النفس يرى في وجهه البشر. قالوا: يا رسول الله: أصبحت اليوم طيّب النفس يرى في وجهك البشر. قال: «أجل، أتاني آت من عند ربّي عزّ وجلّ، فقال: من صَلَّى عليك من أمّتك صلاة، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وردّ عليه مثلها»⁽²⁾

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: «من صَلَّى عليّ صلاة واحدة صَلَّى الله عليه عشر صلوات وحطّ عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»⁽³⁾

- كفاية الهموم ومغفرة الذنوب:

عن أبيّ بن كعب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيّها النّاس، اذكروا الله، جاءت الرّاجفة تتبّعها الرّادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أبيّ: قلت: يا رسول الله إنّي أكثر الصّلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي»⁽⁴⁾
؟ فقال: «ما شئت». قال: قلت: الرّبع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: النّصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قال: قلت: فالثلثين؟

صحيح الجامع برقم (5620)، وكذا تعليقه على كتاب «فضل الصلاة على النبي صَلَّى الله عليه وسلّم» (ص 25).

⁽¹⁾ رواه الإمام أحمد في المسند (2/ 172)، قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، انظر مجمع الزوائد (10/ 160)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر تخريجه على المسند برقم (6754).

⁽²⁾ رواه الإمام أحمد في المسند (4/ 29)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (57).

⁽³⁾ رواه الإمام أحمد في مسنده (3/ 102)، والنسائي (3/ 50) واللفظ له، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (6235).

⁽⁴⁾ صلاتي: قال المنذري: معناه أكثر الدعاء فكم أجعل لك من دعائي صلاة عليك، انظر الترغيب والترهيب (2/ 501).

قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك» (1)

- سبب لنيل شفاعته صلى الله عليه وسلم:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» (2)

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة» (3).

وعن رويغ بن ثابت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي» (4).

- سبب لعرض اسم المصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فعن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكثرُوا الصلاة عليّ، فإن الله وكّل بي ملكا عند قبوري، فإذا صلى عليّ رجل من أمتي، قال لي ذلك الملك، يا محمد إنّ فلان بن فلان صلى عليك الساعة» (5)

وعن عمار بن ياسر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ لله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد، فليس من أحد يصلي عليّ إلا

¹ (رواه الترمذي برقم (2457) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده (136/5)، ورواه الحاكم في المستدرک (421/2) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» (ص 29، 30). قال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد وإسناده جيّد، انظر مجمع الزوائد (160/10)

² (رواه مسلم برقم (384)

³ (قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين وإسنادهما جيّد ورجاله وثقوا. انظر مجمع الزوائد (120/10). وأيضا حسن الحديث الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (6233).

⁴ (رواه الإمام أحمد في المسند (108/4)، وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير وأسانيدهم حسنة، انظر مجمع الزوائد (163/10).

⁵ (رواه الديلمي في مسند الفردوس (93/1)، وحسنه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (1530)، وصحيح الجامع الصغير برقم (1218).

أبلغنيها، وإنّي سألت ربّي أن لا يصلي عليّ عبد صلاة إلّا صلى عليه عشر أمثالها» (1)

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- عن النّبّي صلى الله عليه وسلّم قال: «إنّ لله تعالى ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني من أمّتي السّلام» (2)

- طهرة من لغو المجلس:

عن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما اجتمع قوم ثمّ تفرّقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النّبّي صلى الله عليه وسلّم، إلّا قاموا عن أنتن من جيفة» (3)

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النّبّي صلى الله عليه وسلّم، قال: «ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلّوا على نبيّهم إلّا كان عليهم ترة (4) فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم» (5)

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما قعد قوم مقعدا لا يذكرون الله عزّ وجلّ ويصلّون على النّبّي صلى الله عليه وسلّم، إلّا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنّة للثّواب (6)

(1) رواه الطبراني واليزار، وحسنه الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (1530)، وأيضا صحيح الجامع الصغير برقم (2172).

(2) رواه الإمام أحمد في المسند (1/387، 441، 452). والنسائي (3/43)، والدارمي برقم (2777)، والحاكم في المستدرک (2/421) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وإسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم» (ص 34)، وأيضا صححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (2170).

(3) رواه أبو داود الطيالسي (1756)، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء المقدسي في المختارة والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 411) بلفظ «ما جلس قوم مجلسا ثم تفرّقوا عن غير صلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم إلّا تفرّقوا على أنتن من ریح الجيفة». قال ابن القيم رحمه الله: قال أبو عبد الله المقدسي (الضياء): هذا عندي على شرط مسلم. راجع جلاء الأفهام (ص 78) وأيضا صحح الحديث الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير برقم (5382).

(4) ترة: نقص وتبعة وحسرة، انظر النهاية لابن الأثير (1/189).

(5) رواه الإمام أحمد في المسند (2/446، 452، 481، 484، 495)، والترمذي برقم (3380) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في المستدرک (1/496)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم (ص 51)، وصحح الحديث أيضا الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (74)، وعبد القادر الأرناؤوط، انظر تعليقه على كتاب «جامع الأصول» (4/472).

(6) رواه الإمام أحمد في المسند (2/463) وابن حبان (2322) كما في موارد الزمّان. والحاكم (1/492)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم» (ص 52)، وقال الحافظ الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد (10/79)

- سبب في إجابة الدعاء:

عن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كلّ دعاء محجوب حتّى يصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم» (1)

- انتفاء الوصف بالبخل والجفاء:

عن الحسين بن عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنهما- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «البخل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» (2)
وعن أبي ذرّ- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ أبخل النّاس من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» (3)
وعن الحسن البصري- رحمه الله- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلّي عليّ» (4)
وعن قتادة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من الجفاء (5) أن أذكر عند رجل فلا يصلّي عليّ» (6)

وأيضاً صححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة برقم (76)، وصحيح الجامع الصغير برقم (7500).

(1) ذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (4299).

(2) رواه الترمذي برقم (1456) وقال: حديث حسن صحيح غريب. والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (55، 56)، ورواه الإمام أحمد في المسند (1/ 201)، وابن حبان (2388) موارد، والحاكم في المستدرک (1/ 549) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(3) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص 43). وصححه الألباني بشواهد، انظر حاشيته على الكتاب المذكور (ص 43).

(4) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلّم» (ص 43). وقال مخرج الكتاب الألباني: إسناده مرسل صحيح.

(5) قال الحافظ السخاوي: قوله «من الجفاء» هو بفتح الجيم والمد وهو ترك البر والصلة ويطلق أيضاً على غلظ الطبع، انظر كتاب «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» (ص 146).

(6) قال ابن القيم رحمه الله: «لو تركنا وهذا المرسل وحده لم نحتج به، ولكن له أصول وشواهد قد تقدمت من تسمية تارك الصلاة عليه عند ذكره بخيلاً وشحيحاً، والدعاء عليه بالرغم. وهذا

من موجبات جفائه، انظر كتابه «جلاء الأفهام» (ص 321)، وقال السخاوي- بعد أن أورد الحديث:- أخرج النيميري هكذا من وجهين من طريق عبد الرزاق وهو في «جامعه» ورواته ثقات، انظر كتابه «القول البديع» (ص 146).

- دليل إلى الجنة:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نسي (1) الصلاة عليّ خطيئ طريق الجنة (2)

وعن أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر- رحمه الله- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ فقد خطيئ طريق الجنة (3) الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.

الثانية: موافقته سبحانه في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، وإن اختلفت الصلاتان.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها.

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

الخامسة: أنه يرفع له عشر درجات.

السادسة: أنه يكتب له عشر حسنات.

السابعة: أنه يمحي عنه عشر سيئات.

الثامنة: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند ربّ العالمين.

التاسعة: أنها سبب لشفاعته صلى الله عليه وسلم إذا قرنها بسؤال الوسيلة له، أو أفرداها.

العاشرة: أنها سبب لغفران الذنوب.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمّه.

الثانية عشرة: أنها سبب لقرب العبد منه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

(1) من نسي الصلاة عليّ: قال العلامة المناوي قال في الإتحاف: المراد بالنسيان هنا: الترك، نظير قوله تعالى في توبيخ الفاجر أَتَنْتَكُ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى أَي: تركت آياتنا فجزاؤك أنك تترك من الرحمة وتوضع في العذاب، وليس المراد بالنسيان هنا: الذهول، لأن الناسي- أي: الذي ذهل من حفظه- غير مكلف أي ليس بمؤاخذ. انظر كتابه «فيض القدير» (6/129) بتصرف يسير.

(2) رواه ابن ماجه في سننه برقم (908)، قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث: أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة. وابن أبي حاتم من حديث جابر. والطبراني من حديث حسن بن علي. وهذه الطرق يشد بعضها بعضا، انظر فتح الباري (11/172). كما قوى الحديث لشواهد أيضا ابن الملن. انظر «فيض القدير» (6/232).

(3) رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» (ص 46) من عدة أوجه. قال الحافظ بن كثير: هذا مرسل جيد يتقوى بالذي قبله. أ. هـ. يعني حديث ابن عباس عند ابن ماجه، انظر تفسير ابن كثير (3/520).

الثالثة عشرة: أنَّها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.
الرابعة عشرة: أنَّها سبب لقضاء الحوائج.
الخامسة عشرة: أنَّها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.
السادسة عشرة: أنَّها زكاة للمصلي وطهارة له.
السابعة عشرة: أنَّها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته.
الثامنة عشرة: أنَّها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.
التاسعة عشرة: أنَّها سبب لرد النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.
العشرون: أنَّها سبب لتذكر العبد ما نسيه كما تقدّم.
الحادية والعشرون: أنَّها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.
الثانية والعشرون: أنَّها سبب لنفي الفقر كما تقدّم.
الثالثة والعشرون: أنَّها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره صلى الله عليه وسلم.
الرابعة والعشرون: أنَّها ترمي صاحبها على طريق الجنة وتخطيء بتركها عن طريقها.
الخامسة والعشرون: أنَّها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله ورسوله ويحمد ويثني عليه فيه، ويصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم.
السادسة والعشرون: أنَّها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله.
السابعة والعشرون: أنَّها سبب لوفور نور العبد على الصراط.
الثامنة والعشرون: أنَّه يخرج بها العبد عن الجفاء.
التاسعة والعشرون: أنَّها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.
الثلاثون: أنَّها سبب للبركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه، لأن المصلي داع ربه أن يبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب، والجزاء من جنسه.

الحادية والثلاثون: أنها سبب لنيل رحمة الله له، لأن الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قاله طائفة، وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح، فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله.

الثانية والثلاثون: أنها سبب لدوام محبته للرسول صلى الله عليه وسلم وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه، نقص حبه من قلبه، ولا شيء أقرّ لعين المحب من رؤية محبوبه، ولا أقرّ لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه، جرى لسانه بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحسن شاهد بذلك.

الثالثة والثلاثون: أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم سبب لمحبه للعبد، فإنها إذا كانت سببا لزيادة محبة المصلي عليه له، فكذلك هي سبب لمحبه هو للمصلي عليه صلى الله عليه وسلم.

الرابعة والثلاثون: أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه، فإنه كلما أكثر الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وذكره، استولت محبته على قلبه، حتى لا يبقى في قلبه معارضة لشيء من أوامره، ولا شك في شيء مما جاء به، بل يصير ما جاء به مكتوبا مسطورا في قلبه، لا زال يقرؤه على تعاقب أحواله، ويقتبس الهدى والفلاح وأنواع العلوم منه، وكلما ازداد في ذلك بصيرة وقوة معرفة، ازدادت صلاته عليه صلى الله عليه وسلم.

الخامسة والثلاثون: أنها سبب لعرض اسم المصلي عليه صلى الله عليه وسلم وذكره عنده.

السادسة والثلاثون: أنها سبب لتثبيت القدم على الصراط، والجواز عليه، لحديث عبد الرحمن بن سمرة الذي رواه عنه سعيد بن المسيب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: «ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحيانا ويتعلق أحيانا، فجاءته صلاته علي فأقامته على قدميه وأنقذته»⁽¹⁾

⁽¹⁾ رواه أبو موسى المديني وبنى عليه كتابه «الترغيب والترهيب» وقال: هذا حديث حسن جدا، وانظر جلاء الأفهام (ص 368)

السابعة والثلاثون: أنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدَاءٌ لِأَقَلِّ الْقَلِيلِ مِنْ حَقِّهِ، مَعَ أَنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ لَا يَحْصِي عِلْمًا وَلَا قُدْرَةً، وَلَا إِرَادَةً، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لِكَرَمِهِ رَضِيَ مِنْ عِبَادِهِ بِالْيُسِيرِ مِنْ شُكْرِهِ وَأَدَاءِ حَقِّهِ.

الثامنة والثلاثون: أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ، وَمَعْرِفَةِ إِنْعَامِهِ عَلَى عِبِيدِهِ بِإِرْسَالِهِ، فَالْمُصَلِّيُّ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَضَمَّنَتْ صَلَاتُهُ عَلَيْهِ ذِكْرَ اللَّهِ وَذِكْرَ رَسُولِهِ، وَسُؤَالَهُ أَنْ يَجْزِيَهُ بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ كَمَا عَرَفْتَنَا رَبَّنَا وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَهَدَانَا اللَّهُ بِهَا إِلَى طَرِيقِ مَرْضَاتِهِ، وَعَرَفْنَا جَلَّ جَلَالَهُ مَا لَنَا بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِكُلِّ الْإِيمَانِ، بَلْ هِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِقْرَارِ بِوُجُوبِ الرَّبِّ الْمَدْعُوعِ وَعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَكَلَامِهِ، وَإِرْسَالِ رَسُولِهِ، وَتَصَدِيقِهِ فِي أَخْبَارِهِ كُلِّهَا، وَكَمَالِ مُحَبَّتِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْإِيمَانِ، فَالصَّلَاةُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَضَمِّنَةٌ لِعِلْمِ الْعَبْدِ ذَلِكَ، وَتَصَدِيقِهِ بِهِ، وَمُحَبَّتِهِ لَهُ، فَكَانَتْ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

التاسعة والثلاثون: أنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَبْدِ هِيَ دَعَاءٌ، وَدَعَاءُ الْعَبْدِ وَسُؤَالُهُ مِنْ رَبِّهِ نَوْعَانِ:

أحدهما: سُؤَالُهُ حَوَائِجَهُ وَمَهْمَاتِهِ وَمَا يَنْوِبُهُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَهَذَا دَعَاءٌ وَسُؤَالٌ، وَإِثَارٌ لِمُحِبِّبِ الْعَبْدِ وَمُطْلُوبِهِ.

والثاني: سُؤَالُهُ أَنْ يَثْنِيَ عَلَى خَلِيلِهِ وَحَبِيبِهِ، وَيَزِيدَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَكْرِيمِهِ وَإِثَارِهِ ذِكْرَهُ، وَرَفْعَهُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ ذَلِكَ وَرَسُولُهُ يَحِبُّهُ، فَالْمُصَلِّيُّ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَرَفَ سُؤَالَهُ وَرَغْبَتَهُ وَطَلْبَهُ إِلَى مُحَابَّاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَآثَرَ ذَلِكَ عَلَى طَلْبِهِ حَوَائِجَهُ وَمُحَابَّتِهِ هُوَ، بَلْ كَانَ هَذَا الْمَطْلُوبُ مِنْ أَحَبِّ الْأُمُورِ إِلَيْهِ وَآثَرُهَا عِنْدَهُ، فَقَدْ آثَرَ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى مَا يَحِبُّهُ هُوَ، فَقَدْ آثَرَ اللَّهَ وَنَبِيَّ اللَّهِ وَمُحَابَّتَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. فَمَنْ آثَرَ اللَّهَ عَلَى غَيْرِهِ، آثَرَ اللَّهَ عَلَى غَيْرِهِ.

هذه مشية الخدام في دار السلام

سمعنا أبا يحيى زكريا بن يحيى السمسار يقول رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر وفي رجله نعلان من ذهب وهو يخطر بهما قال قلت أبا عبد الله ماذا فعل الله بك قال غفر لي وأدناني من نفسه وتوجني بيده هذا التاج وقال هذا بقولك القرآن كلام الله غير مخلوق قال قلت فما هذه الخطرة التي لم أعرفها لك في دار الدنيا قال هذه مشية الخدام في دار السلام (1) .

قال الحسن بن محمد : رأيت أحمد بن حنبل رضي الله عنه في النوم فقال يا أبا علي لو رأيت صلاتنا على النبي (صلى الله عليه وسلم) في الكتب كيف تزهو بين يدينا ؟ ولذا قال سفيان الثوري : لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإنه يصلي عليه ما دام اسمه في ذلك الكتاب (صلى الله عليه وسلم) . وقال عبد الله بن عبد الحكم : رأيت الشافعي رضي الله عنه في النوم فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال رحمني وغفر لي وزفني إلى الجنة كما تزف العروس ، ونثر علي كما ينثر على العروس ، فقلت بماذا بلغت هذه الحالة ؟ فقال لي قائل : بقولك في (كتاب الرسالة) من الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قلت فكيف ذلك ؟ قال : وصلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون فلما أصبحت نظرت إلى الرسالة فوجدت الأمر كما رأيت (صلى الله عليه وسلم) . وذكر في جلاء الأفهام من هذا أشياء كثيرة . وفي حديث ابن عباس مرفوعا (جاءني جبريل عليه السلام فقال إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله وأسحقه ، فقلت آمين) رواه الترمذي وحسنه . ومن حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعا (أن جبريل عرض لي فقال بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، والترمذي وحسنه عن أبي هريرة مرفوعا (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي) . وعن الحسين بن علي رضوان الله عليهما عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي) رواه النسائي

(1) أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي ، معجم السفر ، تحقيق : عبد الله عمر البارودي ، المكتبة التجارية - مكة المكرمة ، ص 48

وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه والترمذي وزاد في سنده علي بن أبي طالب وقال حديث حسن صحيح غريب . وما أحسن قول الإمام الصرصري في ذلك : من لم يصل عليه إن ذكر اسمه فهو البخيل وزده وصف جبان وإذا الفتى في العمر صلى مرة في سائر الأقطار والبلدان صلى عليه الله عشرا فليزد عبد ولا يجنح إلى نقصان وأخرج النسائي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله عز وجل وصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا قاموا عن أنتن جيفة) ورواه أبو داود الطيالسي إلا أنه قال (إلا قاموا عن أنتن جيفة) قال الإمام أبو عبد الله المقدسي : هذا على شرط مسلم (1).

¹ (محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، تحقيق : محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الثانية ، 1423 هـ - 2002 م ، ص18 ،

إن جوهر العلاقة بين النفس الإنسانية والحياة الدنيا هي علاقة ابتلاء وتمحيص وفتنة، وسنشير بإيجاز لمعنى كل من النفس والابتلاء والفتنة تمهيدا للحديث عن مظاهر هذا الابتلاء وأنواعه ونتائجه.

ولفظ «الابتلاء» مأخوذ من مادة (ب ل و) التي تدل على نوع من الاختبار من ذلك قولهم: بلي الإنسان وابتلاه الله أي اختبره، قال الشاعر:

بليت وفقدان الحبيب بليّة ... وكم من كريم يبلى ثم يصبر

ويكون البلاء بالخير والشر، والله- عز وجل- يبلي العبد بلاء حسنا وبلاء سيئا، وذلك راجع إلى معنى الاختبار لأنه بذلك يختبر صبره وشكره، وبلوته تأتي أيضا بمعنى جزيته «1»، وتأتي كذلك بمعنى استخبرته، يقال: بلوته فأبلاني أي استخبرته فأخبرني، والاسم من الابتلاء: البلوى والبلية والبلاء والجمع من ذلك: بلايا، وفي الحديث: «اللهم لا تبلىنا إلا بالتي هي أحسن» ويقال: أبلاه الله بلاء حسنا إذا صنع به صنعا جميلا، وقال ابن قتيبة: يقال: من الخير أبليته ومن الشر بلوته، وعقب على ذلك الرأي ابن منظور فقال: والمعروف (في اللغة) أن الابتلاء يكون بالخير وبالشر معا من غير فرق بين فعليهما ومن ذلك قوله تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ «الأنبياء/ 35»

وقال ابن بري: يأتي الابتلاء أيضا بمعنى الإنعام كما في قوله- عز من قائل:- وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ «الدخان/ 33». أي إنعام بيّن، وقال تعالى في قصة سليمان عندما سخر له من يأتيه بعرش بلقيس في طرفة عين: قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ «النمل/ 40»، وفي الحديث: «من أبلي فذكر فقد شكر» قال ابن الأثير: الإبلاء «هنا» هو الإنعام والإحسان (1)

واصطلاحا: الابتلاء: التكليف في الأمر الشاقّ، ويكون في الخير والشر معا، ولكنهم (عادة ما) يقولون: في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاء .

وقال المناوي: البلاء كالبلية: الامتحان، وسمي الغم بلاء لأنه يبلي الجسد .

وقال ماجد كيلاني: الابتلاء هو اختبار مدلول العبادة بمظاهرها الدينية والاجتماعية والكونية وهو المظهر العملي لعلاقة العبودية بين الله- عز وجل- والإنسان .

هذا ويرتبط مفهوم الابتلاء بمفهوم آخر يتعلق به تعلقا شديدا وقد يرادفه أحيانا، ألا وهو مفهوم الفتنة، وسنعرض لهذا بإيجاز - فيما يلي.

وقال تعالى: " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ؟ [الملك: 1-2]

إن الابتلاء سنة ثابتة في حياة البشر لا يستطيعون الخروج منها، وللا ابتلاء صور ومظاهر وقوانين وسنن تفصيلية لسنة الابتلاء الأصلية والأساسية ومن تلك السنن:

سنة التداول: بمعنى أن الله تعالى يداول أحوال الناس من شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة ، ومن نصر إلى هزيمة ، ومن هزيمة إلى نصر، ومن يسر إلى عسر، ومن عسر إلى يسر إلى غير ذلك من مظاهر تقلبات الأحوال وتغيير المواقف وتداول المواقع، حتى تظهر بذلك مواقف الناس، وتكشف بواطن ما في صدورهم وفي هذه السنة يقول الله عز وجل ؟ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ؟ [آل عمران: 140]

وإن كانت هذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب غزوة أحد، ليتبين للمؤمنين سنة الله عز وجل في النصر والهزيمة، وإن كانت العاقبة والمحصلة النهائية للمؤمنين ، والنصر موعود لهم، ولكن هناك حكمة تقتضي أن يذوق المؤمنون طعم الهزيمة.

ومداولة الأحوال لا يقتصر على تعاقب النصر والهزيمة فإن اختلاف الأحوال لا يقتصر على تعاقب النصر والهزيمة فإن اختلاف الأحوال والظروف التي يمر بها الإنسان تدخل في إطار هذه السنة، ولهذا قال بعض المفسرين أن معنى نداولها بين الناس: من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر إلى غير ذلك.

ثم إن وعد الله للمؤمنين بالنصر لا يعني أن الأمر سيجري وفق أهوائهم وأن الثمرة ستأتي على ما يشتهون، كلا. بل إن حكمة الله تقتضي بأن تتربى النفوس المؤمنة على تحمل نتائج الأخطاء، وأن تتعلم بأن المعصية تبعدهم عن رحمة الله وتوفيقه وعونه، فليس من الصدفة أو المجازفة ما يحصل في حياة البشر من تغييرات في أحوالهم، فإن وراء ذلك إرادة ومشئنة إلهية ذات حكمة بالغة على الإنسان أن يعرفها ويفقهها.

ومن سنن الابتلاء سنة التدافع بين الحق والباطل فإن الله أراد لهذه الحياة أن تكون مسرحاً للصراع بين أنصار الحق والباطل، بين قوى الخير وقوى الشر، قال تعالى: ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء: 35], وقال: ؟ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا؟ [الفرقان: 20]. فالتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل سنة حتمية لا بد منها، فلا يتصور أن يعيش الحق والباطل في سلم دون صراع ومن دون غلبة أحدهما على الآخر، إلا لعلّة كضعف أصحابهما أو جهلهما بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم، ولقد ضرب الله مثلاً لهذه الحقيقة حقيقة الحق الثابت والباطل الزاهق في قوله سبحانه: ؟ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ؟ [الرعد: 17].

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه زبد أو خبث، ما يلبث أن ينتهي ويذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء الزلال والمعدن الصافي ينفع الناس (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) لقد مضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والمحق للباطل وأهله كما قال تعالى ؟ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ؟ [الشورى: من الآية 24] غير أن للنصر عوامل وأسباباً، وانتصار الله للحق وأهله لا يأتي إلا بجهد وتعب، وقد يصيب المؤمنين كثير من الأذى. والنصر إنما يتحقق في واقع الناس إذا هيا الله في أنفسهم عوامل النصر التي أرشد إليها الإسلام وأمر بها الله ورسوله وأبعدوا عن أنفسهم عوامل الفشل ومعوقات النصر.

ومن أهم عوامل النصر: الإيمان، فقد وعد الله أهل الإيمان بالنصر والتأييد كما قال ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ [الروم: 47].

وقال : ؟ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ؟ [غافر: 51].

حكمة الله- عز وجل- في الابتلاء:

من أسماء الله- عز وجل- «الحكيم» ولهذا الاسم كما لغيره من الأسماء الحسنی آثار في الخلق تترتب عليه، ومن مقتضى ذلك أن تكون أفعاله- سبحانه وتعالى-، وما يجري به قضاؤه وقدره لا يخلو من الحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وسنحاول هنا أن نتأمل بعض- وليس كل- أسرار الابتلاء بأنواعه المختلفة.

أولاً: حكمة الابتلاء بالضراء أو الشر:

للابتلاء بالضراء أو الشر حكم عديدة نشير إلى أهمها فيما يلي:

أ- تقوية الإيمان بالقضاء والقدر:

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: على الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «الحج/ 70»، ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «الحديد/ 22».

وعلى المسلمين أن يؤمنوا بمشيئة الله في عموم ملكه فإنه ما من شيء في السماوات أو في الأرض إلا وهو ملك لله عز وجل: مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «المائدة/ 120»، وما من شيء في ملكه إلا وهو بمشيئته وإرادته فبيده الملك، وبيده مقاليد السماوات والأرض، ما من شيء يحدث من رخاء وشدة، وخوف

وأمن، وصحة ومرض، وقلة وكثرة، إلا بمشيئته سبحانه وتعالى. هو سبحانه خالق الإنسان ومديره، فلإنسان عزيمة وإرادة، وله قدرة وعمل، والذي أودع فيه تلك العزيمة وخلق فيه القدرة هو الله عز وجل ولو شاء لسلبه الفكر فضاعت إرادته، ولو شاء لسلبه القدرة فما استطاع العمل.

إن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة لا يتم الإيمان إلا به، لكنه ليس حجة للإنسان على فعل معاصي الله أو التهاون بما أوجب الله، وجه ذلك أن الله أعطاك عقلاً تتمكن به من الإرادة، وأعطاك قدرة تتمكن بها من العمل فلذلك إذا سلب عقل الإنسان لم يعاقب على معصية، ولا ترك واجب، وإذا سلب قدرته على الواجب لم يؤاخذ بتركه.

إن الاحتجاج بالقدر على المعاصي أو ترك الواجبات حجة داحضة باطلة أبطلها الله في كتابه ويبطلها العقل والواقع .

أبطلها الله في كتابه فقال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (النساء/ 165).

ب- الابتلاء جسر يوصل إلى أكمل الغايات:

يقول ابن القيم- رحمه الله:- إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته وجدت أنه ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان، فتأمل حال أبينا آدم عليه السلام وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفع المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجهم من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ما وصل إليه .

ج- الابتلاء وسيلة للتمكين في الأرض:

قيل للشافعي- رحمه الله- يا أبا عبد الله، أيهما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟ (أي بالضراء)، فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا- صلوات الله عليهم أجمعين- فلما صبروا (على الابتلاء) مكّنهم .

د- تمحيص المؤمن وتخليصه من الشوائب المنافية للإيمان:

إن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم أو في أرزاقهم، أو غير ذلك مما يتصل بهم مما يسرهم الكمال فيه ويؤلمهم النقص منه، تكمن حكمتها في التمحيص الناتج عن هذا الابتلاء والامتحان، يقول الله تبارك وتعالى: **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » آل عمران / 140-142.**

فالبلايا والمحن محك يكشف عما في القلوب وتظهر به مكنونات الصدور، ينتفي بها الزيف والرياء، وتتكشف الحقيقة بكل جلاء .. تطهير لا يبقى معه زيف ولا دخل، وتصحيح لا يبقى فيه غش ولا خلل، إن الشدائد والنوازل تستجيش مكنون القوى وكوامن الطاقات. وتتفتح بها في القلوب منافذ ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا حين تعرض للابتلاء، وعند الحوادث يتميز الغش من الصفاء والهلع من الصبر، والثقة من القنوط .

فالابتلاء قد يقتضي في بعض أشكاله أن يكون بالمصيبة وبما تكره النفوس ، وتحمل المؤمن مصائب الامتحان الإلهي بصبر وصدق مع الله ورضا بقضائه وقدره؛ هو من أفضل أعماله الصالحة، التي يكتب الله له بها أجرا عظيما وثوابا جزيلا. قال الله تعالى: ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون « التوبة/ 120- 121»، إن هذه الضراء ليست هي خاتمة المطاف، وسرعان ما تنقشع وتزول، يقول الله تعالى: فإن مع العسر يسرا* إن مع العسر يسرا « الشرح/ 5- 6». فهذه مصائب امتحان، وهي في سبيل الله، وتحملها والصبر عليها من صالحات الأعمال . هـ- الردع والتحذير من الغرور:

إن العقوبة العاجلة على ما اقترفه الإنسان أو الجماعة أو الأمة من معاص تقتضي حكمة المولى- عز وجل- أن تعجل عقوبتها حيث إن فيها ردعا وتحذيرا وعبرة، لهم ولغيرهم من الأفراد والجماعات، وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون « الأعراف/ 163». وقوله عز من قائل: وأخذنا الذين ظلموا بعباد بنيس بما كانوا يفسقون « الأعراف/ 165»، وقال سبحانه: قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكدبين « الأنعام/ 11.

و- الرحمة بالعصاة والتخفيف عنهم يوم القيامة:

من حكمة الابتلاء بالعقوبة أن يعجل الله للمذنب عقوبته فتأتيه في الدنيا تخفيفا عنه يوم القيامة، يقول الله- عز وجل-: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير « الشورى/ 30».

قال علي- رضي الله عنه-: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل، وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه!! وقد روي عنه مرفوعا قوله- رضي الله عنه-: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي صلى الله عليه وسلم: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير، يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه . وعن أنس-

رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» (1)

وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين لما ركب الدّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها .
ز- إقامة حجة العدل على العباد:

يقول ابن القيم- رحمه الله-: «ومنها (أي من الحكم في الابتلاء بالضراء) إقامة حجة عدله عز وجل على عبده ليعلم هذا العبد أن الله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه من المكروه شيء فلا يقول: من أين هذا؟ ولا من أين أتيت؟ ولا بأي ذنب أصبت؟ وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة .

ومن المواقف :

الإمام البويطي : قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ! ! « ...

هو العلامة ، سيد الفقهاء ، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي صاحب الشافعي ولازمه مدة وفاق الأقران ، وكان إماماً في العلم قدوة في العمل زاهداً ربانياً متهجداً ، دائم الذكر .. سعى به أصحاب ابن أبي دؤاد حتى كتب فيه ابن أبي دؤاد إلى والي مصر فامتحنه أي في محنة خلق القرآن فلم يجب ، وكان الوالي حسن الرأي فيه ، فقال له : قل فيما بيني وبينك ، قال : إنه يقتدى بي مئة

ألف ، ولا يدرون المعنى ! ! فأمر به أن يحمل إلى بغداد.
قال الربيع بن سليمان : رأيته على بغل في عنقه غلٌّ ، وفي رجليه قيدٌ وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة طوبة وزنها أربعون رطلاً ، وهو يقول : « إنما خلق الله الخلق » بكن « فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق بمخلوق .. ولئن دخلت عليه لأصدقنه يعني الوثائق ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم. »
وتوفي رحمه الله في قيده مسجوناً بالعراق في سنة إحدى وثلاثين ومئتين من الهجرة.

(1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، انظر سنن الترمذي، حديث رقم (2507).

الإمام نعيم بن حماد : إني مخاصم

هو العلامة صاحب التصانيف ، وكان شديداً في الرد على الجهمية حُمل إلى العراق في إبان تلك الغيمة مع البويطي مقيداً..
وكان يقول : « من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس في ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهه. »
قال ابن يونس : حُمل على القول بتلك الفرية فامتنع أن يجيب فسجن ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومئتين ، وجر بأقياده ، فألقي في حفرة ، ولم يكفن ولم يصلى عليه .. وأوصى نعيم بن حماد أن يدفن في قيوده وقال : « إني مخاصم. »

الإمام الخزاعي : إني لأحتسب خطاي إلى هذا الكافر

هو أبو عبد الله أحمد بن نصر الخزاعي ، كان أماراً بالمعروف ، قوالاً بالحق من أكابر العلماء العاملين ، ومن أهل العلم والديانة.
حمل من بغداد إلى سامراء مقيداً ، وجلس له الواصل فقال له : « ما تقول في القرآن ؟ » قال : « كلام الله » ، قال : « أفمخلوق هو ؟ » قال : « كلام الله » قال : « فترى ربك يوم القيامة ؟ » قال : « كذا جاءت الرواية » قال : « ويحك يرى كما يرى المحدود المتجسم ، ويحويه مكان ، ويحصره ناظر ؟ أنا كفرت بمن هذه صفته ... » ، ما تقولون فيه ؟
فقال قاضي الجانب الغربي : « هو حلال الدم » ووافقه فقهاء ، قال الواصل : « ما أراه إلا مؤدياً لكفره قائماً بما يعتقد » ودعا بالسيف وقام . وقال : « إني لأحتسب خطاي إلى هذا الكافر .. » فضرب عنقه بعد أن مدوا له رأسه بحبل وهو مقيد.

قال الحسن بن محمد الحربي : سمعت جعفر الصائغ يقول : رأيت أحمد بن نصر حين قتل ... قال رأسه : لا إله إلا الله والله أعلم.
وعُلق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها : « هذا رأس أحمد بن نصر دعاه الإمام إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فجعله الله إلى ناره » وبقي رأسه منصوباً ببغداد ، والبدن مصلوباً بسامراء وفي رجليه زوج قيود.

محنة الإمام أحمد بن حنبل مع الخلفاء :

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة : منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية . ويثبتون لله ما أثبتته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء : الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخراعي وغيرهم . ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم : كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجروا أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال : سمعت هارون الرشيد يقول : بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق ، علي إن أظفرتني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط ، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى . فلما تولى المأمون الخلافة ، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن ، فأظهر القول بذلك عام 212 هـ . فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدا بل ترك الناس أحرارا فيما يذهبون إليه ، فلما كان 218 هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم ؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام 218 هـ .

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم : لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحدا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء ، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام

وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ : يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها .
وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك ، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم - : محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي . لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل . إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفة بصلابته وشدته في هذا الأمر .

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل .
وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد ، وألقي الإمام أحمد في الحبس . ويقال : إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام 218 .

ثم تولى الخلافة المعتصم ، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك . وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن ، وعقد له مجلسا مع ابن أبي دؤاد وغيره ؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن ، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة . ويقول لهم : أعطوني دليلا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء ، وأمر المعتصم برده إلى السجن . وفي اليوم التالي حضر من السجن ، وعقد المجلس وكان موقفه رائعا جليلا كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه ، وفشل القوم كفشلهم بالأمس . وانفض الاجتماع ، ورد الإمام أحمد إلى السجن ، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس ، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة . وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطا ، ونصب كرسيا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد ، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى : { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ } (التوبة : 6) .

قال : هل عندك حجة غير هذا ؟ قال : نعم قول الله تعالى : { الرَّحْمَنُ } (الرحمن : 1) { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } (الرحمن : 2) ولم يقل خلق القرآن ، وقال تعالى : { يس } { يس : 1 } { وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ } { يس : 2 } ولم يقل المخلوق ، فقال المعتصم : أعيدوه للحبس وتفرقوا ، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك . وقال : هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس ، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به ، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت .

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن . قال : أقول غير مخلوق ، وأستدل بقوله تعالى : { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } (السجدة : 13) الآية ، قال : فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله ، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم ، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول : أعطوني دليلا من كتاب الله أو كلام رسوله ﷺ ، فقال المعتصم قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط ، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال : انتوني بغيرها .

قال أبو عبد الله : ثم صيرت بين العقابين (1). فعلق الإمام أحمد بالعقابين ، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة ، قال أحمد : وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر ، فقال لي إنسان ممن شهدني : خذ بنابي الخشبتيين بيدك ، وشد عليهما فلم أفهم ما قال . قال : فتخلعت يداي لما شددت ، ولم أمسك الخشبتيين ، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي ، قال أبو عبد الله فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث » (2) . الحديث . فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا . يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك ، يا أمير المؤمنين راقب الله ، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال : يا أمير المؤمنين إن

1 (والعقaban بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس .

2 (صحيح البخاري الديات (6484)، صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1676)، سنن الترمذي الديات (1402)، سنن النسائي تحريم الدم (4016)، سنن أبو داود الحدود (4352)، سنن ابن ماجه الحدود (2534)، مسند أحمد بن حنبل (382/1)، سنن الدارمي الحدود (2298).

تركته قيل : إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله ، أو أن يقال : غلب خليفتين فهاجه ذلك ، وطلب كرسيه جلس عليه ، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين : تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين ، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب ، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد : علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول ؟ فيقول أحمد : أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به ، ثم رجع المعتصم ، فجلس فقال للجلاد : تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول : شدوا قطع الله أيديكم ، قال أحمد : فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صليت والدم يسيل منك فقلت : قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة 218 . ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه ، وقوي جسمه خرج إلى المسجد ، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال : لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق ، وذلك مدة خمس سنوات تقريبا .

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة 232 بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة 234 وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة 218 وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة 234 حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة . وأصدر إعلانا عاما في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن ، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان ، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله ، وسمع الدعاء له من كل جانب ، وذكر اسمه مع اسمي الخليفين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز .

وكان المتوكل يكره العلويين ، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد ، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين ، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر ، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم ، وفي ليلة من الليالي بعد أن

نام الناس ، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة
سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين
وامرأتين أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر
ابن الكلبي صاحب البريد . وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي
في أيامنا هذه . قال مظفر : يقول لك الأمير : إن أمير المؤمنين كتب إليه أن
عندك طلبته العلوي ، وقال ابن الكلبي : نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من
أعداء أمير المؤمنين وقد جننا لأخذه ، فقال الإمام أحمد : إني لا أعرف هذا ولا
أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة .
وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ ، واستأنف
يقول : إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة
المسلمين ، قال ابن الكلبي : قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته
أفحلف ؟ قال أحمد : إن استحلقتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله ، فحلف
وبالطلاق فحلف . وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا ، وحضر ابنه صالح
فقال ابن الكلبي : أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح ، وقام مظفر وابن
الكلبي ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثرأ على شيء وفتشا بيت
صالح ، فلم يجدا شيئا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها
في البئر ، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا .
وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة
والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمر المؤمنين من السمع
والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه ، وأذن الله
بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد
صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله
الذي لم يشمتهم بك .
وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب الموانسة بقربه والتبرك بدعائه
وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة . فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج ، وجاء
بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد
ويؤمنون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم
الإمام أحمد وصمت ولم يرد ، وظهر عليه التبرم بما قالوا .
ومضت الأيام في إدارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد
وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره ، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى
بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه

تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاد فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة .

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه : قد صح نقاء ساحتك ، وقد أحببت أن أنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه ، وحل بالدار نشاط وأنس ، ودب فيها بعد الوحشة دبب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة . قال ابنه صالح : لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمتم إليه فإذا به يبكي فلما رأي قال : ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم . فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال : يا صالح جنني بالميزان وبالدرهم ثم أخذ يزن المال ويقول : وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقتها كلها فلما فرقتها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به .

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية ، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه ، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك .

نزل الإمام بسامراء ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه ، وأن لا يحمله علي شيء يكرهه . عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقتها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم .

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع .

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوفيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة : طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارا لها . ويحضر يحيى بن خالد فيقول : إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتر في حرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ .

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتر ويقول في لهجة مهذبة : تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد : ذاك إليكم وكان يوما مشهودا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم : إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد ، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال . يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد .

يقول ابنه صالح : لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه . وجعل يبكي ويقول : سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم ، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده ؟ ! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه : وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئا منها .

أما الفرش الوفيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها ، وألقى بنفسه على مصرية خشنة له ، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط ، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة .

وأخيرا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقي رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز ، ويقبل على صلاته ما شاء الله ، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابعة لما فيه من عافية احتجابه عنهم . اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح : ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حيناً حتى تبرأ

ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة . والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا ، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله : سمعت أبي يقول : استكملت سبعا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفسا شديدا ، وقال صالح : وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل .

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن علي بن الجعد فحجبه ، وكثر الناس فقال لي : أي شيء ترى ؟ قلت : تأذن لهم فيدعون لك قال :

أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجا ، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده ، ويسألونه عن حاله ، ويدعون له حتى تمتلئ الدار ، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر ، وكثر الناس ، وامتلا الشارع ، وأغلقتنا باب الزقاق ، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به ، وقال : إني لأرى الرجل يجيء شيئا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي : ولجميع المسلمين .

وجاء رجل فقال : تلتف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار ، وأريد أن استحلّه . فقلت له ، فأمسك فلم أزل به حتى قال : أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال : يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار ، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت . قال : على أن لا تعود لمثل ذلك قال : نعم قال : فإني جعلتك في حل فخرج يبكي

وبكى من حضر من الناس ثم قال : وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأنني قد فعلت قال : الحمد لله . ثم قال اقرأ علي الوصية فقرأتها فأقرأها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله ، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها ، ولم يزل يصلي قائما أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتا .

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المراقبة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال : إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال : هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره ، وأصحاب الخير يكتبون بخبره إلى العسكر . والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم

فدخلوا عليه وجعلوا يبكون ، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما

كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال : ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل : لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى . وكان يصلي قاعدا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتقر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال : خلل الأصابع ، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام 241 توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتألت السكك والشوارع وقال صالح : وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت : أقرئ الأمير السلام وقل له : إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره ، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته .

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبا عشاريا قوم بثمانية وعشرين درهما ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفافتين وأخذ منه فوران لفافة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطا وفرغ من غسله وكفناه ، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه ، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير ، وقال صالح : وجه الأمير ابن طاهر فقال : من يصلي عليه ؟ قلت : أنا ، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا : الأمير . فمانعهم فنحياني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر ، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة ، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل : ثمانمائة ألف وقيل : بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف ، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان - رضي الله عنه - يقول في حال صحته : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم يوم الجنائز .

وقد صنفت في ترجمته مصنفات مستقلة منها : المناقب لأبي الفرج بن الجوزي في مجلد ، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين ، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد ، ومنها لأبي زهرة مجلد ، ومنها لأحمد الدومي في مجلد

، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.⁽¹⁾

محنة البخاري

تعرض البخاري للامتحان والابتلاء، وكثيرا ما تعرض العلماء الصادقون للمحن فصبروا على ما أؤذوا في سبيل الله، ولقد حسد البعض البخاري لما له من مكانة عند العلماء وطلاب العلم وجماهير المسلمين في كل البلاد الإسلامية، فأثاروا حوله الشائعات بأنه يقول بخلق القرآن، ولذلك قصة يرويها أبو أحمد بن عدي فيقول: ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل البخاري لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه فحسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه واجتماعهم عليه. فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول اللفظ بالقران مخلوق فامتحنوه في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقران مخلوق هو أم غير مخلوق فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل يا أبا عبد الله فأعاد عليه القول فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة فالتفت إليه البخاري وقال القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

وقالوا له بعد ذلك ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك قال لا أفعل إلا أن تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي وأعجبنني من محمد بن إسماعيل ثباته، وكان يقول أما أفعال العباد فمخلوقة فقد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعي عن حذيفة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يصنع كل صانع وصنعه.

¹ (المصادر : - القاضي أبو الحسين بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة . - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب . أبو زهرة : أحمد ابن حنبل. الدكتور عبد الله العبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد

- عبد الحليم الجندي : أحمد بن حنبل إمام أهل السنة. أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا- ولتر م . باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق: أحمد بن حنبل والمحنة. أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي : الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأمانى , ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد. عبد القادر بن أحمد بن بدران : المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل. عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، أحمد بن حنبل ، مجلة البحوث الإسلامية -

وبه قال وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول سمعت يحيى بن سعيد يقول ما زلت أسمع أصحابنا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة قال البخاري حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق قال الله تعالى {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم} (العنكبوت 49). وقال البخاري: القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر. وقال أيضا: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أنني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله إلا أنني قلت أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري فقلت يا أبا عبد الله هذا رجل مقبول بخراسان خصوصا في هذه المدينة وقد لجج في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى فقبض على لحيته ثم قال "وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد" (غافر 44) اللهم إنك تعلم أنني لم أرد المقام بنيسابور أشرا ولا بطرا ولا طلبا للرئاسة إنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين وقد قصدني هذا الرجل حسدا لما آتاني الله لا غير ثم قال لي يا أحمد إني خارج غدا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، فأخبرت جماعة أصحابنا فو الله ما شيعه غيري كنت معه حين خرج من البلد وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

وقال محمد بن أبي حاتم أتى رجل عبد الله البخاري فقال يا أبا عبد الله إن فلانا يكفرك فقال: "قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما" وكان كثير من أصحابه يقولون له إن بعض الناس يقع فيك فيقول "إن كيد الشيطان كان ضعيفا" (النساء 76)، ويتلو أيضا "ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله" (فاطر 43) فقال له عبد المجيد بن إبراهيم كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك، فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" وقال صلى الله عليه وسلم "من دعا على ظالمه فقد انتصر"

محنته مع أمير بخارى

روى أحمد بن منصور الشيرازي قال سمعت بعض أصحابنا يقول لما قدم أبو عبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق أحد إلا استقبله ونثر عليه الدنانير والدرهم والسكر الكثير فبقي أياما قال فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير

بخارى إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة فقرأ كتابه على أهل بخارى فقالوا لا نفارقه فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج.
قال أحمد بن منصور فحكى لي بعض أصحابنا عن إبراهيم بن معقل النسفي قال رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى فتقدمت إليه فقلت يا أبا عبد الله كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر فقال لا أبالي إذا سلم ديني.

وروي عن بكر بن منير بن خلود بن عسكر أنه قال: بعث الأمير خالد ابن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن أحمل إلي كتاب الجامع و التاريخ وغيرهما لأسمع منك فقال لرسوله أنا لا أدل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي أو في داري وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأنني لا أكتم العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم "من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار" فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

لعل الله يخلصني بدعائهم

وقال أبو عمرو المستملى حضرنا مجلس محمد بن يحيى الذهلي فقرأ علينا كتاب البويطي إليه وإذا فيه والذي أسألك أن تعرض حالي على إخواننا أهل الحديث لعل الله يخلصني بدعائهم فإني في الحديد وقد عجزت عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة فضج الناس بالبكاء والدعاء له .
انظر إلى هذا الحبر رحمه الله لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض ولم يتأثر بالقيود ولا بالسجن فرضى الله عنه وجزاه عن صبره خيرا

اللهم إنك تعلم أنني قد أجبت داعيك فمنعوني

كان أبو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أنني قد أجبت داعيك فمنعوني.⁽¹⁾

الجهاد في سبيل الله :

الجهاد لغة: مثل المجاهدة مصدر قولهم جاهد يجاهد، وذلك مأخوذ من مادة (ج ه د) التي تدلّ في الأصل على المشقة، ثمّ يحمل على هذا الأصل ما يقاربه، ومصدر الثلاثي من ذلك قولهم: جهد (بالفتح)، وجهد (بالضمّ) وكلاهما يعني إمّا: الوسع والطاقة أو التعب والمشقة، ومن ثمّ يكون الاختلاف بين الفتح والضمّ راجعا إلى اختلاف اللهجات، فهو بالضمّ لغة أهل الحجاز، وبالفتح في لغة غيرهم، وقال بعض اللّغويين: إنّ الجهد بالفتح المشقة، وبالضمّ الوسع والطاقة، ومن الجهد بمعنى المشقة قولهم جهد دابّته وأجهدّها إذا حمل عليها في السّير فوق طاقتها، ومن المشقة أيضا: جهد الرّجل فهو مجهود، يقال أصابهم قحوط من المطر فجهدوا جهدا شديدا، وجهد عيشهم بالكسر أي نكد واشتدّ. ومن الجهد بمعنى الطاقة قوله- عزّ وجلّ- وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمُ (التوبة/ 79).

أي طاقتهم، قال ابن منظور: قال الفرّاء: الجهد في هذه الآية الطاقة، تقول هذا جهدي أي طاقتي، وقرأ جهدهم بالفتح من قولك اجهد جهدك في هذا الأمر أي ابلغ غايتك، ولا يقال اجهد جهدك، وقيل: إذا كان المعنى هو المشقة أو الغاية فالفتح لا غير، وإذا كان الوسع والطاقة فيجوز الفتح والضمّ، ويراد بالجهد في حديث أمّ معبد «شاة خلفها الجهد عن الغنم» الهزال، ومن ذلك قولهم:

جهد الرّجل إذا هزل، قال الجوهريّ: يقال جهد الرّجل فهو مجهود (من المشقة)، يقال: أصابهم قحوط من المطر فجهدوا جهدا شديدا، وجهد عيشهم (بالكسر) أي نكد واشتدّ.

ومن الجهد (بالضم) ما جاء في حديث الصدّقة: أيّ الصدّقة أفضل؟ قال: جهد المقلّ أي قدر ما يحتمله حال القليل المال.

والاجتهاد: أخذ النّفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة، يقال جهدت رأيي وأجهدته: أتعبته بالفكر، وجاهد العدو مجاهدة وجهادا: قاتله، وفي الحديث: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، الجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل، والمراد بالنية: إخلاص العمل لله، أي إنّّه لم يبق بعد فتح مكّة هجرة؛ لأنّها قد صارت دار إسلام، وإنّما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفّار، والجهاد (أيضا) المبالغة

واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء، قال الراغب: والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس؛ وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ (الحج/78) وقال عليه الصلاة والسلام: جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم، والمجاهدة تكون باليد واللسان، قال صلى الله عليه وسلم «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم» .

و اصطلاحاً: قال الراغب: الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وقال الجرجاني: هو الدّعاء إلى الدين الحقّ، وقد جمع ابن حجر بين هذين النوعين من الجهاد وأضاف غيرهما فقال: الجهاد بذل الجهد في قتال الكفار. ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق والكفار. فأما مجاهدة النفس، فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها ثم على تعليمها. وأما مجاهدة الشيطان، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزيّنه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد والمال واللسان والقلب. وأما مجاهدة الفساق، فباليد ثم اللسان، ثم القلب .

قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) « البقرة: 153- 154 »

قال تعالى : " وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) « آل عمران: 139- 143 »

قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) « آل عمران: 156- 158 »

قال تعالى : " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي
وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) » آل عمران: 195

«

قال تعالى : " فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ
يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا
تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا (76) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ
أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ
مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) » النساء:

74- 77 «

قال تعالى : " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) » التوبة: 60 «

قال تعالى : " وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ
أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ
الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
(88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ (89) » التوبة: 86- 89 «

قال تعالى : " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) » التوبة: 111 «

قال تعالى : " ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) »
التوبة: 120 «

قال تعالى : " ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) « النحل: 110 »
قال تعالى : " وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) « الحج: 58-59 »

قال تعالى : " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) « التوبة: 41 »
قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) »
الحج: 77-78 «

قال تعالى : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) « البقرة: 190-193 »

وقال تعالى : " فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكَلْفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (84) »
النساء: 84 «

قال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) « النساء: 94 »

قال تعالى: " لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96) » النساء: 95- 96 «

وعن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أفضل العمل: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله»⁽¹⁾.
وعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»⁽²⁾
وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى علي: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (النساء/ 95). قال فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملأها علي. فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان رجلا أعمى- فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فحذه على فخذي. فتقلت على حتى خفت أن ترض فخذي. ثم سري عنه، فأنزل الله- عز وجل- غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ⁽³⁾

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»⁽⁴⁾
عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»⁽⁵⁾

¹ (البخاري- الفتح 5 (2518) واللفظ له. ومسلم (84).

² (الترمذي (2616) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

³ (البخاري- الفتح 6 (2832).

⁴ (البخاري- الفتح 6 (2790).

⁵ (البخاري- الفتح 1 (26) واللفظ له. ومسلم (83) من حديث أبي هريرة و(84) من حديث أبي ذر، و(85) من حديث ابن مسعود.

عن مجاشع بن مسعود- رضي الله عنه- قال: انطلقت بأبي معبد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه على الهجرة. قال: «مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد». فلقيت أبا معبد، فسألته فقال: صدق مجاشع⁽¹⁾ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر، أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم. لونه لون دم، وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده، لولا أن يشقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا. ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشقّ عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لو ددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل⁽²⁾».

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: يا رسول الله أيّ الناس خير؟ قال: «رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره⁽³⁾».

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دلّني على عمل يعدل الجهاد. قال: «لا أجده». قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن⁽⁴⁾ في طوله⁽⁵⁾ فيكتب له حسنات⁽⁶⁾ وعن سلمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتن⁽⁷⁾».

¹ (البخاري- الفتح 7 (4307) واللفظ له. ومسلم (1863).

² (البخاري- الفتح 6 (3123) إلى قوله (أو غنيمة) ومسلم 3 (1876).

³ (البخاري الفتح 11 (6494) واللفظ له. وله لفظ آخر 6 (2786): أي الناس أفضل؟ فقال:

«مؤمن يجاهد...».

⁴ (استن الفرس يستن استنانا: أي عدا لمرحه ونشاطه شوطا أو شوطين ولا راكب على ظهره

⁵ (الطول والطيل بالكسر: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى.

⁶ (البخاري- الفتح 6 (2785).

⁷ (الترمذي (1165) وقال: حديث حسن صحيح. وعند البخاري من حديث سهل بن سعد، وعند مسلم (1881) نحوه.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرّات، لما يرى من الكرامة⁽¹⁾ وعن عائشة- رضي الله عنها-: أن سعدا قال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم.

قال مجاهد رحمه الله: قلت لابن عمر:

«الغزو»، قال: «إني أحب أن أعينك بطائفة من مالي»، قلت: «أوسع الله عليك»، قال: «إن غناك لك، وإني أحب أن يكون من مالي في هذا الوجه»، وقال عمر:

«إن ناسا يأخذون من هذا المال ليجاهدوا، ثم لا يجاهدون فمن فعله فنحن أحق بماله حتى نأخذ منه ما أخذ».

(قال ابن دقيق العيد: «الجهاد أفضل الأعمال مطلقا؛ لأنه وسيلة إلى إعلان الدين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه؛ ففضيلته بحسب فضيلة ذلك، والله أعلم»)

(قال العزّ بن عبد السلام: «إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار فما الظنّ بمن بذل ماله وغرّر بنفسه في قتال الكفار.

(وقال نقلا عن بعض أهل العلم: «إن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد.

وقال أيضا: «إنما شرفت النفقة في سبيل الله؛ لأنها وسيلة إلى أفضل الأعمال بعد

الإيمان، وإذا كانت حسنة الوسيلة بسبعمائة فما الظنّ بحسنة الجهاد في سبيل الله.

وقال أيضا: «إنما ضمن الله الرّجعة والرّضوان والغفران لمن جاهد في سبيله ابتغاء مرضاته ونصرة دينه، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه.

وقال: «لما بذل الشهداء أنفسهم من أجل الله، أبدلهم الله حياة خيرا من حياتهم التي بذلوها وجعلهم جيرانه، يبیتون تحت عرشه ويسرحون من الجنة حيث شاءوا، لما انقطعت آثارهم من السّروح في الدنيا.

¹ (البخاري- الفتحة 6 (2817) واللفظ له. وأحمد (3/ 103).

وقال: «من سهر في سبيل الله فقد ترك غرضه من النوم؛ طاعة لله بما يتجشّمه من خوف العدو؛ ولذلك حرّمت عينه على النار.

وقال: «يشرف البذل بشرف المبذول، وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله، ولمّا كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله من بذل نفسه في أعلى رتب الطّائعين وأشرفها لشرف ما بذله، مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز الدّين وصون دماء المسلمين.

من فوائد الجهاد في سبيل الله :

- الجهاد من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- هو دليل على حسن الظنّ بالله وقوّة اليقين.
- الجهاد لإعلاء كلمة الله فيه عزّ الإسلام والمسلمين وقمع الشّرك وأعدائه.
- لولا الجهاد لاستفحل الشّرّ ولفسدت الأرض.
- فيه تمحيص للقلوب واختبار للنّفوس.
- الشّهداء أحياء عند ربّهم يرزقون.
- من أسباب التّمكن في الأرض.
- الجهاد فيه إرضاء لله وإدلال ودحر للشّيطان وأعدائه.
- من أفضل كسب المؤمن غنائم الجهاد.
- جهاد الأعداء والانتصار عليهم فيه شفاء لصدور المؤمنين، وإذهاب لغيظ قلوبهم.
- به ينال العبد أعلى الجنان ويقرب من عرش الرّب الرّحمن.
- من أسمى معاني الجهاد إعلان العبوديّة لله- عزّ وجلّ- ودحض ما سواها.
- ليس ثمة عمل يعدل الجهاد في سبيل الله.
- من الضّرورة بمكان أن يسأل العبد ربّه الشّهادة في سبيل الله دائماً.

ومن المواقف :

تجز ذؤابتها للجهاد

قال العتبيّ: سبأ الروم نساءً مسلماتٍ فبلغ الخبر الرّقة وبها الرشيد ومنصور بن عمّار هناك، فقصّ منصور يحضّ على الغزو، فإذا خرقةً مصرورةً مختومة قد طرحت إلى منصور، وإذا كتاب مضمومٌ إلى الصرّة فقرأه فإذا فيه: إنّني امرأةٌ من بيوتات العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وبلغني تحضيضك على الغزو، فعمدت إلى أكرم شيء في بدني عليّ، وهما ذؤابتي،

فجززتهما وصررتهما في هذه الصرة المختومة، فأنشدك بالله العظيم لما جعلتهما قيد فرس غازٍ في سبيل الله، فعَلَّ الله ينظر إليَّ نظرةً على تلك الحال فيرحمني، فبلغ ذلك الرشيد فبكى ونادى النفير.

تعليق

قد أتت هذه المرأة بما دلّ على خلوص دينها و صحة يقينها، وغضبها لربّها، وغيرتها على أهل ملّتها، وامتعاضها عندما بلغها من انتهاك أعداء الله محارمه التي حرّمها، واستخفافهم بحدود الإسلام التي عظّمها، وقصدت بما أتته من جزّها ذوابتيها التقرب إلى خالقها ورجاء مغفرته لها، والله يحقّق برأفته وسعة رحمته رجاءها، ويغفر لنا ولها، ولم تقصد بما فعلته الأمر الذي حرّم عليها فيؤثّمها، فقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه لعن الغارفة وهي التي تجزّ ناصيتها عند المصيبة، وإلى الله نرغب في أن يجعلنا ممّن يغضب له ويحام عن دينه ويوالي ويعادي فيه، بتوفيقه (1).

لو قيل لي شيء من هذا

يروى البخاري فيقول كنت بنيسابور أجلس في الجامع فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبد الله والي نيسابور فأخبروه بمكاني فاعتذر إليهم وقال مذهبنا إذا رفع إلينا غريب لم نعرفه حبسناه حتى يظهر لنا أمره فقال له بعضهم: بلغني أنه قال لك لا تحسن تصلي فكيف تجلس فقال لو قيل لي شيء من هذا ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديث في الصلاة خاصة.

أنت الذي يقول إني أحفظ سبعين ألف حديث

قال أبو جعفر سمعت أبا عمر سليم بن مجاهد يقول كنت عند محمد بن سلام البيهقي فقال لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث قال فخرجت في طلبه حتى لحقته قال أنت الذي يقول إني أحفظ سبعين ألف حديث قال نعم وأكثر ولا أجيبك بحديث من الصحابة والتابعين إلا عرفتكم مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروي حديثا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي من ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال محمد بن يعقوب بن الأخرم: سمعت أصحابنا يقولون لما قدم البخاري نيسابور استقبله أربعة آلاف رجل ركبانا على الخيل سوى من ركب بغلا أو حمارا وسوى الرجال.

¹ (المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 415-414/1

فوجدها في سراق الطاغية تقاتل الترك

وكان حبيب بن مسلمة الفهري رجلا غزاء للترك فخرج ذات مرة الى بعض غزواته فقالت له امرأته اين موعذك قال سراق الطاغية او الجنة ان شاء الله تعالى قالت اني لأرجو ان اسبقك الى اي الموضعين كنت به ف جاء فوجدها في سراق الطاغية تقاتل الترك (1).

وجميع ملكي لك الفداء

قال محمد بن أبي حاتم ركبنا يوما إلى الرمي، فجعلنا نرمي وأصاب سهم أبي عبد الله البخاري وتد القنطرة الذي على نهر واردة فانشق الود فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته فأخرج السهم من الود وترك الرمي وقال لنا ارجعوا ورجعنا معه إلى المنزل. فقال لي يا أبا جعفر لي إليك حاجة مهمة قالها وهو يتنفس الصعداء، وقال لمن معنا اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته فقلت أية حاجة هي. قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت نعم على الرأس والعين. قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة فتقول له إنا قد أخللنا بالود فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه وتجعلنا في حل مما كان منا. وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفبري. فقال لي أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له أنت في حل مما كان منك وجميع ملكي لك الفداء وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أنني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي فأبلغته رسالته فتهلل وجهه واستنار وأظهر سرورا وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوا من خمسمائة حديث وتصدق بثلاث مائة درهم.

كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟

وقال حاتم: كنا مع شقيق في مصافٍ نحارب الترك في يوم لا ترى إلا رؤوس تطير ورماح تقصف وسيوف تقطع، فقال لي: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفت إليك امرأتك؟ قال: لا والله، قال: لكنني والله أرى نفسي هذا اليوم مثل ما كنت تلك الليلة، ثم نام بين الصفيين، ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيته.

أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير

لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، ف قيل : هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه، يبصبص بأصبغه نحو السماء. قال : تلك الأصبع أحب إليّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير، وهذا فهم راسخ

(1) أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، 297/1

من قتيبة بن مسلم الباهلي لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به واستلهاً النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القوى بمراحل عديدة ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه واطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده قال تلك الكلمات الإيمانية الرفيعة : تلك الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير. إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُد والمواقع، إنما هو حسابات البشر والله ﷻ قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيراً حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء، وهذا الفهم الرفيع من قتيبة رحمه الله يبين لنا سبباً مهماً من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتولى أكثر من عشر سنوات فبالرغم من كونه بطلا لا يُشَقُّ له غبار، وقائداً مخططاً يضع للأمور أقرانها، وسياسياً محنكا لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى⁽¹⁾.

فإن فاجئنا العدو كان بنا حراك

وقال ابن أبي حاتم ورأيت استلقى على قفاه يوماً ونحن بفربر في تصنيفه كتاب التفسير وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له إني أراك تقول إني ما أثبت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فما الفائدة في الاستلقاء قال أتعبنا أنفسنا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن استريح وأخذ أهبة فإن فاجئنا العدو كان بنا حراك.

¹ (سير أعلام النبلاء ، 121/6 ، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار ، 3/ 186)

فتح عمورية على يد المعتصم سنة 223 هـ:

"في هذه السنة أوقع ملك توفيل بن ميخائيل بأهل سلطته من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من

جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم -قبحه الله-.

ولما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقه، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه وخرج بالجيش إعانة للمسلمين فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وشمر راجعاً إلى بلاده وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عندهم أشرف من القسطنطينية" (1) فعزم على فتحها.

رب وامعتصماه انطلقت ... ملء أفواه الصبايا اليتيم

صادفت أسماعنا لكنها ... لم تصادف نخوة المعتصم

تجهّز المعتصم جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال وقدم المعتصم إليها صبيحة يوم الجمعة لست خلون من رمضان فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، وقد تحصّن أهلها تحصيناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة، وقسم المعتصم الأبراج بالأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين، وكان قد تنصّر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبنى بناءً ضعيفاً بلا أساس، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق لجعلوا فوقها البرادع ليردوا حرة الحجر فلم تغن شيئاً وانهدم

السور من ذلك الجانب وتفسّخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا الجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لأمير سموه من أمراء المسلمين، فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب من "مناطس" نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة، فأسلما من فورهما، فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت حصن "مناطس" فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلغنها وتسبهما، ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب، ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها، أعمل المجانيق في مقاومة السور وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك، وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنوا من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من نادى في الناس: إنما ذلك سقوط السور ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً لكن لم يكن ما هدم يسع الخيال والرجال إذا دخلوا، وقوى الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير -وندوا- الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقيه من الحصار فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون بحفظه. "قال" "وندوا": إن الحرب على وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فصيروا أصحابكم على التلثة يرمون قليلاً وإلا افتضحتم. وذهبت المدينة فأبوا أن يمدوه بأحد".

فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به (ليطلب الأمان على الذرية) فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة، فركب المسلمون وتقدموا إلى الثملة، ولم يقدر الروم على دفع المسلمين بعد أن تكاثروا ودخلوا المدينة قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وقد حشروهم في كنيسة هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب وهو مناطس في حصن منيع فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه "مناطس" فناداه المنادي ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك فقالوا: ليس بمناطس ها هنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس ... هذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلع عليه الحسن الرومي فقال له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحصى ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقى من ذلك، وإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بهما الروم على شيء من حرب المسلمين". (1)

وأما اليوم فـ:

ربّ وا معتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتيم
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم
أمتي هل لك بين الأمم منبرٌ للسيف أو للقلم
أتلّقاك وطرفي حاسرٌ خجلاً من أمسك المنصرم
الإسرائيل تعلو راية في حمى المهدي وظل الحرم
أوما كنت إذا الموت اعتدى موجة من لهبٍ أو من دم
كم من امرأة اليوم تقول: وا معتصماه! وإسلاماه! في أفغانستان و فلسطين
و الفلبين ولا يجيبها مجيب، كم من طفل يقتل! كم من مسجد يهدم! كم من
شعيرة لله عز وجل تسحق! ثم لا مجيب يجيب! بلغت الأمة من الذلة والمهانة

(1) نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان ، ص336

يوم تركت الجهاد وتخلت عن الدين مبلغاً لا يعلمه إلا الله، يقول عليه الصلاة والسلام: { إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم } وبيع العينة منتشرة وهي أن تباع السلعة من الرجل ديناً، ثم يشتريها بثمن أقل قسطاً قسطاً ومقدماتاً وهذا موجود وفاش { وأخذتم أذناب البقر } تتحول الأمة من أمة جهاد إلى أمة مزارعة، والزراعة ليست حراماً، لكن أبطال الإسلام وشباب لا إله إلا الله وحملة التوحيد يتحولون إلى باعة بطاطس، وخيار وباذنجان وجرجير وخس في الأسواق، ويصبح حمل السلاح لا يطيقه إلا القليل، ويصبح الآلاف من الشباب لا يستطيع أحدهم شحن المسدس والرمي به، ولا يحمل الرشاش، بل أجزم جزمًا لو اعتدي على كثير من البيوت الآن لما استطاع الشباب المدافعة عن بيوتهم، بعضهم لا يملك سلاحاً، عندهم سكاكين للبصل في المطبخ، والسلاح أصبح كيماوي ومزدوج، وبعضهم عنده سلاح لكنه لا يستطيع أن يرمي، ولا يصيب الهدف، وما لديه تدريب قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: 60] والرسول عليه الصلاة والسلام ربي شبابيه على القوة العسكرية وعلى حمل السلاح والأنفة، اسمع إلى أبي تمام يصور معركة المعتصم في عمورية، لما انتهى المعتصم، وعاد إلى بغداد، عاد وعلم النصر فوق رأسه والعلماء يكونون لنصر الله ويفرحون، واستقبلته الأمة ونساء الأمة وأطفال الأمة، لأنهم أثبت عدة لآله إلا الله، وقف أبو تمام يحيي هذا البطل ويقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
ثم قال:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب
ثم يروي أبو تمام قصة المنجمين الذين أتوا قبل المعركة إلى المعتصم وقالوا: لا تحاربوهم هذا الشهر، قال: ولم؟ قالوا: لأن برج الثور حل علينا، وبرج الثور إذا حل، لا ينتصر المقاتل، قال: آمنت بالله وكفرت بكم، قال: أبو تمام:

أين الرواية أم أين الدراية كم صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
طلاسم وأحاديث منمقة ليست بنفع إذا عدت ولا غرب
فالنصر في شهب الأرماح لامة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

فالنصر في السيوف وليس في النجوم، إلى أن يقول في آخرها:
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
إلى أن يقول للخليفة: أنت لست الذي انتصر، بل الله الذي رمى بك: { وَمَا
رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال:17]:

رمى بك الله جنبها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب
إنه تدبير الله وقوته { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }
[غافر:51-52] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ
{ [محمد:7] { إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ } [آل عمران:160] إِنْ يَخْذُلْكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَتَصْرَفَاتِكُمْ وَأَكْلِكُمْ الرِّبَا
وَسَكَوَتَكُمْ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ؛ تَبْرَجَ النِّسَاءُ، وَانْتَشَارَ الْمَخْذِرَاتُ، وَضِيَاعُ الشَّبَابِ:
{ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ } [آل عمران:160] من يقدم
لكم النصر؟ فهذه أمور عاشها السلف . (1)

إِذَا جَاءَهُ سَهْمٌ فَذَبَحَهُ فَأَلْقَاهُ عَنِي

قال حاتم الأصم: كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافو الترك في يوم لا أرى فيه
إلا رؤوساً تندر، وسيوفاً تقطع، ورماحاً تقصف، فقال لي شقيق ونحن بين
الصفين: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثله في الليلة التي
زفت إليك امرأتك؟ قلت: لا، والله. قال: لكني والله، أرى نفسي في هذا اليوم
مثله في الليلة التي زفت فيها امرأتي. قال: ثم نام بين الصفين ودرقته تحت
رأسه حتى سمعت غطيظه. قال حاتم: ورأيت رجلاً من أصحابنا في ذلك اليوم
يبكي فقلت: مالك؟ قال: قتل أخي. قال: قلت: حبط أجرك، صار إلى الله وإلى
رضوانه. قال: فقال لي: اسكت، ما أبكي أسفاً عليه ولا على قتله، ولكني أبكي
أسفاً ألا أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف به. قال حاتم:
فأخذني في ذلك اليوم تركي فأضجعتني للذبح فلم يكن قلبي به مشغولاً، كان
قلبي بالله مشغولاً أنظر ماذا يأذن الله به في، فبينما هو يطلب السكين من خفه
إِذَا جَاءَهُ سَهْمٌ فَذَبَحَهُ فَأَلْقَاهُ عَنِي.

يُصَارِحُ الْحَجَّاجَ بِرَأْيِهِ فِي أَخِيهِ

قال محمد بن الحسن بن دريد: بلغني أن طاووساً كان يقول: بينا أنا جالس مع
الحجاج بمكة إذ مر رجل يلبي حول البيت، فرفع صوته بالتلبية، فقال
الحجاج: علي بالرجل، فأتي به، قال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال:

ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت، قال: عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ قال: تركته عظيماً جسيماً، ركاباً خراجاً ولاجاً، قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعم سألت؟ قال: عن سيرته؟ قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق، قال: فما الذي حملك علي بهذا فيه، وأنت تعرف مكانه مني؟ قال: أتراه مكانه منك أعز بمكاني من الله عز وجل وأنا قاضي دينه، ووافد بيته، ومصدق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فسكت الحجاج فما أحرار جواباً، وقام الرجل فدخل الطواف. فاتبعته فإذا هو في الملتزم، وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك، اللهم فاجعل لي في الكهف إلى جودك، والرضا بضمانك، مندوحةً عن سواك الباخلين، وغنى عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فلما كان عشية عرفة، رأيته واقفاً على الموقف فدنوت منه، فسمعته يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني الأجر على مصيبتني بتركك القبول مني، قال: فلما كان غداة جمع أفاض مع الناس، فسمعته يقول: يا سوءتاه منك يا رب وإن غفرت. ثم لم أره بعد ذلك⁽¹⁾.

ذكر الله عز وجل :

الذكر هو جلاء القلوب وصقالها , ودواؤها اذا غشيتها اعتلالها وكلما ازداد الذكر فى ذكره استغراقا ازداد المذكور محبة الى لقائه واشتياقا , واذا وطأ فى ذكره قلبه للسانه نسي فى جنب ذكره كل شئ وحفظ الله عليه كل شئ وكان له عوضا من كل شئ .

وبه يزول الوقر عن الاسماع , والبكم عن الألسن , وتنقشع الظلمه عن الأبصار .

زين الله به السنة الذاكرين كما بالنور أبصار الناظرين .

والذكر منشور الولاية الذى من أعطيه اتصل , ومن منعه عزل , وهو قوت قلوب القوم الذى متى فارقتها صارت الاجساد لها قبور , وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورا .

وهو منزل القوم الذى منه يتزودون وفيه يتجرون وإليه دائما يترددون وهو سلاحهم الذى به يقاتلون قطاع الطرق , وماؤهم الذى يطفئون به النهاب الطريق , ودواء أسقامهم الذى متى فاقهم انتكست منهم القلوب , والسبب الواصل والعلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيب .

إذا مرضنا تداوينا بذكركم :::: فنترك الذكر أحيانا فننتكس

به يستدفعون الافات , ويستكشفون الكربات , وتهون عليهم به المصيبات . إذا اضلتهم البلاء فإليه ملجؤهم , وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم , فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون , ورؤوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون , يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً .

وفى كل جارحه من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودته القلب واللسان , وهى غير مؤقتة , با هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل مكان قياما وقعودا وعلى جنوبهم , فكما ان الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها .

والذكر باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصرى رحمه الله : تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء : فى الصلاة وفى الذكر وقراءة القران فإن وجدتهم 0 0 0 0 0 0 0 0 وإلا فاعلموا ان الباب مغلق .

وبالذكر يصرح العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان . قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه صرعه كما يصرع

الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟
(1) فيقال : قد مسه الإنس .

ما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذكره .
قال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكره ولا طابت الآخرة إلا بعفوه ولا طابت
الجنة إلا برويته .

أبدا نفوس الطالبين ::: إلى رياضكم تحن
وكذا القلوب بذكركم ::: بعد المخافة تطمئن
حنّت بذكركم ومن ::: يهوى الحبيب ولا يحن
وفى القلب خلة وفاقة لا يسدها شئ البتة إلا ذكر الله عز وجل , فإذا صار
الذكر شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبعاً له ,
فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة وفنى الفاقة , والذكر يجمع المفترق ويفرق
المجتمع ويقرب البعيد ويبعد القريب فيجمع ما تفرق على البعد من قلبه
وإرادته وهمومه وعزومه , والعذاب كل العذاب فى تفرقها وتشتتها عليه ,
وانفرطها له فى اجتماع قلبه وهمه وعزومه وإرادته .
يفرق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوت
حظوظه ومطالبه .

يفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياها وأوزارها .
يفرق ما اجتمع على حربه من جند الشيطان فإن إبليس لا يزال يبعث له
سرية بعد سرية وكلما كان أقوى صلباً لله سبحانه وتعالى وأمثل تعلقاً به
وإرادة له كانت السرية أكتفت وأكثر وأعظم شوكة بحسب ما عند العبد من
مواد الخير والإرادة ولا سبيل على تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر .
ويقرب إليه الآخرة فلا يزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها .
والذكر ينبه القلب من نومه , ويوقظه من سنته , والقلب إذا كان نائماً فاتته
الأرباح والمتاجر , وكان الغالب عليه الخسران , فإذا استيقظ وعلم ما فاتته
فى نومته شد المنزر وأحيا بقية عمره واستدرك ما فاتته , ولا تحصل يقظته
إلا بالذكر فإن الغفلة نوم ثقيل .

والذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون , والذكر
يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ويعدل عتق الرقاب , والحمل على
الخيل فى سبيل الله ويعدل الضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل , وهو خير
الأعمال على الإطلاق قال رسول الله ﷺ : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها

(1) ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج2، ص 421، 422

عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الورق والذهب وخير لكم أن تلتقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟" قالوا : بلى يا رسول الله. قال : "ذكر الله"

قال تعالى : "يا أيها الذين امنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا " (الاحزاب : 41-42)

يقول سيد قطب : وذكر الله اتصال القلب به والاشتغال بمراقبته وهو ليس مجرد تحريك اللسان وإقامة الصلاة ذكر الله

وهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه ويتصل به قلبه سواء جهر بلسانه بهذا الذكر ام لم يجهر والمقصود هو الاتصال المحرك الموحى على أية حال . وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به فإذا هو ملئ جاد قار يعرف طريقه ويعرف منهجه ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه !

ومن هنا يخص القرآن كثيرا وتحض السنة كثيرا على ذكر الله ويربط القرآن بين هذا الذكر وبين الأوقات , والأحوال التي يمر بها الإنسان لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة على الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى .

"وسبحوه بكرة وأصيلا"

وفي البكرة والأصيل خاصة ما يستجيش القلوب إلى الاتصال بالله مغير الأحوال , ومبدل الظلال وهو باق لا يتغير ولا يتبدل ولا يحول ولا يزول وكل (2) شئ سواه يتغير ويتبدل ويدركه التحول والزوال

وقال تعالى : "واذكر ربك إذا نسيت " (الكهف : 24)

وقال تعالى في سورة ال عمران في وصف المؤمنين : "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار " (آل : 191)

عن عيسى عليه السلام انه قال: طوبى لمن كان قلبه تذكره ونظره عبرا قال لقمان الحكيم: إن طول الوحدة ألهم للفكرة , وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة .

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ولا فهم امرئ قط إلا علم , ولا علم امرؤ قط إلا عمل .

(1) الترمذى وابن ماجه

(2) الظلال ، ج 5، ص 2871 .

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن , والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة .

وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا ابن ادم الضعيف , اتق الله حيث ما كنت , وكن فى الدنيا ضيفا , واتخذ المساجد بيتا , وعلم عينيك البكاء , وجسدك الصبر , وقلبك الفكر , ولا تهتم برزق غد .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بكى يوما بين أصحابه فسئل عن ذلك ؟ فقال: فكرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها , ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها , ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها (1) موا عظ لمن اذكر .

قال تعالى لموسى عليه السلام: " اذهب أنت وأخوك باياتى ولا تنيا فى ذكرى . { طه : 42 } "

وقال تعالى على لسان نبيه موسى: " كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا " (طه : 33 - 35)

وقال تعالى ا: " يا أيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (الأنفال : 45)

وفى الأثر الإلهى: " إن عبدى – كا عبدى – الى يذكرنى وهو ملاق قرنه " . قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يستشهد به .

وسمعه يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه فى هذه الحال كما قال عنتره:

ولقد ذكرتک والرماح كأنها :::: أشطان بئر فى لبان الأدهم
وقال الآخر:

ذكرتک والخطى يحطر بيننا :::: وقد نهلت منا المثقفة السمر
قال آخر :

ولقد ذكرتک والرماح شواجر :::: نحوى وبيض الهند تقطر من دمی

(1) ابن كثير : تفسير القرآن ، ج، ص 438 .

وهذا كثير فى أشعارهم وهو مما يدل على قوة المحبة , فإن ذكر المحب محبوبه فى تلك الحال التى لا يهم المرء فيها غير نفسه يدل على أنه عنده (1) بمنزلة نفسه أو أعز منها

وقال تعالى : "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ {الجمعه : 10} وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " {الاحزاب : 35} وقال تعالى :

وذكر الله كثيرا : وهو حلقة الاتصال بين نشاط الانسان كله وعقيدته فى الله . واستشعار القلب لله فى كل لحظه فلا ينفصل بخاطر ولا حركة عن العروة الوثقى .

(2) . واشراق القلب ببشاشة الذكر الذى يسكب فيه النور والحياة

{البقرة : 200} وقال تعالى :

{الحديد : 16} وقال تعالى

{الانفال : 2} وقال تعالى

انها الارتعاشة الوجدانية التى تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله فى امر او نهى فيغشاه جلاله وتنتفض فيه مخافته , ويتمثل عظمة الله ومهابته الى جانب تقصيره هو وذنبه فينبعث الى العمل والطاعة.... او هى كما قالت ام الدراء – رضى الله عنها – فيما رواه الثورى عن عبد الله بن خيثم عن شهر بن حوشب عن ام الدرداء قالت : الوجل فى القلب كاحتراق السعفة , اما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى . قالت : اذا زجدت ذلك فادع الله عند ذلك , فإن الدعاء يذهب ذلك.....

انها حال ينال القلب منها امر يحتاج الى الدعاء ليستريح منها ويقر! وهى الحالة التى يجدها القلب المؤمن حتى يذكر الله فى حدود امر او نهى فيأتمر معها وينتهى كما يريد الله , وجلا وتقوى لله . " واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا "

والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده ايمانا وما ينتهى به الى الاطمئنان... ان هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة ولا يحول بينه وبينه شئ الا الكفر الذى يحجبه عن القلب , ويحجب القلب عنه , فاذا رفع هذا الحجاب بالايمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ووجد فى آياته المتكررة زيادة فى الايمان تبلغ به الى الاطمئنان...وكما ان ايقاعات القرآن

(1) ابن القيم : مدارج السالكين ، ج2، ص428، 427.

(2) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج5، ص2863.

على القلب المؤمن تزيده ايمانا فان القلب المؤمن هو الذى يدرك هذه
الايقاعات التى تزيده ايمانا لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه
الحقيقة فى امثال قوله تعالى ومن ذلك قول احد الصحابة رضوان الله عليهم
0(1) : كنا نؤتى الايمان قبل ان نؤتى القرآن

{البقرة : 152} وقال تعالى :

{النساء: 103} وقال تعالى :

{الزخرف:36} وقال تعالى :

وقد قضت مشيئة الله فى خلقه الانسان ذلك , واقتضت انه حين يغفل قلبه عن
ذكر الله يجد الشيطان طريقة اليه فيلزمه ويصبح له قرين سوء يوسوس له
ويزين له السوء , وهذا الشرط وجوبه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة
الكلية .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين ان يصدوا قرنائهم عن سبيل الله بينما
هؤلاء يحسبون انهم مهتدون:

(2) { ال عمران : 41} وقال تعالى :

وقال رسول الله ﷺ " أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شئ وعليك
بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فإنه
(1) روحك فى السماء وذكرك فى الأرض "

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الاعمال احب الى الله عز
(2) وجل ؟ قال " ان تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل "

وعن معاذ بن جبل يرفعه ايضا : " ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة
(3) مرت بهم ولم يذكروا الله عز وجل فيها "

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ انه قال : " ما من ساعة تمر بابن
(4) ادم لا يذكر الله تعالى إلا تحسر عليها يوم القيامة "

وعن قيس بن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ ثلثى الله عليه وسلم : " ألا
(5) أدلك على باب من أبواب الجنة ؟ لا حول ولا قوة الا بالله "

(1) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج3، ص1475.

(2) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ج5، ص3189.

(1) أحمد.

(2) ابن حبان والبخاري.

(3) الطبراني والبيهقي.

(4) البيهقي.

(5) أحمد والترمذي.

وقال رسول الله ﷺ : " أكثرُوا من : لا حول ولا قوة الا بالله فإنها من كنز (6) الجنة "

وقال رسول الله ﷺ : " الا ادلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ (7) تقول: لا حول ولا قوة الا بالله فيقول الله: أسلم عبدى واستسلم "

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال: يا محمد أقرئ امتك منى السلام واخبرهم ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وانها قيعان وان غراسها: سبحان الله , والحمد لله , (8) ولا اله الا الله , والله اكبر "

وعن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: " من قال: سبحان الله وبحمده (9) غرست له نخلة فى الجنة "

وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه ان رجلا قال: يا رسول الله ان شرائع الاسلام قد كثرت على فأخبرنى بشئ اتشبت به قال: " لا يزال لسانك رطبا من (1) ذكر الله "

وعن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: انا عند ظن عبدى بى وانا معه اذا ذكرنى , فإن ذكرنى فى نفسه وان ذكرنى وملاً (2) ذكرته فى ملاً خير منهم "

وعن ابي موسى الأشعرى رضى الله عنه ن النبي ﷺ قال: " مثل الذى يذكر (3) ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت "

وعن ابي موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبي قال: " يصبح على كل سلامى من احدكم صدقة: فكل تسبيحة صدقة , وكل تحميدة صدقة , وكل تهليل صدقة , وكل تكبيرة صدقة ونهى عن المنكر صدقة وامر بالمعروف (4) ويجزئ من ذلك ركعتان من الضحى "

وعن سعد ابن ابى وقاص رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله فقال: " ايعجز احدكم ان يكسب فى كل يوم الف حسنة؟ " فسأل سائل من جلسائه:

(6) الطبرانى وابن حبان.

(7) الحاكم.

(8) رواه الترمذى.

(9) الترمذى.

(1) الترمذى.

(2) متفق عليه.

(3) البخارى.

(4) مسلم.

كيف يكسب الف حسنة؟ قال : " يسبح مائة تسبيحه فيكتب له الف حسنة او
(5) يحط عنه الف خطيئة "

وعن معاذ رضى الله عنه ان رسول الله اخذ بيده وقال: "يا معاذ والله انى
لأحبك فى الله " فقال: "أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم
(6) أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك "

وعن رسول الله قال: " من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله
ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وقال تمام المائة: لا اله الا الله وحده لا
شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير غفرت خطاياہ وان كانت
(7) مثل ربد البحر "

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان فقراء المهاجرين اتوا رسول الله فقالوا:
ذهب اهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم : يصلون كما نصلى
ويصومون كما نصوم ولهم فضل من اموال يحجون ويعتصرون ويجاهدون
ويتصدقون . فقال: " ألا اعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من
بعدكم ولا يكون احد افضل منكم الا من صنع مثلما صنعتم ؟ " قالوا: بلى يا
رسول الله قال: "تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين "
قال ابو صالح الراوى عن ابى هريرة لما سئل عن كيفية ذكرهن قال: يقول:
(1) سبحان الله والحمد لله والله اكبر حتى يكون منهن كلهن ثلاثا وثلاثين .
وزاد مسلم فى روايته: فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله فقالوا: سمع
اخواننا اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ؟ فقال رسول الله: "ذلك فضل الله
يوثيه من يشاء "

" والدثور " جمع دثر وهو المال الكثير

وعن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال: جاء اعرابى الى رسول الله
فقال: علمنى كلاما اقوله قال: "قل: لا اله الا الله وحده لا شريك له , الله اكبر
كبيرا , والحمد لله كثيرا , وسبحان الله رب العالمين , ولا حول ولا قوة الا
بالله العزيز الحكيم " قال: هؤلاء لربى فما لى؟ قال: "قل: اللهم اغفر لى
(2) وارحمنى واهدنى وارزقنى "

(5) مسلم.

(6) ابو داود.

(7) مسلم.

(1) متفق عليه.

(2) مسلم.

وعن ابي مالك الاشعري رضى الله عنه قال: قال رسول الله : " الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأن - او تملأ ما (3) بين السموات والارض "

وعن ابي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله قال: " من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حراز من الشيطان يومه ذلك يمسى ولم يات احد بافضل مما جاء به الا رجل عمل اكثر منه " وقال: من قال: سبحان الله وبحمده فى يوم مائة (4) مرة حطت خطاياها وان كانت مثل ربد البحر "

وعن ابي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله : " لان اقول سبحان الله (1) والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر احب الى مما طلعت عليه شمس " وعن ابي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله: " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان (2) الله العظيم "

وعن ابي سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله قال: " اكثروا ذكر الله (3) حتى يقولوا مجنون "

وعن ام انس رضى الله عنها انها قالت: قلت: يا رسول الله اوصنى قال: " اهجرى المعاصى فانها افضل الجهاد واكثرى من ذكر الله فانك لا تأتين الله (4) بشئ احب من كثرة ذكره "

وعن ابي موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله : " لو ان رجلا فى حجره (5) دراهم يقسمها واخر يذكر الله كان الذاكر لله افضل " وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وانباء ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ! قيل : ومما أطيب ما فيها ؟

(3) مسلم.

(4) متفق عليه.

(1) مسلم.

(2) متفق عليه.

(3) أحمد والحاكم وابن حبان.

(4) الطبرانى.

(5) الطبرانى.

قال : محبة الله تعالى ومعرفته وذكره .
يا ذا الذي أنس الفؤاد :: أنت الذي ما إن سواه أريد
تفني الليالي والزمان بأسره :: وهواك غرض في الفؤاد جديد
وقال بعض العارفين : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً .
وقال آخر : إنه لتمر بي أوقات أوقول : إن أهل الجن في مثل هذا إنهم لفي
عيش طيب .

يا من يذكرني بعهد أحبتي طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث علي من جنباته إن الحديث عن الحبيب حبيب
ملاً الضلوع وفاض عن اجنابها :: قلب إذا ذكر الحبيب يذوب
ما زال يخفق ضارباً بجناحه ياليت شعري هل تطير قلوب

قال ابن القيم : فمحبة الله ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والمأينة إليه
ولإرادته بالحب والخوف والرجاء والتوكل ، والمعامله بحيث يكون هو وحده
المستولي علي هموم العبد وغزوماته ، وإرادته هو جنة الدنيا والنعم الذي لا
يشبهه نعيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين .
والله ما طلعت شمس ولا غربت :: إلا وحبك مقرون بأنفاسي
:: إلا وأنت حديثي بين جلاسي ولا جلست إلي قوم أحدثهم
قال الفتح الموصلي : المحب لا يجد مع حب الله للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله
طرى عين .

لا لآني أنساك أكثر ذكراك ولكن بذال يجري لساني
ولله در القائل :

خطرات ذكرى تستثير مودتي وأحس منها في الفؤاد ديبياً
لا عضو في إلا وفيه محبه فعهدك اعضائي خلقن قلوباً
إذا نسي الناس العهود وأغفلوا فعهدك في قلبي وذكرك في فمي
والمحب لله طاهر القلب كثير الذكر متسبب إلي رضوانه بكل سبيل يقدر عليه
منالوسائل والنوافل شوقاً .

ذكرتك لآني نسيتك لحظه :: وأهون ما في الذكر ذكر لسان
وكان أحد العباد يستشعر حضور الملائكة لمجالس الذكر فيقول حين يشرح
في ذكره : أهلاً بملائكة ربي لا أعدمكم اليوم خيراً خذوا علي بركة الله .
يقول يحيى بن معاذ الرازي : يا غفور يا جهو لو سمعت صرير الأقلام في
اللوح المحفوظ وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك لمت شوقاً إلي مولاك .

واله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته فعن أبي سعيد الخدري قال : خرج معاويه عل حلقه في المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى فقال ك الله . ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوف ك الله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إني استحلّفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلي الله عليه وسلم أقل عنه حديثاً مني وإن رسول الله صلي اله عليه وسلم خرج علي حلقه من أصحابه فقال : ((ما أجلسكم ؟)) قالوا جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده علي ما هدانا اليه للإسلام ومن به علينا . قال " الله ما أجلسكم إلا ذاك " قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال " أما إن لم استحلّفكم تهمة لكم ⁽¹⁾ ولكن اتاني جبريل فأخبرني أن الله تبارك وتعال يباهي بكم الملائكة " وإن مدمن الذكر يدخل الجن وهو يضحك ، فله درها من منزلة ومباهاة الله عز وجل بالذاكرين الملائكة دليل علي شرف الذاكر عنده ومحبته له ، وأنفريه علي غيره ومن الأعمال .

يقول ابن القيم : من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان علي غفلة ثم لا يزال فيه حتي يحضر قلبه فيتواطأ علي الذكر ، ومنهم من لا يبتدئ علي غفلة بل يسكن حتي يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه ، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطأ جميعاً ، والأول : ينقل الذكر من لسانه الي قلبه والثاني : ينتقل من قلبه الي لسانه منغير أن يخلو قلبه منه ، بل يسكن أولاً حتي يحس بظهور الناطق فيه ، فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم أنتقل النطق القوي الي الذكر اللسان ثم يستغرق في ذلك حتي يجد كل شئ منه ذاكرة .
وأفضل الذكر وأنفعه : ما وطأ فيه القلب واللسان وكان من الأذكار النبويه ⁽¹⁾ وشهد الذاكر معانيه ومقاصده .

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " لا يجلس قوم مجلساً لا يصلون فيه علي رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة ⁽²⁾ لما يرون من الثواب "

ومبنى الدين علي قاعدتين : الذكر والشكر قال تعالى (البقرة: 152)
وقال النبي صلي الله عليه وسلم لمعاذ : " والله اني لاحبك فلا تنسى ان تقول دبر كل صلاة : اللهم اعني علي ذكرك وشكرك وحسن عبادتك "

(1) مسلم

(1) ابن القيم : الفوائد، ص 260

(2) النسائي.

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل ذكر القلبى واللسانى وذكره يتضمن ذكر اسمائه وصفاته وذكر امره ونهية , وذكره بكلامه وذلك يستلزم معرفته والايمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بانواع المدح . وذلك لا يتم الا بتوحيده فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله , ويستلزم ذكر نعمه والانه واحسانه الى خلقه .

واما الشكر: فهو القيام له بطاعته والتقرب اليه بانواع محابه ظاهره وباطنه , وهذان الامران هما جماع الدين فذكره مستلزم لمعرفته , وشكره متضمن لطاعته , وهذان هما الغاية التى خلق لاجلها الجن والانس والسموات والارض ووضع لاجلها الثواب والعقاب , وانزل الكتاب وارسل الرسل وهى الحق الذى به خلقت السموات والارض وما بينهما .

فثبت بما ذكر ان غاية الخلق والامر ان يذكر وان يشكر , يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر . وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره شاكر لمن شكره , فذكره سبب لذكره وشكره سبب لزيادته من فضله , فالذكر للقلب واللسان والشكر للقلب (3) محبة وانابة , واللسان ثناء وحمد وللجوارح طاعة وخدمة.

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه الا قاموا عن مثل جيفة (1) حمار وكان عليهم حسرة"

واى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له وكان خسارانه فيها اعظم مما ربح فى غفلته عن الله .

وقال بعض العارفين: لو اقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ثم اعرض لحظة لكان ما فاتته اعظم مما حصله .

فعن ام حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلام ابن ادم كله عليه لا له الا امرا بمعروف او نهيا عن منكر (2) وذكر الله عز وجل"

وعن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس تحسر اهل (3) الجنة الا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها".

(3) ابن القيم : الفوائد، ص 176، 177

(1) أحمد زابى داود.

(2) الترمذى.

(3) البيهقى والطبرانى.

وقال ابو الدرداء رضى الله عنه: لكل شئ جلاء وان جلاء القلوب ذكر الله عز وجل .

وذكر البيهقي مرفوعا من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول: " لكل شئ صقالة وان صقالة القلوب ذكر الله عز وجل , وما من شئ انجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله عز وجل " قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله عز وجل؟ قال: " ولو ان يضرب بسيفه حتى ينقطع " .

ولا ريب ان القلب يصدأ النحاس والفضة وغيرها , وجلاؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى كالمرأة البيضاء . فإذا ترك صدأ فإذا ذكره جلاه .

وصدأ القلوب بأمرين بالغفلة وبالذنب , وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر , فمن كانت الغفلة اغلب اوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه وضدؤه بحسب غفلته , واذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه , فيرى الباطل فى صورة الحق والحق فى صورة الباطل , لانه لما تراكم عليه الصدأ اظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه .

فاذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وادراكه , فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا . وهذا اعظم عقوبات القلب واصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فانهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره .

قال تعالى (الكهف : 28)

فاذا اراد العبد ان يقتدى برجل فلينظر: ها هو من اهل الذكر او من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى او الوحي ؟ فان كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من اهل الغفلة كان امره فرطا .

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع اى : امره الذى يجب ان يلزمه ويقوم به , وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه , وفسر بالاسراف اى : قد افراط وفسر بلاهلاك وفسر بالخلاف للحق , وكلها اقوال متقاربة , والمقصود: ان الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات , فينبغى للرجل ان ينظر فى شيخه وقدرته ومتبوعه , فان وجده كذلك فليبعد منه , وان وجده كذلك فليبعد منه , وان وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة وامره غير مفروط عليه بل هو حازم فى امره فليتمسك بغرزه , ولا فرق بين الحى والميت الا بالذكر , فمثل الذى يذكر ربه لا يذكر كمثل الحى والميت .

عجزت النساء أن يلدن مثلك يا معاذ

معاذ بن جبل رضى الله عنه
قال رسول الله ﷺ : ((خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود وأبي معاذ⁽³⁾ بن جبل وسالم أبي حذيفة)) 0
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربع كلهم م الأنصار : أبى بن كعب وزيد ومعاذ بن جبل وابوزيد وأحد⁽⁴⁾ .عمومتي "

وقال عمر بن الخطاب : عجزت النساء ان يلدن مثلك يا معاذ .
هذا العالم العابد المجاهد ما بكى عند الموت إلا على مجالس الذكر ، ففى مرض موته قال : اخنق ختقك فوعزتك إني أحبك اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم إني ما كنت أحب البقاء فى الدنيا لكرى الأنهار ولا غرس الأشجار ، وإنما لمكابدة الساعات ، وظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر .
وقال معاذ رضى الله عنه : ما عمل آدمى عمل أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا إلا ان يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول فى كتابه : **چئا ئا ئهله**

نؤ ﴿ العنكبوت: ٤٥ ﴾

يختم القرآن كله فى كل ركعه !!!

ذو النورين : عثمان بن عفان .
قال عبد الرحمن التيمى : لا غلبن الليله على المقام قال : فلما صليت العتمه تخلصت الى المقام حتى قمت فيه , فبينما أنا قائم إذا رجل وذضه يده بين كتفي فإذا هو بعثمان بن عفان فبدأ بأمر القرآن فقرأ حتى ختم القرآن فركع وسجد ثم أخذ نعليه فلا أدري أصلى قبل ذلك شيئاً أم لا .
فكان رضى الله عنه يقرأ القرآن فى ركعه ثم يوتر بها .
وعن ابن سيرين قال : قالت امرأه عثمان حين قتل : لقد قتلتموه وإنه ليحيى الليل كله بالقرآن فى كل ركعه .

(3) البخارى .

(4) البخارى ومسلم .

قال ابن كثير : وقد روى من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود أيام الحج ، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه ولهذا روينا عن عمر أنه قال في قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنَاطِئُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَائِمًا يُحْذِرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِذَا أُبْلِغُوا

الزمر: ٩ : هو عثمان بن عفان .

وقال فيه حسان بن ثابت :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به :: يقطع الليل تسبيحا وقرأنا

قال النووي : فمن الذين كانوا يختمون الختمة في اليوم والليله : عثمان

بن عفان رضي الله عنه وتميم الداري ، وسعيد بن جبير ومجاهد

والشافعي وغيرهم .

يسبح مائة ألف تسبيحه في اليوم

أبو الدرداء رضي الله عنه .

عن أبي حليس : قيل لأبي الدرداء وكان لا يفترض من الذكر : كم تسبح

في كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع !!

يختم القرآن في سبع

تميم الداري رضي الله عنه.

عن أبي المهلب : كان تميم الداري يتتم القرآن في سبع .

وعن ابن سيرين : ان تميما الداري كان يقول القرآن في كل ركعه .

ليلة حتى أصبح ، أو كاد يقرأ آيه ويردها ويبكى الدار (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء

محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون ﴿ الجاثية: ٢١

يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحه

- أبو هريره رضي الله عنه

عن عكرمه أن ابا هريره كان يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحه يقول

: أسبح قدر ديتي !!!

يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان

أبو مسلم الخولاني

كان يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ويقول : " أذكروا الله حتى يرى الجاهل أنك مجنون " وفي روايه : " أنه مجنون "

يختم القرآن في رمضان كل ليلتين

الأسود بن يزيد النخعي .

عن إبراهيم قال : كان الأسود النخعي يختم القرآن في رمضان كل ليلتين وكان ينام بين المغرب والعشاء ، وكان يختم القرآن في غير رمضان كل ست ليال.

يقرأ القرآن كل ليله ثلاث مرات

الإمام سليم بن عتر .

قاضي مصر وواعظها وقاصها وعابدها ، وكان يدعى الناسك لشدة تألهه وعن الحارث بن يزيد أن سليم بن عتر كان يقرأ القرآن كل ليله ثلاث مرات .

يختم القرآن كل ليلتين

سعيد بن جبير رضى الله عنه .

عن عبد الملك بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير أنه كان يختم القرآن في كل ليلتين 0

يقوم الليل بربع القران

عروه بن الزبير

عن ابن شاذب قال : كان عروه يقرأ القرآن كل يوم في المصحف نظراً ، ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطعت رجله وكان وقع فيها الأكله فنشرت ، وكان إذا كان أيام الرطب يثلم حائطه ثم يأذن للناس فيه فيدخلون فيأكلون ويحملون 0

يختم القرآن كل جمعه

عبد الله بن محيريز.

قال عمرو بن عبد الرحمن بن محيريز : كان جدى يختم في كل جمعه وربما فرشنا له فلم ينم عليه .

يقرئ الناس أربعين سنة

أبو عبد الرحمن السلمى عبد الله بن حبيب مقرئ الكوفة .
عن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : ((
(1)خيركم الذى تعلم القرآن وعلمه))
قال أبو عبد الرحمن : فذلك أقعدنى هذا المقعد .
قال أبو اسحاق السبيعى : أن أبا عبد الرحمن كان يقرئ الناس فى المسجد
الأعظم أربعين سنة .

وقال رحمه الله : أنا أخذنا القرآن عن قوم اخبرونا انهم كانوا اذا تعلموا
عشر ايات لم يجاوزوهن الى العشر الاخر حتى يعلموا ما فيهن ، فكنا نتعلم
القرآن والعمل به وانه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا
يجاوز تراقيهم بل لا يجاوز هاهنا و وضع يده على حلقه .

يشتم من فيه رائحة المسك

نافع بن عبد الرحمن .. المقرئ المدنى .
قال مالك : نافع امام الناس فى القراءه .
وقال احمد بن بن هلال المصرى : قال لى رجل ممن قرأ على نافع : ام
نافعا كان اذا تكلم يشتم من فيه رائحة المسك ، فقلت له : يا ابا عبد الله ،
تطيب كلما قعدت تقرئ؟ قال : ما امس طيبا ولكنى رايت النبى صلى الله
وهو يتفل فى فى فمن ذلك الوقت اشم من فى هذه الرائحة ؟ عليه وسلم
جزى الله بالخيرات عنا ائمه :: لا نقلوا القرآن عذبا وسلسلا
فأما الكريم السر فى الطيب نافع :: فذاك الذى اختار المدينة مترا لا

ماأظن الله خلق مثلك !!

قتاده بن دعامة .
قال سفيان الثورى : هل كان فى الدنيا مثل قتاده ؟!
وقال سعيد بن المسيب لقتاده : ما كنت أظن أن الله خلق مثلك .
قال سلام بن ابى مطيع كان قتاده يختم القرآن فى سبع فإذا جاء رمضان
ختم فى كل ثلاث ، فإذا جاء العشر ختم فى كل ليلة .

يبيل عمامته من دموع عينه .

منصور بن زاذان .

شيخ واسط علما وعملا المتيسر له قراءة القرآن .

قال عنه ابن سعد : كان يقة حجه سريع القراءة يريد أن يترسل فلا

يستطيع وكان يختتم في الضحى .

قال يزيد بن هارون : كان منصور بن زاذان يقرأ القرآن كله في صلاة

الضحى وكان يختم القرآن في الألى إلى العصر ، ويختتم في اليوم مرتين

ويصلى الليل كله ، وكان رحمه الله يبيل عمامته من دموع عينيه .

قال هشيم : كان منصور لو قيل له : إن ملك الموت على الباب ما كان

عنده زياده في العمل . وكان يصلى من طلوع الشمس إلى أن يصلى

العصر ثم يسبح على المغرب .

- يذكر الله حتى تغيب الشمس في المسجد 0

حسان بن عطيه .

قال الوزاعي : ما رأيت أحداً أكثر عملاً في الخير من حسان بن عطيه وقال

الأوزاعي أيضا : كان حسان بن عطيه إذا صلى العصر يذكر الله تعالى في

المسجد حتى تغيب الشمس .

- نظر في المصحف حتى خشي أن يذهب بصره 0

حمزه بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة .

قال المذهبي : كان إمام حجه قيما بكتاب الله عابدا خاشعا قانتا لله تخين

الورع عديم النظير.

كان شعيب بن حرب يقول لأصحابه الحديث : ألا تسألني عن صاحب الدر؟

قراءة حمزه.

وقال يحيى بن معين : سمعت محمد بن فضيل يقول : ما أحسب أن الله يدفع

البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة .

وقال حمزه : نظرت في كتاب الله حتى خشيت أن يذهب بصرى .

وكان رحمه الله يقرأ القرآن حتى يتفرق الناس ثم ينهض فيصلّى اربع

ركعات ثم يصلى ما بين الظهر والعصر ، وما بين المغرب والعشاء ،

وحدث بعض جيرانه أنه لا ينام الليل وأنهم يسمعون قراءته يرتل القرآن .

ما بن نحره إلى فؤاده مثل ورقه المصحف من نور القرآن

أبو جعفر زيد بن القعقاع القارئ .

أحد القراء العشرة

قال سلمان بن مسلم : شهدت أبا جعفر حين احتضر جاء أبو حازم ومشيخه فأكبوا عليه يصرخون به فلم يجبه .
قال ثيبه – وكان ختنه على ابن ابي جعفر : ألا اريكم منه عجباً ؟
قالوا: بلى، فكشف عن صدره فإذا دواره بيضاء مثل اللبن فقال أبو حازم وأصحابه : هذا والله نور القرآن . قال سليمان : فقالت لى أم ولده بعد ما مات : صار ذلك البياض غره بين عينيه !!!
وعن نافع قال : لما غسل أبو جعفر القارئ نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقه المصحف فما شك من حضرة أنه نور القرآن رحمة الله .
بأبى وأمى ذلك السيد الذى خالط القرآن لحمه ودمه ، وكان نورا فى صدره وبين عينيه بعد وفاته .

عن مالك بن أنس : كان جعفر القارئ إذا مر سائل وهو يصلى بالليل دعاه فيستتر منه ثم يلقي إليه إزاره !!

يختتم القرآن أربعة وعشرون ألف ختمه ؟!

أبو بكر بن عياش شيخ الإسلام وبقة الأعلام .
قال الذهبي : قد روى من وجوه متعددة أن أبا بكر بن عياش مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن فى كل يوم وليله مره وهذه عبادته يخضع لها

قال يحيى الحماني : لما حضرت أبا بكر الوفاه بكت أخته فقال لها : ما يبكيك ؟ انظرى إلى تلك الزاويه فقد ختم أخوك فيها عشرين ألف ختمه .
أحاديث لو صغت لآلهت بحسنها :: عن الوش أوة شمت لا غنت عن المسك

كان رحمه الله يقول : يا ملكى ادعوا الله لى فإنكما أطوع لله منى .
قال الإمام النووى : هو الإمام المجمع على فضله واسمه وكنيته على الصحيح رويانا عن ابنه إبراهيم قال : قال لى ابي : إن أباك لم يأت فاحشه قط ، وإنه ختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مره . ورويانا عنه أنه قال لأبنه : يا بنى إياك أن تعصى الله فى هذه الغرفه فإنى ختمت فيها اثنتى عشرين ألف ختمه ورويانا عنه أنه قال لأبنته عند موته وقد بكت : يا بنيه لا تبكى ، أتخافين أن عذبنى الله تعالى وقد ختمت فى هذه الزاويه أربعة وعشرين ألف ختمه ؟!

إذا قرأ القرآن لم تحس في المسجد حركه كأن ليس فيه أحد0

يحيى بن وئاب القارئ ؟!

قال الأعمش : يحيى بن وئاب أقرأ من بال على ترب .

وقال الأعمش : كان يحيى من أحسن الناس قراءة وربما أشتهيت تقبل رأسه لحسن قرائته وكان وإذا قرأ لم تحس في المسجد حركه كأن ليس في المسجد احد

وقال الأعمش : كنت اذا رأيته قلت : هذا قد وقف للحساب.

يختم القرآن في اليوم والليله ثلاث مرات

كرز بن وبره.

له الصيت البالغ في النسك و التعبد.

سال ربه ان يقوى حتى يختم القرآن في اليوم والليله ثلاث مرات.

يقرأ القرآن في يوم وليله ويصوم الدهر

ثابت البناني.

قال السمعاني : هو من تابعى البصره صحب انس اربعين سنه وكان اعبد اهل البصره.

قال شعبه : كان ثابت البناني يقرأ القرآن في يوم وليله ويصوم الدهر.

يقرا القرآن في ركعتين

ابو حنيفه النعمان.

قال الكرورى : كان ابو حنفه النعمان ختم القرآن في كل وم وليله مره وفي رمضان كل يوم مرتن مره في النهار و مره في الليل.

وقال ابن المبارك: كان ابو حنفه يجمع القرآن في ركعتن، وقال

ايضا: اربعهمم الائمه ختموا القرآن في ركعتين: عثمان بن عفان وتمم الدارى وسعد بن جبير وابو حنيفه.

وعن اسد بن عمر: كان ابو حنفه عامه اللل قرا القرآن في ركعه وعن

مسعر بن كدام قال : دخلت المسجد فرايت رجلا يصلى فاستحليت قرائته

فقرا سبعا فقلت يركع ثم قرأ الثلث ثم النصف فلم يزل يقرأ حتى ختمه كله في ركعه فنظرت فاذا ابو حنيفه.

يختم القرآن كل ليله ويصوم الدهر:

وكيع بن الجراح.

قال الكفوى: قال حيى بن اكرم : صحبتته فى الحضر والسفر وكان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليله.

وعن محمد بن جرير قال : مكث وكيع بعبادانى اربعين ليله وختماربعين مره وتصدق باربعين الف درهم.

جزءوا الليل ثلاثه اجزاء يختمون فيها القرآن بينهم كل ليله
الحسن بن صالح بن حى الثورى.

قال وكيع : كان الحسن وعلى ابنا صالح وامهما قد جزءوا الليل ثلاثه اجزاء يختمون فيه القرآن فى بيتهم كل الليله، فكان كل واحد يقوم بثلاثه فماتت امهما فكانا يختماناه ثم مات على فكان الحسن يختم كل ليله.

يختم القرآن كل ليله ويدعو لالف انسان

يحيى بن معين :

اقام يحيى بن سعيد عشرين سنه يختم القرآن كل ليله.
وقال عمرو بن على: كان يحيى بن سعيد القطان يختم القرآن كل يوم وليله يدعو لالف انسان ثم يخرج بعد العصر يحدث الناس.

وقال على بن المدينى : كنا عند يحيى بن سعيد فقرا رجل سورہ الدخان فصعق يحيى و غشى عليه.

قال احمد بن حنبل: لو قدر احد ان يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى-يعنى الصعق.

وقال يحيى بن معين: كان يحيى بن سعيد يجىء معه بمسباح فيدخل يده فى ثيابه فيسبح.

يختم القرآن فى رمضان ستين ختمه

امام الدنيا وناصر السنه الشافعى.

قال حسين الكرابيسى: بت مع الشافعى ليله فكان يصلى نحو ثلث الليل فما رايته يزيد على خمسين ايه فاذا اكثر فمائه ايه وكان لا يمر بايه رحمه الا سال الله ولا بايه عذاب الا تعود وكانما مع له الرجاء والهيبة جمعا.

وقال الربيع ابن سليمان : كان الشافعى يختم القرآن فى شهر رمضان ستين ختمه كل ذلك فى صلاه .

قال الربيع : نمت فى منزل الشافعى ليلالى فلم يكن نام إلا يسيرا من الليل .
وقال الحميدى : كان الشافعى يختم القرآن كل يوم ختمه .

هم الرجال وعيب أن يقال لمن :::: لم يتصف بمعاني وصفهم رجل
يصلى فى اليوم والليله ثلاثمائة ركعة
إمام أهل السنه : أحمد بن حنبل .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبى يصلى فى كل يوم وليله ثلاثمائة
ركعه فلما مرض من تلك الأسواط أضعته فكان يصلى فى كل يوم وليله مائة
وخمسين ركعه وكان قرب الثمانين .

أنت تدري أيها الحيران عنا :::: كيف فوق الشمس أزمانا حللنا
يقول عن الله بن أحمد بن حنبل : وكان يقرأ فى كل يوم سبعا يهتم فى كل
سبعة أيام وكانت له ختمه فى كل سبع ليال سوى صلاة النهار ، وكان
ساعة يصلى عشاء الأخرة ينام نومه خفيفه ثم يقوم إلى الصباح يصلى
ويدعو .

وقال هلال بن علاء : خرج الشافعى ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل إلى
مكة فلما أن صاروا بمكة نزلوا بموضع ، فأما الشافعى فإنه استلقى ،
ويحيى بن معين أيضا استلقى ، وأحمد بن حنبل قائم يصلى فلما أصبحوا
قال الشافعى : لقد علمت للمسلمين مائتى مسأله .
قيل ليحيى بن معين : أى شئ علمت ؟ قال : نفيت عن رسول الله ﷺ مائتى
كذاب .

وقيل لأحمد بن حنبل : فأنت ؟ قال : صليت ركعات ختمت فيها القرآن .
وعن جعفر بن أبى هاشم قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ختمت القرآن
فى وم فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وتسعون .
يختم القرآن فى كل وم وفى رمضان ثلاث ختمات فى اليوم 0
أبو عباس : أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء .

قال أبو الحسين محمد بن على صاحب الجنيد بن محمد : صحبت أبا العباس بن
عطاء عدة سنين متأدبا بأدبه ، وكان له فى كل وم ختمه وفى كل شهر
رمضان – فى كل ويوم وليله ثلاث ختمات .

يصلى كل يوم خمسمائة ركعه

بشر بن الحارث الحافى .

قال على بن المدينى : ما رأيت أخوف لله منه كان يصلى كل وم خمسمائة
ركعه .

وقال بن المدينى : حفر بشر قبره وختم به القرآن وكان ورده ثلث القرآن .

يغشى عليه إذا سمع القرآن

عبد الرحمن بن مهدي .

قال علي بن المديني : كان ورد عبد الرحمن كل ليلة نصف القرآن قال المذهبي : عبد الرحمن له دلالة عجيبة وكان يغشى عليه إذا سمع القرآن .

يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحه

عمر بن هاني العيسى الداراني .

قال ابو داود : كان عمير بن هاني قدريا سبح كل يوم مائة ألف تسبيحه

يختم القرآن أربع مرات في اليوم

أبو قبيصة محمد بن عبد الرحمن الضبي .

قال إسماعيل الخطي : سألت أبا قبصة وكان أدرس من رأيناه للقرآن عن

أكثر ما قرأ في يوم وكان يوصف بسرعه القراءة فامتنع أن يخبرني ، فلم

أزل به حتى قفال : قرأت يوم من أيام الصيف أربع ختم وبلغت في

الخامسة حتى " براءة " وأذنت العصر .

قال : وكان من أهل الصدق .

يختم القرآن اثنتي عشرة ألف ختمه

الكتاني أبو بكر محمد بن علي بن جعفر .

قال مذهبي : يقال : ختم الكتاني في الطواف اثنتي عشرة ألف ختمه وكان

من الأولياء .

وكان رحمة الله يقول : من حكم المرید أن يكون نومه غلبه وأكله فاقه

وكلامه ضروره .

صار القرآن كأنه بين عينيه

أبو سهل القطان : أحمد بن محمد بن عبد الله .

قال أبو عبد الله بن بشر القطان : متا رأيت أحسن انتزاعا لما أراد كمن

أى القرآن من أ بى سهل بن زاد وكان جارنا ، وكان يديم صلاة الليل

واليلولة فلكثره درسه للقرآن كأنه بين عينيه .

يسبح وهو بين يدي الحجام :

الإمام أحمد بن حرب .

قال زكريا بن دلويه : كان أحمد بن حرب إذا جلس بين دي الحجام ليحفي

شاربه يسبح فيقول له الحجام : اسكت ساعه فيقول : أعمل أنت عملك

وربما قطع من شفتهخ وهو لا يعلم .

وقال محمد بن يحيى : مر أحمد بن حرب يصيبان لعبون فقال أحدهم :
أمسكوا ، فإن هذا أحمد بن حرب الذى لا ينام الليل فقبض علي لحيته وقال
: الصبيان يهابونك وأنت تنام ؟ فأحيا الليل بعد ذلك حتى مات .
وقال يحيى بن يحيى التميمى : إن لم يكن أحمد بن حرب من الأبدال ولا
أدرى من هم؟!!

وقال أحمد بن حرب رحمه الله : عبت الله خمسين سنة فما وجدت حلاوة
العبادة حتى تركت ثلاثة أشياء : تركت رضا الناس حتى قدرت أتكلم بالحق
، وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين ، وتركت حلاوة
الدنا حتى وجدت حلاوة الآخرة .

ينشر وهو يذكر الله

ولما مات كان يسمع من جسده قراءة القرآن
الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل المعروف بأبن النابلسي
.

سجنه بنو عبيد – الفاطميون – وعلبوه علبالسنة وسمع الدار قطنى
يذكره ويبكى ويقول : كان يقول : وهو يسلم (كان ذلك فى الكتاب
مسطورا)

قال ابو الفرج بن الفرغ : أقام جوهر – القائد – لآبى تميم صاحب مصر
أبا بكر النابلسي وكان ينزل الأكواخ فقال له : بلغنى أنك قلت : إذا كان مع
الرجل عشرة أسهم وجب أن رمى فى الروم سهمها وفينا تسعه ، قال : ما
قلت هذا ، بل قلت إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرمىكم بتسعه وأن
يرمى العاشر فيكم أيضا فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين وادعيتهم نور
الألوهيه فشهره ثم ضربه ثم أمر يهوديا فسلخه .

قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفى : أخبرني الثقة أن أبا بكر سلخ من
مفرق رأسه حتى بلغ الوجه وكان يذكر الله فيصبر حتى بلغ الصدر فرحمه
السلاخ فوكذه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه ، وأخبرني الثقة أنه كان
إماما فى الحدث والفقهاء صائم الدهر كبير الصولة عند العامة والخاصة
ولما سلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن .

يختم القرآن كل ليله

أبو بشر أحمد بن محمد بن حسنويه .
ذكر العلامة ابن الأثير في " اللباب في تهذيب الأنساب " وقال : سمع محمد بن إسحاق يقول : كان أبو بشر – يختم القرآن كل ليله – توفي سنة 390 هـ رحمة الله تعالى .

يموت ساجداً لله

جعفر بن الحسن الحنبلي .
قال الحافظ ابن رجب : كان من عباد الله الصالحين أما رآ بالمعروف نهاء عن المنكر وله المقامات المشهوده في ذلك كان مداوما على الصيام والتهجد والقيام له ختمات كثيره جداً كل ختمه منها ركعه توفي في الصلاة – ساجداً- سنة 506 هـ رحمة الله تعالى .
كان من شدة اشتغاله بالله مثل مجنون أو واله .

أبو الحسن الباهلي .
قال عنه أبو اسحاق الأسفرايني : أنا في جنب شيخنا أبي الحسن الباهلي كقطرة في بحر.
وقال ابن الباقلاني : كان الباهلي من شدة اشتغاله بالله مثل مجنون أو واله .

يحاسب نفسه على لحظه تذهب في غير طاعه

الحافظ ابن عساكر.
قال ابن القاسم : كان أبي مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن يختم كل جمعه ويختم في رمضان كل يوم وكان كثير النوافل والأذكار ويحاسب نفسه على لحظه تذهب في غير طاعه .

نور يأتيه من السماء حتى يبصر فيتوضأ

الإمام عبد الرحمن بن علي بن المسلم .
قال ابن الحاجب : كان فقها عدلاً صالحاً يتلو كل يوم وليله ختمة وقال أبو حامد ابن الصابوني في كتابه إلى : أضر في الآخره وأقعد ، فأحتاج إلى وضوء في الليل وما عنده أحد فذكر أنه قال : بينا أنا اتفكر إذ بنور من السماء داخل البيت فبصرت بالماء فتوضأت ، حدث بعض إخوانه بهذا وأوصاه أن لا يخبر به إلا بعد موته .

كثير الأوراد والذكر

ابن قدامه المقدسي .

قال المذهبي : كان قدوة صالحاً قانتاً لله ربانياً خاشعاً مخلصاً وعديم النظير كبير القدر كثير الأوراد والذكر والمروءة والفتوة والصفات الحميدة قل أن ترى العون مثله يتلو كل ليلة سبعاً مرتلاً في الصلاة وفي النهار سبعين بين الصلاتين .

يقرأ ختمتين قبل أن يطلع الفجر

أحمد بن رضوان مصنف كتاب الواضح في القراءات العشر .
قال ابو بكر الخطيب : كان أحمد بن رضوان أحد القراء المذكورين بإتقان الروايات ، له في ذلك تصانيف توفي وهو شاب ، وقد كان الناس يقرؤون عليه في حاة الحمامي لعلمه ، حضرته ليلة في الجامع فقرأ ختمتين قبل أن يطلع الفجر .

عديم النظير كبير القدر

شيخ الإسلام ابن تيميه.

قال عنه البزار : أما تعبده رضى الله عنه فإنه قل أن سمع بمثله ؛ لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما راد له لا مواظبا على تلاوة القرآن العظم ، وكان قد عرفت عبادته لا كلمه أحمد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر فلا يزال في الذكر يسمع نفسه وربما يسمع ذكره من إلى جانبه هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس .

وقال شيخ الإسلام ابن القيم : حضرت شيخ الإسلام ابن تيميه مره صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من أنتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي أو كلاما قريبا من هذا .

وقال لى مرة : لا اترك الذكر إلا بنية إجمام نفس وإراحتها لآستعد بتلك الراحة لذكر آخر . أو كلاما هذا معناه.

وقال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيميه – قدس الله روحه – يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسّمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟!
وقال : سمعت شيخ الإسلام ان تيميه – قدس الله روحه – يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مره : ما يصنع أعدائي بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى إن رحّت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة وقتلى شهاده وإخراجى من بلدى سياحه .

وكان يقول : فى محبسه فى القلعه : لو بذلت ملء هذه القلعه ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمه . أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ونحو هذا .

وقال لى مره : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه .

وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . ماشاء الله .

ولما دخل القلعه وصار داخل سورها نظر إليها وقال : **چ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ چ**

چ بَابُ چ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ **الحديد: ١٣**

وما هذا إلا لتفرغه لتلاوة القرآن فى السجن بعد أن أخذوا منه أقلامه وكتبه ودفاتره .

وختم القرآن مده إقامته بالقلعه ثمانين أو إحدى وثمانين ختمه انتهى فى آخر ختمه إلى آخر : اقربت الساعة (إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) ثم كمت بعد وفاته وهو مسبحى ، كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء – يختم فى عشرة أيام .⁽¹⁾

من كثرة ذكره يقال عنه مجنون

أبو مسلم الخولانى .

وكان ابو مسلم الخولانى كثير الذكر فرأه بعض الناس فأنكر حاله فقال لأصحابه : أمجنون صاحبكم ؟! فسمعه أبو مسلم فقال : لا يا أخى ولكن هذا دواء الجنون .

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون " ⁽²⁾

وقد شرطت على قوم صحبتهم :::: بأن قلبى لكم من دونهم غرض ومن حديثى بكم قالوا به مرض :::: فقلت لا أذهب الله عنى ذلك المرض

(1) بتصرف من كتاب تحفة اللماء بترتيب سير أعلام النبلاء : ص228 ، 260 – وص396 -

401 وبتصرف صلاح الأمه ، ج3/ص37 وما بعدها .

(2) أحمد .

يسبح وهو مصلوب

ماهان العابد .

أمر الحجاج بن يوسف الثقفي بصلب ماهان فرفع على خشبه وهو يسبح ويهتل ويعقد بيده حتى بلغ تسعاً وعشرين فبقى شهراً بعد موته وده على ذلك العقد مضمومه .

لتحشرن عظامي بعدما بليت ::: يوم الحساب وفيها حبكم علق

يسبح وهو يغسل !!

خالد بن معدان .

وكان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحه سوى ما يقرأ من القرآن فلما مات وضع على سريره ليغسل فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح .

ظلت تسبح حتى اختلست من أيدي الرجال أمام القبر وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحه فماتت فلما بلغت القبر اختلست من أيدي الرجال .

في مرض الموت يقول في اليوم الله الله خمسة عشر ألف مره .

أبن عساكر .

قال ولده إسماعيل : كان أبي في كل يوم وليله من أيام مرضه يقول : الله الله ، نحواً من خمسة عشر ألف مره فما زال يقولها حتى طفى .

يشتهي الجنة ويأمر بذكر الله

الحافظ المقدسي .

الإمام الحافظ عبد الغنى المقدسي العابد الأثرى على الحافظ قال له ابنه : أبو موسى في مرض موته : ما تشتهي ؟ فيقول : أشتهي الجنة أشتهي رحمة الله لايزيد على ذلك ، أشتهي النظر إلى وجه الله سبحانه .

وجاء جماعه يعودونه فسلموا عليه فرد عليهم وجعلوا يتحدثون فقال : ما هذا ؟ اذكروا الله ، قالوا : لا اله الا الله فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ويشير بعينه فقامت لاناول رجلا كتاباً من جانب المسجد فرجعت وقد

خرجت روحه .

أشد الناس مواظبه على الخير والذكر

حماد بن سلمه .

قال عفان : رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمه ولكن أشد مواظبه على الخير وقراءة القرآن والعمل لله تعالى منه رحمة الله .

وقال موسى بن اسماعيل التبودكي : لو قلت لكم : إني ما رأيت حماد بن سلمه ضاحكا لصدقت كان مشغولا إما أن يحدث أو يقرأ أو يسبح أو يصلي قد قسم النهار على ذلك .

قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمه في الصلاة في المسجد .

يموت ممسكاً بالمسبحة وهو يسبح

أسد الشام : عبد الله الويني .

حكى ابن كثير كيف كان موته فقول : انصرف من الصلاة فقال للشيخ داود المؤذن وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ، ويتذكر أصحابه ومن أحسن إليه وهو بأدنى شيء يدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله تعالى وفي ده سبحة فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ولم تسقط السبحة من ده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك ، فجاء إليه فعانه كذلك ، فقال : لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه أیه فقيل له ليس هذا من السنة ةفنى وكفن وصلى عله ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها ذكر الله تعالى رحمة الله .

فاقد الأحبال الصوتية عند موته يقرأ القرآن بصوت جهوري

يحكى الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري فيقول :

حدثني أخى الشيخ محفوظ الشنقيطى مدر عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف عن شيخ القراء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان - رحمه الله تعالى - أنه فقد أحباله الصوتية في السنوات السبع الأخره من حياته وكان يدرس تلاميذه القراءة ، فلا يصفح لهم إلا بشهيق وإيماء ثم مرض مرض الوفاة وكان طريح السرسر الأبيض بالمستشفى ، ففوجئ آل المستشفى بالرجل مدة ثلاثة أيام ختم فهن القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ثم أسلم الروح إلى بارئها .

أنت تعمل ، وأنا أعمل

- كان حجام يأخذ من شارب معروف وكان معروف يسبح فقال الحجام لا يتهياً أخذ الشارب وأنت تسبح فقال معروف أنت تعمل وأنا لا أعمل .

حتى كاد أن يسقط

قال أبو بكر بن أبي طالب دخلت مسجد معروف وكان في منزله فخرج إلينا ونحن جماعة فقال السلام عليكم ورحمة الله فرددنا عليه السلام فقال حياكم الله بالسلام ونعمنا وإياكم في الدنيا والأحزان ثم أذن فلما أخذ في الأذان اضطرب وارتعد حين قال أشهد أن لا إله إلا الله فقام شعر حاجبيه ولحيته حتى خفت أن لا يتم أذانه وانحنى حتى كاد أن يسقط .

تأخذ بيدك سبحة؟!

وروى في يد الجنيد سبحة، ف قيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه. (1)

وفي الذكاء وحسن الجواب والبدئية

أجن مرتين من الشهر وهذه إحداهما

خرج الحجاج بن يوسف متصيداً، فلقي أعرابياً فقال: كيف سيرة الحجاج فيكم؟ قال: ظلوم غشوم لا حياه الله ولا بياه، قال له: فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ فقال الأعرابي: هو والله أظلم منه وأغشم، فعليه لعنة الله. فأغضب ذلك الحجاج وقال له: أما تدري من أنا؟ قال: وما عسيت أن تكون؟ قال: أنا الحجاج فقال الأعرابي: وتدري من أنا؟ قال: لا، من أنت؟ قال مولى بني أبي ثور أجن مرتين من الشهر وهذه إحداهما، فضحك الحجاج وانصرف عنه⁽¹⁾.

ولكن أمي ليصيب أبي من أطايبك

قال الفرزدق لغلام حدث أيسرك إني أبوك، قال لا ولكن أمي ليصيب أبي من أطايبك⁽²⁾.

فأين منزلكما في النار

قدم الفرزدق المدينة وبها رجلان يقال لأحدهما صُوَيْمٌ وللآخر ابن أسماء وصفا له فقصدتهما وكان عندهما قيان فسلم عليهما وقال لهما من أنتما فقال أحدهما أنا فرعون وقال الآخر أنا هامان قال فأين منزلكما في النار حتى أقصدكما فقالا نحن جيران الفرزدق الشاعر فضحك ونزل فسلم عليهما وسلما عليه⁽³⁾.

متى تذهب إلى الآخرة

مر الفرزدق بمجلس بني حرام ومعهم عنبة مولى عثمان بن عفان فقال يا أبا فراس متى تذهب إلى الآخرة قال وما حاجتك إلى ذاك يا أخي قال أكتب معك إلى أبي قال أنا لا أذهب إلى حيث أبوك ، أبوك في النار اكتب إليه مع ريالويه واصطقانوس⁽⁴⁾.

¹ (القاضي التنوخي ، المستجد من فعلات الأجواد ، ص 69

² (ابن الجوزي ، الأنكباء ، 97/1

³ (أبي الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، 159/1

⁴ (أبي الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، 300/10

ما أنت الذي لما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن

مر الفرزدق بخالد بن صفوان بن الأهمتم ، فقال له خالد : يا أبا فراس ، ما أنت الذي لما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن ، فقال له الفرزدق : ولا أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه : ' يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ' (1).

الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائك يتشهنون بي

هشام بن القاسم قال: جَمَعَنِي وَالْفَرَزْدَقَ مَجْلِسَ فَتَجَاهَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: مَنْ الْكَهْلُ؟ قَالَ: وَمَا تَعْرِفَنِي؟ قُلْتُ: لَا؟ قَالَ: أَبُو فِرَاسٍ، قُلْتُ: وَمَنْ أَبُو فِرَاسٍ؟ قَالَ: الْفَرَزْدَقُ؟ قُلْتُ: وَمَنْ الْفَرَزْدَقُ؟ قَالَ: وَمَا تَعْرِفُ الْفَرَزْدَقُ؟ قُلْتُ: لَا أَعْرِفُ الْفَرَزْدَقَ إِلَّا شَيْئاً يَفْعَلُهُ النِّسَاءُ عِنْدَنَا يَتَشَهَّنُونَ بِهِ كَهَيْئَةِ السَّوْيِقِ؛ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَني فِي بَطُونِ نِسَائِكُمْ يَتَشَهَّنُونَ بِي (2).

ما بال يدك مقطوعة ؟

وأتى زياداً الأقطع باب الفرزدق ، وكان له صديقاً ، فخرجت إليه ابنة الفرزدق ، وكانت تسمى مكية ، وأمها حبشية ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : مكية قال : ابنة من ؟ قالت : ابنة الفرزدق قال : فأمك ؟ قالت : حبشية ، فأمسك عنها فقالت : ما بال يدك مقطوعة ؟ قال : قطعها الحرورية ، قالت : بل قطعت في اللصوصية ، قال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، وجاء الفرزدق فأخبر بالخبر ، فقال : أشهد أنها بنتي ، وأنشأ يقول :
حام إذا ما كنت ذا حميه . . . بدرامي بنته صبيه صمحم مثل أبي مكيه (3)

أخرجني أنت؟

عن عبيد الله بن محمد التيمي، قال: أتى الحجاج برجل متهم برأي الخوارج، فقال له الحجاج: أخرجني أنت؟ قال: لا والذي أنت بين يديه غدا أذل مني بين يديك اليوم ما أنا بخارجي، فقال الحجاج: إني يومئذ لأذليل. وأطلقه.

مال من يأخذ؟

ولى الحجاج رجلاً من الأعراب بعض المياه، فكسر عليه بعض خراجه فأحضره ثم قال له: يا عدو الله! أخذت مال الله، قال: فماذا من آخذ؟ أنا والله مع الشيطان منذ أربعين سنة أن يعطيني حبة ما أعطاني.

¹ (أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ 2003 م ، 488/1

² (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 478-479

³ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، المحاسن والأضداد ، 138/1

جزاء الإحسان

عن عوانة، قال: أتى الحجاج بأسارى من أصحاب قطري من الخوارج فقتلهم إلا واحداً، كانت له عنده يد وكان قريباً لقطري، فأحسن إليه وخلق سبيله، فصار إلى قطري فقال له قطري: عاود قتال عدو الله الحجاج، فقال هيهات، غل يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها، ثم قال:

أقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقر بأنها مولاته
إني إذا لأخو الدناءة والذي ... طمت على إحسانه جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... في الصف واحتجت له فعلاته
أقول جار علي لا، إني إذا ... لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام أن صنائعاً ... غرست لديّ فحنظلت نخلاته
هذا وما ظني بحين أني ... فكيم لمطرق مشهد وعلاته⁽¹⁾

الحجاج وفراشة التي كانت تجهز الخوارج

عن العنبي ٠، قال: كانت امرأة من الخوارج من الأزدي يقال لها فراشة، وكانت ذات نبي في رأي الخوارج تجهز أصحاب البصائر منهم، وكان الحجاج يطلبها طلباً شديداً، فأعوزته فلم يظفر بها، وكان يدعو الله أن يمكنه من فراشة أو من بعض من جهزته، فمكث ما شاء الله ثم جيء برجل فقال: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً ثم رفع رأسه، فقال له: يا عدو الله، قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث. قال: أين تطير؟ قال: تطير ما بين السماء والأرض، قال: أعن تلك سألتك عليك لعنة الله؟ قال: عن تلك أخبرتك عليك غضب الله، قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ قال: دلنا عليها، قال: تصنع بها ماذا؟ قال: أضرب عنقها. قال: ويلك يا حجاج، ما أجهلك! تريد أن أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي الله؟ قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذاك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين، قال: ولم لا أم لك؟ قال: إنه أخطأ خطيئة طبقت بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعمله إياك على رقاب المسلمين، فقال الحجاج لجلسائه: ما رأيكم فيهم؟ قالوا: نرى أن تقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد، قال: ويلك يا حجاج، جلساء أخيك كانوا أحسن مجالسة من جلسائك، قال: وأي أخوي تريد؟ قال: فرعون حين شاور موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وأشار عليك هؤلاء بقتلي، قال: وهل حفظت القرآن؟ قال: وهل خشيت فراره

⁽¹⁾ (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 22)

فأحفظه؟ قال: هل جمعت القرآن؟ قال: ما كان متفرقاً فأجمعه، قال: أقرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله بل قرأته وأنا أنظر إليه، فقال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعملتي وتلقاه بدمي، قال: إذاً أعجلك إلى النار، قال: لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ خلافاً ومناقضتك، قال: إني قاتلك، قال: إذاً أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك، قال: نقمعك عن الكلام السيئ، يا حرسى! اضرب عنقه، وأومى إلى السيف إلا يقتله، فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك عليه رشح جبينه، قال: جزعت من الموت يا عدو الله؟ قال: لا يا فاسق، ولكن أبطأت علي بما لي فيه راحة، قال: يا حرسى أعظم جرحه، فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله، ووالله ما أتمها ورأسه في الأرض⁽¹⁾.

خبر الغضبان بن القبعثري مع الحجاج

قال أحمد بن عبيد بن ناصح: حدثت أن الحجاج بن يوسف بعث الغضبان بن القبعثري ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وهو بكرمان، وبعث عليه عيناً وكان كذلك يفعل، فلما انتهى الغضبان إلى عبد الرحمن قال له: ما وراءك؟ قال: شر، تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك، وانصرف الغضبان فنزل رملة كerman وهي أرض شديدة الرمضاء، فبينما هو كذلك إذ ورد عليه أعرابي من بني بكر بن وائل على فرس له يقود ناقة، فقال: السلام عليك، قال الغضبان: السلام كثير وهي كلمة مقولة، قال الأعرابي: ما اسمك؟ قال: آخذ. قال: أفتعطي؟ قال: لا أحب أن يكون لي اسمان، قال: من أين أقبلت؟ قال: من الذلول، قال: وأين تريد؟ قال: المشي في مناكبها، قال: من عرض اليوم؟ قال: عرض المتقون. قال: فمن سبق؟ قال الفائزون، قال: فمن غلب؟ قال: حزب الله، قال: فمن حزب الله؟ قال: هم الغالبون، قال: فعجب الأعرابي من منطقه، قال: أما تقرض؟ قال: إنما تقرض الفأرة، قال: أسمع؟ قال: إنما تسمع القينة، قال: أفتنشد؟ قال: إنما تنشد الضالة، قال: أف تقول؟ قال: إنما يقول الأمير، قال: أف تتكلم؟ قال: كل متكلم، قال: أف تنطق؟ قال: إنما ينطق كتاب الله، قال: أسمع؟ قال: حدثني أسمع، قال: أف تسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، قال الأعرابي: تالله ما رأيت كاليوم قط، قال: بلى ولكنك نسيت، قال الأعرابي: فكيف أقول؟ قال: لا أدري والله، قال الأعرابي: كيف ترى فرسي هذه؟ قال الغضبان: هو خير من آخر شر منه وآخر خير منه أفره منه، قال الأعرابي: إني قد علمت ذلك، قال: لو علمت لم تسألني، قال، قال الأعرابي: إنك لمنكر،

⁽¹⁾ (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 76-77)

قال الغضبان: إنك لمعروف. قال: ليس ذاك أريد، قال: فما تريد؟ قال: أردت إنك لعاقل قال: أفتعقل بعيرك هذا؟ قال الأعرابي: أفتأذن لي فأدخل عليك؟ قال الغضبان: وراؤك أوسع لك، قال الأعرابي: قد أحرقتني الشمس، قال: الساعة يفيء عليك الفيء، قال الأعرابي: إن الرمضاء قد آذنتني، قال: بل على قدميك، قال قد أوجعني الحر، قال الغضبان: ما لي عليه سلطان، قال الأعرابي: إني لا أريد طعامك ولا شرابك، قال: لا تعرض بهما فوالله لا تذوقهما، قال الأعرابي: سبحان الله، قال: من قبل أن تطلع رأسك، قال الأعرابي: أما عندك إلا ما أرى؟ قال: بلى، هراوتان أضرب بهما رأسك، فقال الأعرابي: الله، قال: ظلمك أحد؟ فلما رأى الأعرابي ذلك قال: إني لأظنك مجنوناً، قال الغضبان: اللهم اجعلني ممن يرغب إليك، قال: إني لأظنك حرورياً، قال: اللهم اجعلني ممن يتخير الخير، ثم قال: له الغضبان: أهذا بعيرك يا أعرابي؟ قال: نعم: فما شأنه؟ أرى فيه داء فله أنت بائعته ومشتري ما هو شر منه، فولى الأعرابي وهو يقول: والله إنك لمرح أحقق. فلما قدم الغضبان على الحجاج قال: كيف تركت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير، أرض ماؤها وشل، وثمرها دقل ولصها بطل، فالجيش فيها ضعاف، إن كثروا فيها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا، فقال الحجاج له: أما إنك صاحب الكلمة التي بلغتني عنك حين قلت تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك؟ قال الغضبان: أما إنها - جعلني الله فداك - لم تنفع من قيلت له، ولا تضر من قيلت فيه، فأمر الحجاج به إلى السجن، فلما ذهب مكث فيه حتى إذا بنى الحجاج خضراء واسط أعجبه كما لم يعجبه بناء قط فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير، ما بنى ملك قط مثلها، وما نعلم للعرب ماثرة أفضل منها، قال الحجاج: أما إن لها عيباً، سأبعث إلى من يخبرني به فبعث إلى الغضبان فأقبل يرسف في قيده، فلما دخل عليه سلم، فقال الحجاج: كيف ترى قبتي هذه؟ قال: أصلح الله الأمير هذه قبة بنيت في غير بلدك لغير ولدك، لا يسكنها وارثك ولا يدوم لك بقاؤها كما لم يئيم هالك ولم يبق فان، وأما هي فكأن لم تكن، قال: صدقت، ردوه إلى السجن فإنه صاحب الكلمة التي بلغتني عنه، قال: أصلح الله الأمير، ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له، قال: أتراك تنجو مني لأقطع يديك ورجليك ولأكوين عينيك، قال: ما يخاف وعيدك البريء ولا ينقطع منك رجاء المسيء، قال: لأقتلنك إن شاء الله، قال: بغير نفس، والعفو أقرب للتقوى، قال له الحجاج: إنك لسمين، قال: لمكان القيد والرتعة ومن يكن جار الأمير يسمن. قال الحجاج ردوه إلى

السجن ، قال: أصلح الله الأمير قد أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال: " سبحان الذي يخر لنا هذا وما كنا له مقرنين " ، قال: أنزلوه أخزاه الله، قال " اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين " ، قال: جروه أخزاه الله، قال: " بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم " ، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه. أثقلني الحديد فما أطيق المشي، قال: احملوه لعنه الله، فلما حملته الرجال على عواتقها قال: " سبحان الذي يخر لنا هذا وما كنا له مقرنين " ، قال: أنزلوه أخزاه الله، قال " اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين " ، قال: جروه أخزاه الله، قال: " بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم " ، قال: ويحكم، اتركوه فقد غلبني بخبثه(1).

عبد الملك يوجه نظر الحجاج إلى إسرافه ورد الحجاج عليه

قال أبو عبيدة: لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق قدم قيساً واتسع له في إنفاق الأموال، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما لا ينفق أمير المؤمنين في الأسبوع، وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر، عليك بتقوى الله في الأمر كله وكن لوعيده تخشى وتضرع، ووفر خراج المسلمين وفيأهم، وكن لهم حصناً يجير ويمنع، فكتب إليه الحجاج:

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم ... قراطيس تملئ ثم تطوى فتطبع
كتاب أتاني فيه لين وغلظة ... وذكرت والذكرى لذي اللب تنفع
وكانت أمور تعتريني كثيرة ... فأرضخ أو أعتل حيناً فأمنع
إذا كنت سوطاً من عذاب عليهم ... ولم يك عندي في المنافع مطمع
أيرضى بذاك الناس أم يسخطونه ... أم أحمد فيهم أم ألام فأقدع
وكانت بلاداً جنتها حيث جنتها ... بها كل نيران العداوة تلمع
فقاسيت فيها ما علمت ولم أزل ... أصارع حتى كدت بالموت أصرع
فكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ... ولو كان غيري طار مما يروع
وكنت إذا هموا بإحدى هناتهم ... حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
فلو لم يزد عني صناديد منهم ... تقسم أعضائي ذئاب وأضبع
فكتب إليه عبد الملك: اعمل برأيك(2).

¹ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 82

² (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 82

يا مَخْذُلُ

ومر بعكرَاش بن ذؤيب - وكان ممن شهد الجمل مع عائشة - فَقُطعت يداه جميعاً . فصاح به عكرَاش : يا مَخْذُلُ . فقال الأحنفُ إنك لو كنت أطعتني لأكلت بيمينك وامسحت بشمالك .

أنا والله قطعتها

جاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه فقال: بسم الله يا ابن أخي ما دعاك إلى هذا؟ قال: آليت أن ألطم سيد العرب من بني تميم. قال: فبرّ يمينك فما أنا بسيدها، سيدها حارثة بن قدامة! فذهب الرجل فلطم حارثة فقام إليه حارثة بالسيف فقطع يمينه. فبلغ ذلك الأحنف فقال: أنا والله قطعتها.(¹)

إذا نعفيك يا أبا بحر

وحكي أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للغنم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضي الله تعالى عنه فلقد لقي ربه وأفرد في قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرها فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً فقال قم فاصعد قال أما والله لأنصفنك في القول والفعل قال وما أنت قائل إن أنصفتني قال أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه محمد ثم أقول أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه وعلى فئته فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ثم أقول اللهم ألعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية اللهم الغنم لعنا كثيراً أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روعي فقال معاوية إذا نعفيك يا أبا بحر(²).

¹ (إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 221/1

(2) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق د.مفيد محمد قميحة ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ،

من دهاء المهلب

لما طالت الحرب بين الخوارج وبين المهلب بن أبي صفرة، ورأى ثباتهم وأنهم كلما تفرقوا بالحرب عادوا وتجمعوا باتفاق أهوائهم، علم أنه لا يظفر بهم تاماً ويستأصلهم إلا باختلاف يقع بينهم. وكان في الخوارج حداد يعمل نصالاً مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فوجه المهلب رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري والخوارج، فقال: ألق هذا الكتاب في العسكر واحذر على نفسك. وكان الحداد يقال له: أبزى. فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها، وزدنا من هذه النصال. فوقع الكتاب إلى قطري فدعا بأبزى، فقال له: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: لا أعلم علمها، فأمر به فقتل. فجاء عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟ قال: فما حال هذه الدراهم؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً ويجوز أن يكون حقاً. فقال له قطري: فقتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه. فتتكر عبد ربه في جماعة معه ولم يفارقوه. فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلاً نصرانياً، فقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك، ففعل النصراني فقال له قطري: إنما السجود لله، فقال: ما سجدت إلا لك. فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله، وتلا: " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ". فقال له قطري: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا المسيح بن مريم فما ضر المسيح ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر ذلك عليه وقال: أقتلت ذمياً! فاختلفت الكلمة، فبلغ ذلك المهلب غوجه إليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدم به إليه. فقال: رأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكما، فمات أحدهما في الطريق، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز فكافر حتى يجيزها. فقال له قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز المحنة. فكثر الاختلاف بينهم، وكان سبب تفرقهم وتمكن المسلمين منهم وانقطاع دابرهم⁽¹⁾.

⁽¹⁾ ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 8/3

ما أخطأت العرب إذ جعلت المهلب شيخها

قدم زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة بخراسان ونزل على ابنه حبيب فجلسا ذات عشية على شراب وفي الدار شجرة عليها حمامة فجعلت تغرد وزياد الأعجم يقول:

تغني أنت في ذممي وعهدي ... وذمة والدي أن لا تضاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي ... على صفر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتاً ... ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإن هم يفتلوك طلبت ثأري ... بقتلهم لأنك في جواري
فأخذ حبيب سهماً فرماها فأثبتها فماتت، فقال له زياد قتلت جاري، بيني وبينك الأمير المهلب ثم أتى المهلب فأخبره فقال: يا حبيب ادفع إلى أبي أمانة ألف دينار قال حبيب: أعز الله الأمير كنت ألعب. فقال: أمع هذا لعب؟ جار أبي أمانة جاري، فدفعت إليه حبيب ألف دينار فقال زياد الأعجم:
قلله عيناً من رأى كقضية ... قضاها فأمضاها الأمير المهلب
قضى ألف دينار بجار أجرته ... من الطير حضان على البيض ينعب
رماه حبيب بن المهلب رمية ... فأنفذه بالسهم والشمس تغرب
فألزمه عقل القتل بجزرة ... وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال زياد لا يروع جاره ... وجارة جاري مثل جاري وأقرب
فلما سمعه المهلب أجازته بجائزة حسنة وصرفه مكرماً وبلغ هذا العشر الحجاج، فقال: ما أخطأت العرب إذ جعلت المهلب شيخها⁽¹⁾.

في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي

ويزعم الرواة: أن قتيبة بن مسلم لما فتح سمرقند أفضى إلى أثاث لم ير مثله، وإلى آلات لم ير مثلها، فأراد أن يري الناس عظيم ما فتح الله عليه، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدار ففرشت، وفي صحنها قدور ترتقي بالسلالم، فإذا بالحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي قد أقبل. والناس جلوس على مراتبهم، والحضين شيخ كبير. فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لقتيبة: انذن لي في معاتبته. قال: لا ترده فإنه خبيث الجواب، فأبى عبد الله إلا أن يأذن له - وكان عبد الله يضعف، وكان قد تسور حائطاً إلى امرأة قبل ذاك - فأقبل على الحضين بن المنذر فقال: أمن الباب دخلت يا أبا ساسان؟ قال: أجل، أسن عمك عن تسور الحيطان، قال: رأيت هذه القدور؟ قال: هي أعظم من ألا ترى. قال: ما أحسب بكر بن وائل رأى مثلها! قال:

¹ (القاضي التنوخي ، المستجاد من فعلات الأجواد، 58/1

أجل، ولا عيلان، لو كان رآها سمي شعبان، ولم يسم عيلان، قال له عبد الله:
يا أبا ساسان، أتعرف الذي يقول:

عزلنا وأمرنا وبكر بن وائل ... تجر خصاها تبتغي من تحالف
قال: أعرفه، وأعرف الذي يقول:

خيبة من يخيب على غني ... وباهلة بن يعصر والركاب
يريد يا خيبة من يخيب. قال. أفتعرف الذي يقول:

كأن فقاح الأزد حول ابن مسمع ... إذا عرقت أفواه بكر بن وائل
قال: نعم. وأعرف الذي يقول:

قوم قتيبة أمهم وأبوهم ... لولا قتيبة أصبحوا في مجهل
قال: أما الشعر فأراك ترويه. فهل تقرأ من القرآن شيئاً؟ قال أقرأ منه الكثير

الأطيب: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً}

[الانسان:1] قال: فأغضبه. فقال: والله لقد بلغني أن امرأة الحضيض حملت

إليه وهي حبلى من غيره. قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى. ثم قال

على رسله: وما يكون! تلد غلاماً على فراشي فيقال: فلان بن الحضيض، كما

يقال: عبد الله بن مسلم. فأقبل قتيبة على عبد الله فقال: لا يبعد الله غيرك⁽¹⁾.

أنت عندي مثل سالم

ومن الكنايات ، ما حكى أن قتيبة بن مسلم دخل على الحجاج وبين يديه كتاب

قد ورد إليه من عبد الملك ، وهو يقرؤه ، ولا يعلم معناه ، وهو مفكر ، فقال :

ما الذي أحزن الأمير ؟ قال : كتاب ورد من أمير المؤمنين ، لا أعلم معناه ؟

فقال : إن رأى الأمير إعلامي به ! فناولته إياه ، وفيه : (أما بعد ، فإنك سالم ،

والسلام) .

فقال قتيبة : مالى إن استخرجت لك ما أراد به ؟ قال : ولاية خراسان ، قال :

إنه ما يسرك أيها الأمير ، ويقر عينك ، إنما أراد قول الشاعر :

يديروني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والانف سالم

أي أنت عندي مثل سالم عند هذا الشاعر ، فولاه خراسان⁽²⁾ .

¹ (الكامل في اللغة و الأدب ، 3/ 12

² (عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى : 656هـ)، شرح نهج البلاغة ، المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، 36/5

أمانى قوم بحسب أحوالهم:

قال قتيبة بن مسلم للحصين بن المنذر: ما تتمنى؟ فقال: لواء منشور وجلوس على السرير وسلام عليك أيها الأمير. وقيل لعبد الله بن الاهتم ذلك فقال: رفع الأولياء وقمع الأعداء وطول البقاء مع القدرة والنماء. وقيل ذلك للفضل بن سهل فقال: توقيع نافذ وأمر جائر. وقيل لحكيم تمن فقال: محادثة الأخوان وكفافاً من عيش والانتقال من ظل إلى ظل. وقيل ذلك لمطرف فقال: مركب وطى ومطعم شهى وملبس دفى. وقيل لآخر فقال: شواء مستنشل وغناء مسترسل ونكاح مستعجل. وقال بعضهم: العي كله في صحة البدن وكثرة المال وخمول الذكر. وقيل لحكيم فقال: هوى وافق حقاً. وقيل لرجل فقال: أن تعطي جوارحك لذاتها. وقيل لأعرابي فقال: خباء في أرض خلاء وكلب إذا أصابه المطر زاحمني فيه. وقيل لابن سنان فقال: ليل طويل الطرفين أقرن بينهما بذكر الله تعالى. وقيل لمأبون فقال: لذة الابنة وحك الجرب فمن حرمهما فقد حرم لذات الدنيا! نعوذ بالله من بعض الأمانى⁽¹⁾.

مدح اللحية والاعتذار لها:

دخل رجل على قتيبة بن مسلم وكان عظيم اللحية وقتيبة خفيف اللحية فقال: لقد كبرت لحيتك، فقال: والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، فقال قتيبة: قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث⁽²⁾.

ذلك الظن بك

قال أخبرنا عبد القاهر بن السرى قال: أصاب قتيبة بن مسلم قميصاً منسوجاً باللؤلؤ فبعث به إلى الحجاج بن يوسف فبعث به الحجاج إلى الوليد ثم تتبعته نفس الحجاج فكتب إلى قتيبة أما بعد: فإننا كنا أنفذنا ما أنفذته إلينا إلى الوليد وما أحسبك إلا قد احتسبت مثله قبلك لنسائك وبناتك، فأثرنا بما قبلك منه فكتب إليه: لأن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله أحب إلي من أن أدخر عنك علماً فكتب إليه ذلك الظن بك⁽³⁾.

¹ (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 206/1)

² (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 461/1)

³ (الزجاجي، الأمالي، 26/1)

بابين من ابواب الجنة

قيل: موت الأبوين سد بابين من ابواب الجنة. قال قتيبة بن مسلم: لما ماتت أمه لأبي مجلز: لقد سد دوني باب من ابواب الجنة. قال: نعم وباب من ابواب النار لأنك ما كنت تأمن أن تعقها⁽¹⁾.

ويل أم قتيبة

كتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم: أي قد طلقت أم خالد بنت قطن الهلالية عن غير ريبة، ولا سوء، فتزوجها. فكتب إليه قتيبة: إنه ليس كل مطالع الأمير أحب أن أطلع. فقال الحجاج: ويل أم قتيبة. وأعجبه ذلك⁽²⁾.

آخر الجزء العشرون ويليهِ الحادي والعشرون

عن الأصمعي قال كان رجل من بني يشكر كان له إحسان وأياد جميلة وكان له بنو أعمام يحسدونه فقال يوما إن لي بني أعمام يحسدوني على كل شيء حتى على الصلب قال فقالوا وكيف يحسدونك على الصلب قال إذا أخذت مجلسي من المسجد الجامع فاحضروا حتى تروا قال وكان مجلس له في المسجد يجلس فيه فجلس وبنو عمه حوله فالتفت إليه بعضهم فقالوا ما لنا نراك مغموماً فقال قد ورد كتاب معاوية على زياد أن أؤخذ فأصلب مع الأحنف بن قيس فالتفت إليه بعض بني أعمامه فقالوا بلغ من قدرك أن تصلب مع الأحنف بن قيس فالتفت إلى من حوله فقال اسمعوا آخر الجزء العشرون ويليهِ الحادي والعشرون إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده و صلى الله عليه وسلم على محمد وآله وصحبه وسلامه⁽³⁾.

¹ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 63/2

² (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب

العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 58/5

³ (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم ، 608/1

غَضُّ البَصَرِ

غَضُّ البَصَرِ : غَضٌّ بَصْرَهُ يَغْضُوهُ غَضًّا، وهو مأخوذ من مادّة (غ ض ض) التي تدلّ على معنيين:

أحدهما: الكَفّ والنَّقْص، والآخر: الطَّرَاوَة، وغَضُّ البَصَرِ من المعنى الأوّل، وكلّ شيء كففته فقد غَضضته، ومنه قولهم تلحقه في ذلك غضاضة، أي أمر يغضّ له بصره.

والإغضاء: إدناء الجفون، وهذا مشتقّ من اللَّيْلَة الغاضية: الشّديدة الظّلمة، ومثله الغضاضة فمعناها: الفتور في الطّرف، فيقال: غَضّ وأغضّ وذلك إذا وانى بين جفنيه ولم يلاق (أي بينهما) (1).

قال القرطبيّ: البصر: هو الباب الأكبر إلى القلب، وأمر طرق الحواسّ إليه، وبحسب ذلك كثر السّقوط من جهته، ووجب التّحذير منه، وغضّه واجب عن جميع المحرّمات. وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله (2).

وقد قال المولى عز وجل: " قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (النور: 30-31) "

وعن عبادة بن الصّامت- رضي الله عنه-، أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اضمنوا لي ستّا من أنفسكم أضمن لكم الجنّة: اصدقوا إذا

¹ (مقاييس اللغة لابن فارس (4/ 248) والصّاح (3/ 1095) ولسان العرب (5/ 3265، (3266).

² (تفسير القرطبي ج 2 ص 148 (المجلد السادس).

حدثتكم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحافظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»⁽¹⁾.

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والجلوس في الطرقات». فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بدّ، نتحدّث فيها. فقال: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطّريق حقّه». قالوا: وما حقّ الطّريق يا رسول الله؟ قال: «غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السّلام، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»⁽²⁾.
وعن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- أنّه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري⁽³⁾

وقال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه: حفظ البصر أشدّ من حفظ اللّسان.
وقال ابن مسعود- رضي الله عنه- ما من نظرة إلا وللشّيطان فيها مطمع.
وقال أنس بن مالك- رضي الله عنه-: إذا مرّت بك امرأة فغمض عينيك حتّى تجاوزك.

وقال سعيد بن أبي الحسن: قلت للحسن: إنّ نساء العجم يكشفن صدورهنّ ورؤوسهنّ. قال: اصرف بصرك. يقول الله تعالى قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (النور / 30)

وقال وكيع بن الجراح- رحمه الله تعالى: خرجنا مع سفيان الثّوريّ في يوم عيد فقال: «إنّ أوّل ما نبدأ به في يومنا غضّ أبصارنا.

وقال العلاء بن زياد العدويّ- رحمه الله تعالى-: لا تتبع بصرك حسن ردف المرأة، فإنّ النّظر يجعل الشّهوة في القلب.

وقال شجاع بن شاه- رحمه الله تعالى-: من عمّر ظاهره باتّباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشّهوات»، (وذكر خصلة سادسة) هي أكل الحلال. قال: لم تخطيء له فإساسة.
وقال ابن دقيق العيد- رحمه الله تعالى-: «إنّ التّقوى سبب لغضّ البصر، وتحصين الفرج.

¹ (أحمد (323 /5) واللفظ له، الحاكم (4/ 358- 359) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: مرسل وله شاهد. والخرائطي في مكارم الأخلاق (31). وذكره الألباني في الصحيحة (454 /3) برقم (1470). وكذا في صحيح الجامع (1/ 339) رقم (1029).

² (البخاري- الفتوح 11 (6229) واللفظ له. ومسلم (2121).

³ (مسلم (2159).

وقال ابن كثير. رحمه الله تعالى:- عند تفسير قوله تعالى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (النور : 30) «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضُّوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلَّا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضُّوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتَّفَق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً.

وقال الحافظ ابن حجر نظماً في آداب الطَّريق:

جمعت آداب من رام الجلوس على ال ... طَّرِيق من قول خير الخلق إنساناً
افش السَّلام وأحسن في الكلام وش ... مَّت عاطساً وسلاماً ردَّ إحساناً
في الحمل عاون ومظلوماً أعن وأغث ... لهفان اهد سبيلاً واهد حيراناً
بالعرف مر، وانه عن نكر وكفّ أذى ... وغضَّ طرفاً وأكثر ذكر مولانا
وقال الشَّاعر:

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلَّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

-كسبت لقلبي نظرة لتسرَّه ... عيني فكانت شقوةً ووبالاً
ما مرَّ بي شيء أشدَّ من الهوى ... سبحان من خلق الهوى وتعالى
وقال آخر:

ألم تر أنَّ العين للقلب رائد ... فما تألف العينان فالقلب يألف
وقال أبو الطَّيِّب المتنبِّي:
وأنا الذي اجتلب المنيَّةَ طرفه ... فمن المطالب والقَتيل القاتل
-قال الشَّاعر:

كلَّ الحوادث مبدأها من النَّظر ... ومعظم النَّار من مستصغر الشَّرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السَّهام بلا قوس ولا وتر
المرء ما دام ذا عين يقلِّبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسرَّ مقلته ما ضرَّ مهجته ... لا مرحباً بسرور بعده الضرر

قال بعض السَّلف: «من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته.
قال الشَّاعر:

وأغضَّ طرفي ما بدت لي جارتِي ... حتَّى يوارِي جارتِي مأواها
وقال ابن تيميَّة- رحمه الله تعالى:- قد أمر الله في كتابه بغضَّ البصر وهو
نوعان: غَضُّ البصر عن العورة، وغضُّه عن محلِّ الشَّهوة.

فالأول منهما: كغضّ الرجل بصره عن عورة غيره، كما قال النبيّ «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة» ويجب على الإنسان أن يستتر عورته.
وأما النوع الثاني: فهو غضّ البصر عن الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية وهذا أشدّ من الأول .

من فوائد غض البصر

- إنّ غضّ البصر عن العورة التي ينهى عن النّظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن له ثلاث فوائد:
- (1) حلاوة الإيمان ولذّته والتي هي أطيب وأحلى ممّا تركه لله، فإنّ من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.
- (2) نور القلب والفراسة، ولذلك ذكر الله عزّ وجلّ، عقب آيات غضّ البصر التي في سورة النّور قوله تعالى اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النور: 53) وذلك لأنّ الله- عزّ وجلّ- يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه. فلمّا منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحلّ، أطلق نور بصيرته وفتح عليه باب العلم والمعرفة.
- (3) قوّة القلب وثباته وشجاعته فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجّة .
- يبدل الله صاحبه نورا يجد حلاوته في قلبه.
- فيه طاعة لله ورسوله يترتّب عليها محبة توصله إلى الجنة.
- من أهمّ الصفات التي يتحلّى بها المؤمن وتتولّد من الحياء.
- فيه راحة للنفس والبدن.
- يصون المحارم ويجنب الوقوع في الزلل.
- يجعل المجتمع المتحلّي بهذه الصّفة مجتمعا آمنا متحابّا.
- يصون المجتمع من انتشار الزنى.
- يضرّ بالشيطان وأعدائه ويستجلب العفة.

ومن مضار إطلاق البصر

- إطلاق البصر بريد الزنا ورسوله الأول.
- لوعة القلب وهياج الشوق فيجرّ إلى الحرام.
- يفسد القلب والخلق.
- دليل قلة الحياء وفقد الحشمة.
- من أسباب شيوع الفاحشة في المجتمعات فتسقط وتنهار.

ومن المواقف :

متى ذهبت عينك ؟

دخل الشعبي الحمام وفيه رجل حاسر ، فغمض عينيه ، فقال له الرجل : يا شيخ ، متى ذهبت عينك ؟ فقال : مذ أبدى الله عورتك⁽¹⁾ .

متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟

ودخل أبو حنيفة الحمام فرأى فيه قوماً لا مآزر لهم ، فأغلق عينيه، وجعل يتهدي بيديه. فقال له أحدهم: متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟ قال: منذ انكشفت عورتكم.(2)

ما سبب الذنب ؟

سئل ذو النون ما سبب الذنب ؟ قال اعقل ويحك ما تقول فإنها من مسائل الصديقين سبب الذنب النظرة ومن النظرة الخطرة فإن تداركت الخطرة بالرجوع الى الله ذهبت وإن لم تذكرها امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة وكل ذلك بعد باطن لم يظهر على الجوارح فإن تذكرت الشهوة وإلا تولد منها الطلب فإن تداركت الطلب وإلا تولد منه العقل .

حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط

وقال أبو يزيد: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل هذا ولم يقوله رسول الله ﷺ إياه؟ فلم أسأله. ثم إن الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء؛ حتى لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

¹ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 184/4

² (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 1 / 193

مواقف متنوعة :

نعوذ بالله من طول الأمل

قال أحمد بن إبراهيم الدورقي حضرت الصلاة فقال معروف الكرخي لأبي توبة صل بنا فقال إن صليت بكم هذه الصلاة لا أصلي بكم الثانية نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل . (1)

لعلي لا أعيش حتى أبلغه

قال أحمد الدورقي قعد معروف الكرخي على شط الدجلة فتيمة فقيل له الماء قريب منك فقال لعلي لا أعيش حتى أبلغه .

من عد غداً من أجله فقد أساء

أقام معروف الكرخي الصلاة فقال لمحمد بن ثوابة: تقدم. فقال: إن صليت بكم الصلاة لم أتقدم بعده. فقال: وأنت تحدث نفسك بصلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل، من عد غداً من أجله فقد أساء. (2)

وأنا! أوئل أن أعيش حتى أكل هذا؟!!

وقال عبد الرحمن بن إسماعيل: " كنت ببغداد، ووافي الحاج من خراسان، فلقيني بعض أصحابنا ممن له فضل وإفضال، فسألني أن أعرفه بجماعة ليصلهم بشيء، فقلت له: " ابدأ بالجنيد! " فحمل إليه دراهم وثياب كثيرة، فلما رآه أعجبه أدبه في رفقته، فقال: " اجعل بعضه لفقراء اذكرهم لك " فقال: " أنا أعرف الفقراء أيها الشيخ؟! " فقال له الجنيد: " وأنا! أوئل أن أعيش حتى أكل هذا؟! " ، فقال: " إني لم أقل لك: أنفقه في الخل والبقل، والكامخ والجبن والمالح!، إنما أريد أن تنفقه في الطيبات وألوان الحلاوات، فكل ما أسرع فهو أحب إلي " . فتبسم الجنيد وقال: " مثلك لا يجوز أن يرد عليه! " وقبل ذلك منه. فقال الخراساني: " ما أعلم أحداً ببغداد أعظم منة علي منك! " ، فقال الجنيد: " ولا ينبغي لأحد أن يرتفق إلا ممن كان مثلك " .

¹ (حلية الأولياء ، 8 / 361)

² (الصفوري ، نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، ص 111)

كيف تُصلي؟

وروى أن عصام بن يوسف مر بحاتم الأصم، وهو يتكلم في مجلسه، فقال له: يا حاتم، تُحسن تصلي؟ قال: نعم. قال: كيف تُصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأقف بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالترتيل، وأركع وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالوقار والسنة، وأسلمها إلى الله تعالى بالإخلاص، وأرجع إلى نفسي بالخوف أن لا يقبلها مني، وأحفظ بالجهد إلى الموت. فقال له: تكلم، فأنت تحسن تصلي.

واعجابه

قال محمد بن أحمد المفيد حضرت الجنيد يوماً فسأله أصحابه فقالوا يا أستاذ متى يكون الله عز وجل مقبلاً على عبده فلهي عنهم ولم يجبههم فألحوا عليه وكان ظريفاً لا يحب أن يتبشع جوابه على أحد فالتفت إليهم فقال واعجابه يقف بين يدي ربه بلا حضور ويقتضي بهذه الوقفة إقبالا . (1)

ما يمنعه من الرد عليّ إلا هواني عليه

عن عبد الله بن بكر المزني قال جاء رجل إلى الأحنف بن قيس فشتمه فسكت عنه فأعاد عليه ولح والأحنف ساكت فقال الرجل وا لهفاه ما يمنعه من الرد عليّ إلا هواني عليه (2) .

ممن تعلمت الحلم؟

حكى أن الأحنف بن قيس «قيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال :» من قيس بن عاصم ، قيل له : «وما بلغ حلمه» ؟ قال : «بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها» فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية ، فقال لها : «لا روع عليك ، أنت حرة لوجه الله تعالى (3) .

إذا متُّ فادفع القميص إلى هذا

ويقال : إنه لم يُرَ قطُّ ضجراً إلا مرةً واحدة ، فإنه أعطي خياطاً قميصاً بخيطة ، فحبسه حولين . فأخذ الأحنف بيد ابنه بحر ، فأتى به الخياط ، وقال : إذا متُّ فادفع القميص إلى هذا .

¹ (حلية الأولياء ، 10 / 268)

² (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم ، 1 / 173)

³ (محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، ص 183)

يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام

كان الأحنف بن قيس يوماً جالساً مع معاوية، إذ مرّت بهما وصيفة فدخلت بيتاً من البيوت، فقال معاوية: يا أبا بحر، أنا والله أحبّ هذه الجارية وقد أمكنتني منها لولا الحياء من مكانك. فقال الأحنف: فأنا أقوم. بل تجلس لئلا تستريب بنا فاطمة. فقال الأحنف: شأنك. فقام معاوية إليها. فبينما هو يماجنها إذ خرجت بنت قريظة فقالت للأحنف: يا قوّاد، أين الفاسق. فأوماً الأحنف إلى البيت الذي هو فيه، فأخرجته ولحيته في يدها، فقال لها الأحنف: أرفقي بأسيرك، رحمك الله. فقالت: يا قوّاد، وتكلّم أيضاً؟ فقال معاوية: يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام⁽¹⁾.

وترك ما كان هم به

وذكر أن الأحنف اعتم ونظر في المرأة، فقالت امرأته: كأنك قد هممت أن تخطب امرأة. قال: قد كان ذلك. قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوج من الرجل إلى امرأتين. فنقض عتمه وترك ما كان هم به⁽²⁾.

أف لك أن كنت كما تقول

تزوج فضالة بن عبد الله الغنوي امرأة بخراسان فأبغضته فنافرته إلى قتيبة بن مسلم قال له هل بينك وبينها قرابة قال لا قال ففيم تحتل هذا لها وقد جعل الله لك إلى الراحة منها سبيلاً قال إني أحبها ولقد كنت أهزأ بالرجل تبغضه المرأة وهو يحبها فابتليت فقال قتيبة فلا تحبن من لا يحبك فهي والله تنتظر إليك بعين فارك ثم قال لها مالك ويحك ولزوجك قالت أبغضته لخصال أذكرها هو والله قليل الغيرة سريع الطيرة كثير العتاب شديد الحساب قد أقبل بخره وأدبر ذفره واسترخى ذكره وطمحت عيناه واضطربت رجلاه يفيق سريعاً وينطق رجيعاً وهو أيضاً يأكل هرساً ويمشي خلساً ويصبح رجساً لا يغتسل من جنابة ولا يأمن من شره أصحابه إن جاع جزع وإن شبع خشع فقال له قتيبة أف لك أن كنت كما تقول طلقها قبح الله رأيك فطلقها⁽³⁾

¹ (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص56

² (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 193/4

³ (ابن طيفور، بلاغات النساء ، ص43

ما تقول في التزويج ؟

قال الحجاج لابن القرية : ما تقول في التزويج ؟ قال : وجدت أسعد الناس في الدنيا ، وأقرهم عيناً ، وأطيبهم عيشاً ، وأبقاهم سروراً ، وأرخاهم بالاً ، وأشبههم شباباً ، من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة ، إن ائتمنها زوجها وجدها أمينة ، وإن قتر عليها وجدها قانعة ، وإن غاب عنها كانت له حافظة ، تجد زوجها أبداً ناعماً ، وجارها سالماً ، ومملوكها آمناً ، وصبيها طاهراً ، قد ستر حلمها جهلها ، وزين دينها عقلها ، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنبها ، وكاللؤلؤة التي لم تثقب ، والمسكة التي لم تفتق قوامه صوامه ضاحكة بسامة ، إن أيسرت شكرت ، وإن عسرت صبرت ، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه ، وإنما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف ، يجره في الأرض جراً ، فبعلها مشغول ، وجارها مقبول ، وصبيها مرذول ، وقطها مهزول . قال : يا ابن القرية ، قم الآن فاخطب لي هنداً بنت أسماء ، ولا تزدد على ثلاث كلمات . فأتاهم ، فقال : جئت من عند من تعلمون ، والأمير يعطيكم ما تسألون ، أفنتكحون أم تدعون ؟ قالوا : أنكحنا وغنمنا . فرجع إلى الحجاج ، فقال : أصلح الله الأمير ، صلاح من رضي عمله ، ومد في الخيرات أجله ، وبلغ به أمله ، جمع الله شملك ، وأدام طولك ، وأقر عينك ، ووقاك حينك ، وأعلى كعبك ، وذلل صعبك ، وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات ، والتيسير والبركة ، وأسعد السعود وأيمن الجدود ، وجعلها الله ودوداً ولوداً ، وجمع بينكما على الخير والبركة ، فتزوجها الحجاج ، ثم إنه دخل ذات يوم عليها ، وهي تقول : وما هند إلا مهرة عربية . . . سليلة أفراس تجللها بغل فإن نتجت مهراً كريماً فبالحرى . . . وإن يك أقرافاً فما أنجب الفحل

فخرج من عندها مغضباً ، ودعا ابن القرية ، فدفع إليه مائة ألف درهم وقال : أدخل إلى هند وطلقها عني ، ولا تزدد على كلمتين ، وادفع إليها المال ، فحمل ابن القرية المال ، ودخل عليها فقال : إن الأمير يقول : كنت فبنت ، وهذه المائة ألف صداقك . فقالت : يا ابن القرية ما سررت به إذ كان ، ولا جزعت عليه إذ بان ، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به ، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها (1).

¹ (المحاسن والأضداد ، ص 160-161)

محاسن مكر النساء

ذكروا أن الحجاج بن يوسف أرق ، ذات ليلة ، فبعث إلى ابن القرية ، فقال : أرق ، فحدثني حديثاً يقصر على طول ليلي ، ولكن من مكر النساء وفعالهن . فقال : أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلاً يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة ، كان معروفاً بالنسك والسخاء . وكانت له زوجة يقال لها جميلة ، وله صديق من النساك . فاستودعه عمرو ألف دينار ، وقال : إن حدثت بي حادثة ، ورأيت أهلي محتاجين ، فأعطيهم هذا المال . فعاش ما عاش ، ثم دعي فأجاب ، فمكثت جميلة بعده حيناً ، ثم ساءت حالها ، وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة . فبينما الخادمة تعرض الخاتم على البيع ، إذ لقيها الناسك صديق عمرو ، فقال : فلانة ؟ قالت : نعم . قال : حاجتك ؟ فأخبرته بسوء الحال ، وما اضطرت إليه مولاتها من بيع خاتمها ، فهملت عيناه دموعاً ، ثم قال : إن لعمرو قبلي ألف دينار ، فأعلمي بذلك صاحبتك . فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة ، وهي تقول : رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل . فلما سمعت مولاتها ذلك ، سألتها عن القصة ، فأخبرتها ، فخرت ساجدة ، وحمدت ربها ، وبعثت بالجارية إلى الناسك ، فأقبل الناسك ومعه المال ، فلما دخل الدار ، كره أن يدفع المال إلى أحد سواها ؛ فخرجت ، فلما نظر إلى جمالها وكمالها ، أخذت مجامع قلبه ، وفارقه النهي ، وذهب عنه الحياء ، وأنشأ يقول :

قد سلبت الجسم والقلب معاً . . . وبريت العظم مما تلحظين فاردي قلب عميد
واقبلي . . . صلة الضعفين مما ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلاً ، ثم قالت : ويحك ، ألسنت المعروف بالنسك المنسوب إلى الورع ؟ قال : بلى . ولكن نور وجهك سل جسمي ، فتداركيني بكلمة تقيمين لها أودي . فهذا مقام اللانذ بك قالت : أيها المرائي المخادع أخرج عني مذموماً مدحوراً . فخرج عنها ، وقد هام قلبه ، وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقها ، فأتت الملك ترفع إليه ظلامتها ، فلم تصل إليه ، فأتت الحاجب ، فشكت إليه ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، وقالت : إن لوجهك صورة أدفعها عن هذا ، ولا يجعل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق ؟ فقالت : سوءة لامرأة حرة تميل إلى ريبة . فانصرفت إلى صاحب الشرطة ، فأنتهت ظلامتها إليه ، فأعجب بها وقال : إن حجتك على الناسك لا تقبل إلا بشاهدين عدلين ، وأنا مشتري خصومتك ، إن أنت نزلت عند مسرتي . فانصرفت عنه إلى القاضي ، فشكت إليه ، فأخذت بقلبه ،

وكاد القاضي يجن إعجاباً بها ، وقال : يا قرة العين إنه لا يزهد في أمثالك ، فهل لك في مواصلي وغناء الدهر ؟ فاتصرفت ، وباتت تحتال في استخراج حقها ، فبعثت الجارية إلى نجار ، فعمل لها تابوتاً بثلاثة أبواب ، كل منها مفرد ؛ ثم بعثت الجارية إلى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح ، وإلى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة ، وإلى القاضي أن يأتيها إذا تعالى النهار ، وإلى الناسك أن يأتيها إذا انتصف النهار . فأتاها الحاجب ، فأقبلت عليه تحدثه ، فما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية : صاحب الشرطة بالبواب ، فقالت للحاجب : ليس في البيت ملجأ إلا هذا التابوت ، فأدخل أي بيت شئت منه . فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه . ودخل صاحب الشرطة ، فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه ، فما كان بأسرع من أن قالت الجارية : القاضي بالبواب ؛ فقال صاحب الشرطة : أين أختبئ ؟ فقالت : لا ملجأ إلا هذا التابوت ، وفيه بيتان ، فادخل أيهما شئت ، فدخل ، فأقفلت عليه ، فلما دخل القاضي ، قالت : مرحباً وأهلاً ، وأقبلت عليه بالترحيب والتلطيف . فبينما هي كذلك ، إذ قالت الجارية : الناسك بالبواب ، فقال القاضي : ماذا ترين في رده ؟ فقالت : مالي إلى رده سبيل . قال : فكيف الحيلة ؟ قالت : إني مدخلتك هذا التابوت ، ومخاصمته ، فاشهد لي بما تسمع ، واحكم بيني وبينه بالحق . قال : نعم ، فدخل البيت الثالث ، فأقفلت عليه . ودخل الناسك ، فقالت له : مرحباً بالزائر الجاني ، كيف بدا لك في زيارتنا ؟ قال : شوقاً إلى رؤيتك ، وحنيناً إلى قربك . قالت : فالمال ، ما تقول فيه : أشهد الله على نفسك برده ، اتبع رأيك . . . قال : اللهم إنني أشهدك الله لجميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها . فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها ، وخرجت مبادرة نحو باب الملك ، فأنهت ظلامتها إليه ، فأرسل الملك إلى الحاجب ، وصاحب الشرطة ، والقاضي ، فلم يقدر على واحد منهم ؛ ففقد لها ، وسألها البينة ، فقالت : يشهد تابوت عندي فضحك الملك وقال : يحتمل ذلك لجمالك . فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها ، وحمل إلى بين يدي الملك ، فقامت وضربت بيدها إلى التابوت وقالت : أعطي الله عهداً لتتطقن بالحق ، وتشهدن بما سمعت ، أو لأضرمك ناراً ، فإذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على إقرار الناسك لجميلة بألف دينار . فكبر ذلك على الملك ، فقالت جميلة : لم أجد في المملكة قوماً أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي ، ثم فتحت التابوت وأخرجت ثلاثة نفر ، وسألها الملك عن قصتها فأخبرته ، وأخذت حقها من الناسك ، فقال : الحجاج : لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها . قال : وكان يعقوب

بن يحيى المدائني ، ويحيى الكاتب ، كاتب سهل بن رستم ، يتحدثان إلى مهدية ، جارية سليمان بن الساحر ، فقال يعقوب يوماً ليحيى : أنا أشتري أن أرى بطن مهدية ، فقال يحيى : ما تجعل لي إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه ؟ قال : ما شئت قال : بردونك هذا ، قال : نعم . قال : فتوثق منه ، وأتى مهدية فقال لها : كان لي بردون موافق فاراه فنفق ، وأنت لو شئت لحملتني على بردون فاراه ، قالت : أنا أفعل وأشتريه لك بما بلغ الثمن ، قال : أنت قادرة عليه بغير الثمن ، قالت : كيف ذلك ؟ فأخبرها بالقصة فقالت : قد حملك الله على البردون ، أربحك النظر إلى بطن حسن ، فإذا كان غداً فتعال أنت ويعقوب فاجلسا ، فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيراً ، فإذا فعل ذلك وجئت أنا ، فقل : أنت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته ، قال : نعم ، فلما جاءت مهدية ، قال لها : إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه ، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت : مثلك يا بن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى ، وشقت جيبها إلى أن جاوزت أسفل البطن وهي قائمة ، فنظر إلى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتم ابن الساحر ، فقام إليها يترضاها ويسكنها ، ويعقوب يقول : وابدوناه فأخذه منه يحيى . وعن المساور قال : كان عندنا بالأهواز رجل متأهل ، وكانت له أرض بالبصرة ، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين ، فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عم في الدار ؛ وكان يكثر الانحدار بعد ذلك إلى البصرة ، فأنكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره ، ثم احتالت وبعثت من أورد خطأ لعم المرأة البصرية ، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه توفيت ، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت ، ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملاح . فلما أتى بالكتاب خرج إليه فدفع الكتاب ، ولم يشك أن امرأته البصرية ماتت ، فقال لامرأته : اجعلي لي سفرة ، قالت : ولم ؟ قال : أريد الخروج إلى البصرة ، قالت : وكم هذه البصرة ؟ قد رايتي أمرك ، وما أشك أن هنالك لك امرأة ، فأنكر ذلك ، فقالت : إن كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري ، فقال في نفسه : تلك قد ماتت ، وليس علي أن أحلف بطلاقها فأرضي هذه ، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية ، فقالت الأهوازية : يا جارية هات السفرة ، فقد أغناه الله عن الخروج ، قال : وما ذلك ؟ قالت : قد طلقت الفاسقة ، وقصت عليه القصة ، فعرف مكرها ، وأقام (1).

اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا

وقيل كان لفتى من قریش جارية مليحة الوجه حسنة الادب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته إضاقة وفاقه فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوَقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا أولم يحضرها فلم يلبث أن أتى له بها فقال لها الحجاج يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إلي فاخترت ابن عمي شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ما شئت قال هاتي ولا تخفى شيئا قالت كنت للفتى القرشي فاحتاج إلي ثمني فحملني إلى الكوفة فلما قربنا منها دنا مني فوق علي فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه ثم أقبل علي وما برد ما عنده ثم قضى حاجته وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إلي فلما علا بطني وقعت فأرة من السقف فضرط ثم غشي عليه فمكث زمانا طويلا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعا منك فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا قالت على أن لا تردني إليه قال لك ذلك⁽¹⁾.

ثلاث جوار

وذكر محمد بن واسع الهيثي أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أما بعد إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أباكرا يكون إليهن المنتهي في الجمال وأكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالخصاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزلوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس

لهن مثل قال وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ
ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً
إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل ومبلغ ثمنها فوجدهن لا
يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن وصلني كتاب أمير المؤمنين
أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أنني اشتري له ثلاث جوار مولدات أبقارا
وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثننها فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى
بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عيطاء السوائف عظيمة الروادف كحلأ
العينين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهذاها والتفت فخذها كأنها ذهب شيب
بفضة وهي كما قيل :

بيضاء فيها إذا استقبلتها دج ... كأنها فضة قد شابها ذهب وثننها يا أمير
المؤمنين ثلاثون ألف درهم وأما الثانية فإنها جارية فائقة في الجمال معتدلة
القدر والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم وثننها يا أمير المؤمنين ستون
ألف درهم وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عميمة الردف
شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال كأنها خشف الغزال وثننها يا أمير
المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين
وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم تجهزوا للسفر بهؤلاء
الجواري إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير إني رجل كبير
ضعيف عن السفر ولي ولد ينوب عني افتأذن لي في ذلك ؟ قال نعم فتجهزوا
وخرجوا ففي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت
الجواري فهبت الريح فأنكشف بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع
وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها
لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول
أمكتوم عيني لا تمل من البكا ... وقلبي باسهم الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى ... وقلبي رهين كيف لا أتعشق فأجابته
تقول :

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ... ليلاً إذا هجعت عيون الحسد
قال فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها
قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه
وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن
مروان فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتح وقرأه فوجد الصفة
وافقت اثنتين من الجواري ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي

الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال فقالوا يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان قال وان كذبتكم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديدا وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول :

أمير المؤمنين أتيت رغما ... وقد شدت إلى عنقي يديا
مقرا بالقبيح وسوء فعلي ... ولست بما رميت به برياً
فان تقتل ففوق القتل ذنبي ... وان تعفو فمن جود عليا

فقال عبد الملك يا فتى ما حملك على ما صنعت استخفاف بنا أم هوى الجارية قال وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال هي لك بما أعدته لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلّي والحلل وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهلها حتى إذ كانا ببعض الطريق نزلاً بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك (1).

عقيلة نساء العرب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر فلما خرج عبد الله بن إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد لكنك أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً قال مهلاً يا ابن أخي فلست أهلاً لهذه المقالة منك قال بلى والله وبشر منها قال وفيما ذلك ؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها بتفخذ قال وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي ؟ قال نعم فقال عبد الله والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأباك منعتاني رفقاً حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدداً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتني فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال ما لك يا أبا عباس ؟ قال إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد

الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف⁽¹⁾ .

خذي العفو مني تستديمي مودتي

زوج أسماء بن خارقة الفزاري ابنته هند من الحجاج بن يوسف. فلما كانت ليلة أراد البناء بها قال لها أسماء: يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل. وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق. وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، واعلمي أنني القائل لأمك حيث أول: الطويل خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تغضبي في سورتني حين أغضب ولا تنقريني نقرك مرة ... فإنك لا تدريين كيف المغيب فإني وجدت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب⁽²⁾

معي وديعة

وجلس على باب زياد ، فمرت به ساقية ، فوضعت قربتها ، وقالت : يا شيخ . احفظ قربتي حتى أعود ، ومضت ، وأتاه الأذن فقال : انهض . قال : لا ، فإن معي وديعة . وأقام حتى جاءت (3).

أفيأس ورواح أم حبس ونجاح

يحكى أن الأحنف بن قيس قدم على معاوية فأقام شهراً لا يسأله فيما جاء فقال يا أمير المؤمنين إنك ترعيني مرعى وبيلاً وتوردني ظمأ طويلاً أفيأس ورواح أم حبس ونجاح فقضى حاجته(4).

هذا وأبيك السوداء والشرف

قال قتيبة بن مسلم أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة فقال قل له كان في قومك دم وجراح وحمالات وقد اجتمعوا في المسجد وأحبوا حضورك وأن يحملوك بعض ذلك ويقسم باقي ذلك على من حضر المسجد قال

¹ (المستطرف ، 2 / 360

² (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 385/1

³ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نشر الدر ، 5 / 36

⁴ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 151/1

قتيبة فدخلت عليه منزله فأخبرته فقال يا جارية غديني فجاءت له بكسيرات خشن وبتميرات وشيء من زيت فجعلتهن في مريس ثم صبت عليه من الزيت والماء فأكل ثم شرب عليه شربة من ماء ومسح يده . قال قتيبة فجعل شأنه يصغر في عيني وقلت وما عسى أن يكون من هذا فلما فرغ قال الحمد لله حنطة الأهواز وتمر وزيت الشام من يقدر يؤدي شكر هذا ثم أخذ نعليه وارتدى بردائه ثم انطلق معي إلى المسجد الجامع فصلى ركعتين فجعلت أنظر إلى كسوته فإذا هي رثة تساوي دريهمات فقلت في نفسي ما يغني هذا ّ لو صلح صلح لنفسه ثم قام حتى أتى حلقة القوم فلما اتاهم قام له وجوه أشراف البصرة فجلس واحتبى وداروا حوله حلقة فاجتمع الطالبون والمطلوبون فأكثرُوا الكلام فقال إلى ماذا صار أمرهم قالوا إلى خمس وأربعين دية فقال لهم هي علي كلها ثم قام فالتفت أبي إلى من حضر فقال هذا وأبيك السؤدد والشرف (1).

حمدنا الله وعذرناك

دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم فقال له أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك فإن تقضيها حمدنا الله وشكرناك وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك فأمر له بحاجته (2) .

لم أذمم يومك

وقدم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة ، فقال : أصلح الله الأمير . إني قد قطعت إليك الدهناء ، وضربت إليك آباط الإبل من يثرب . قال فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة ؟ ، قال : لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً ، فإن قمت بها ، فأهل ذلك ، وإن يحل دونها حائل ، لم أذمم يومك ، ولم أياس من غدك . فقال المهلب : يعطي ما في بيت المال . فوجد مائة ألف درهم ، فدفعت إليه ، فأخذها وقال :

يا من على الجود صاغ الله راحته . . فليس غير البذل والجود عمت عطايك من بالشرق قاطبة .. فأنت والجود منحوتان من عود (3)

1 (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم، 1/407

2 (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم، 1/702

3 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي، ص92

بل العجب من ألا تفعل

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب في حمالات لزمته قال فقال له إنه قد عظم شأنك عن أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تصنع شيئاً من المعروف إلا وأنت أكبر منه وليس العجب من أن تفعل بل العجب من ألا تفعل فقضى حاجته⁽¹⁾ .

ومن سخاء يزيد بن المهلب

قال المدائني: جاء رجل إلى يزيد بن المهلب فامتدحه، فأحمد عقله وفصاحته فجعله أحد ندمائه، وكان ينصرف في كل يوم من عطيته بمائة دينار، فلما أراد الرحيل والانصراف إلى أهله أمر له بثلاثة آلاف دينار، ثم قال: إن - والله - ما أستقلها تكبراً ولا أستكثرها امتناناً، ولا أستزيدك بها ثناءً ولا أقطع لك بها رجاءً(2).

رأيتك في المنام

قال عمرو الكوفي: دخل حمزة بن بيش على يزيد بن المهلب يوم جمعة وهو يتأهب للمضي إلى المسجد، وجارية تعممه فضحك، فقال: له يزيد: مم تضحك، فقال: لله رؤيا رأيتها إن أذن لي الأمير قصصتها، قال: قل، فأنشأ يقول:

رأيتك في المنام سننت خزاً (3)... علي بنفسجاً وقضيت ديني
فصدق ما هديت اليوم رؤيا ... رأتها في المنام كذاك عيني
قال: كم دينك؟ قال: ثلاثون ألفاً، قال: قد أمرت لك بها وبمثلها، ثم قال: يا غلمان! فتشوا الخزائن فجيؤه منها بكل خز بنفسج تجدونها، فجاءوا بثلاثين جبة، فنظر إليه يلاحظ الجارية، فقال: يا جارية عاؤني عمك على قبض الجباب، فإذا وصلت إلى منزله فأنت له، فأخذها والجباب والمال وانصرف(4).

¹ (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم ، ص256

² (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 47/1

³ (سننت خزاً أي ألقيته وصيبته علي

⁴ (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 194/1

فافعل به كبعض فعلاتك الأول

قال عبد الله بن الكوفي: أغرم سليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة من غزاته في البحر ألف ألف درهم، فمشى إلى يزيد بن المهلب وقد ولي العراق بعثمان بن حيان المري والقعقاع ابن خالد العبسي والهيل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس، فلما انتهوا إلى باب سراق يزيد أذن لهم الحاجب في دخوله، وأعلمهم أنه يغسل رأسه، فلما فرغ خرج في سبئية فألقى نفسه على فرشه ثم قال: ما ألف بينكم؟ فقال عثمان: هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا، كان الوليد حمل معه مالا حيث وجهه إلى البحر، فأعطاه جنده، فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم، فقلنا: يزيد سيد أهل اليمن ووزير لسليمان وصاحب العراق ومن قد تحمل أمثالها عمن ليس مثلنا، ووالله لو وسعتها أموال قيس لاحتملناها. ثم تكلم القعقاع فقال: يا ابن المهلب هذا خير ساقه الله إليك، وليس أحد أولى به منك، فافعل به كبعض فعلاتك الأول، فلن يصدقك عن قضاء هذا الحق ضيق ولا بخل، وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل، فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا. ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال: يا ابن المهلب، إني لو وجدت من الممشى إليك بداً لما مشيت إليك، لأن أموالك بالعراق، وإنما أتيتنا خائفاً، ثم أقمت فينا ضعيفاً، ثم تخرج من عندنا محروباً. وايم الله لنن تركناك بالشام لناثنين بالعراق، وما ها هنا أقرب في الحظوة وأوجب للذمام. ثم تكلم ابن خيثمة فقال: إني لا أقول لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء، أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعول، لا والله ما عند قيس له فكاك، ولا في أموالهم متسع، ولا عند الخليفة له فرج. ثم تكلم ابن هبيرة فقال: أما أنا فقد قضيت حاجتي رددت أم أنجحت لأنه ليس لي أمامك متقدم ولا خلفك متأخر، وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها. فضحك يزيد بن المهلب وقال: إن التعذر أخو البخل، ولا أعذر، فاحتكموا، فقال القعقاع: نصف المال، فقال يزيد: قد فعلت، أرنا يا غلام غداءك، قال: فجيء بالطعام فأكرنا منه أكثر مما عرفنا، فلما فرغنا أمر بتطييبنا وحملائنا وإجادة الكسوة لنا، قال: ثم خرجنا، حتى إذا مررنا قال ابن هبيرة: أخبروني عما بقي من يحمله بعد ابن المهلب؟ لقد صغر الله أقداركم وأخطاركم، والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام، وما هما عنده إلا سواء، ارجعوا إليه فكلموه في الباقي، قال: وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون إليه في التمام، فقال للحاجب: إذا عادوا فأدخلهم، فلما عادوا أدخلهم، فقال لهم يزيد: إن ندمتم أقتلناكم، وإن استقلتم زدناكم، فقال له ابن هبيرة: يا ابن المهلب، إن البعير إذا

أوقر أثقلته أذناه وأنا بما بقي مثقل، فقال: قد حملتها عنك، ثم ركب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين إنك إنما رشحتني لتبلغ بين وإني لا أضيق عن شيء اتسع له مالك، وما في أيدينا عوار لك تصطنع بها الناس وتبتني بها المكارم، ولولا مكانك ظللنا بالصغير. ثم قال: إنه أتاني ابن هبيرة في وجوه أصحابه، فقال له سليمان: أمسك أذاك في مال الله عنده، خب صب، جموع منوع، خدوع هلوع، هيه فصنعت ماذا؟ قال: حملتها عنه، قال: احملها إذاً إلى بيت مال المسلمين، قال: والله ما حملتها خدعة وأنا حاملها بالغداة، ثم حملها فلما أخبر سليمان بذلك دعا يزيد فلما رآه ضحك وقال: ذكت بك ناري، ووريت بك زنادي، غرمها علي وحمدتها لك، قد وفيت لي يميني فارجع المال إليك، ففعل(1).

والله ما يبالي يزيد أنصفاً حمل أم المال؟!

استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على غزاة البحر وأمره بالنفقة. فلما ولي أخوه سليمان بن عبد الملك عزله وأغرمه من ذلك المال ألف ألف درهم. قال: فاجتمعت رجال من قيس لذلك الغرم؛ فقالوا: إلى أين تذهبون وبمن تستعينون؟! قال، فقال لهم قائل: هل لكم في يزيد بن المهلب؟ قال: ويزيد يومئذ على شرط سليمان بن عبد الملك وما وراءه بابه. قال: فخرجوا حتى دخلوا عليه فتقدم عثمان بن حيان المري صاحب الغرم فقال: زاد الله في توفيقك وسرورك! إن الوليد رضي الله عنه استعملني على غزاة البحر وأمرني بالنفقة فأنفقت؛ وإن سليمان أمير المؤمنين - مد الله في بقائه أغرمني من ذلك المال ألف ألف درهم؛ والله ما يسعها مالي ولا يبلغها أُملي، وقلت يزيد بن المهلب، سيد أهل العراق، وصاحب المشرق ووزير الخليفة، وأتيتك لتحمل عني من ذلك ما سهل عليك، وما يبقى والله علي ثقل! قال: ثم سكت. وتقدم فلان القيسي خال الوليد بن عبد الملك؛ فقال: أصلحك الله! إنه ما خص هذا عمنا وقد أتيناك في أمر لم نجد أحداً ينفرد به ولا يساعد من يعين عليه فإن تكف فليس بأكثر ما فيك، وإن تدفعه فما له سواك! قال: ثم سكت. وتقدم عمر بن هبيرة الفزاري، فقال: أصلحك الله! إنا والله لو وجدنا أحداً دونك لاخترناه، أو خلفك لتخطينا إليه! والله ما الدخان بأدل على أنه من النار ولا العجاج أنه من الرياح من ظاهر أمرك على باطنه وقد أتيناك شفعاء لابن حيان في هذا المال؛ فإن تستكثره فقد يظلع ما هو دونه، وإن تستقله فقد ترجى لما هو أكثر منه! قال، ثم سكت، وتقدم زفر الكلابي، فقال: أصلحك الله!

إنا والله لم نزنك بأحد الملوك إلا رجحت به ولم نقسك بأحد منهم إلا ارتفعت عليه، ولا غاية يبلغها أحد إلا وقد بلغتها وأنت فيها مقدم وحقك فيها معظم، وقد لأتيناك شفعاء لابن حيان في هذا المال والله ما العجب من أن تفعل ولكن العجب من أن لا تفعل وأنت أنت! قال: فقال أبو خالد: مرحباً بكم وأهلاً! إن خير المال ما بقي به العرض، وإنما لي من مالي ما فضل عن النوائب، ولو علمت أحداً أملاً بحاجتكم مني لأرشدتكم إليه! فاحتكموا! قالوا: نصف المال! فلما كانوا على باب السراشق قال لهم قائل: إلى أين تذهبون وبمن تسعينون! والله ما يبالي يزيد أنصفاً حمل أم المال؟! فارجعوا! فرجعوا فقال: مه! قالوا: أقلنا أصلحك الله! قال: قد أقلتكم! قالوا: المال كله! قال: المال كله! قال، فبعث إليه ابن الرقاع العاملي بأبيات فيها:

فلم تر عيناى كمثل حمالة ... تحملها كبش العراق يزيد وقالوا:

أقل يا بن المهلب زلة ... فقال أقلتكم إن ذا لعنيد
تحمل عنهم بألف ألف برسله ... ولو أنهم سألوا المزيد لزيدوا
رأى عمر أن ليس يحمل ثقلها ... سواه وما عن قول تلك محيد (1)
أصبتك رخيصاً فاشتريتك

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده:
صح في قيدك السماحة والجو ... د وفك العناة والإفضال
قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال: أصبتك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف (2).

تحملها كبش العراق يزيد

استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على المدينة وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فلما استخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم. فاجتمعت القيسية في ذلك، فتحملوا شطرها وضاقوا ذرعاً بالشطر الثاني، ووافق ذلك استعمال سليمان يزيد بن المهلب على العراق. فقال عمر بن هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلب فما لها أحد غيره. فتحملوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هبيرة، والققعاق بن حبيب، والهذيل بن زفر بن الحارث، وانتهوا إلى رواق يزيد. قال يحيى بن أقتل - وكان حاجباً ليزيد بن المهلب، وكان رجلاً من الأزد - : فاستأذنت لهم، فخرج يزيد إلى الرواق فقرب ورحب، ثم دعاء

(1) ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص30

(2) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد، 87/1

بالغداء، فأتوا بطعام، ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا. فلما تغدوا، تكلم عثمان بن حيان وكان لساناً مفوهاً وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير، إن الوليد بن عبد الملك وجهني إلى المدينة عاملاً عليها، وأمرني بالغلظة على أهل الظنة وصخذ عليهم، وإن سليمان أغرمني غرماً، والله ما يسعه مالي ولا تحمله طاقتي، فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خف عليك، وما بقي والله ثقيل علي. ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم، فقال يزيد بن المهلب: مرحباً بكم وأهلاً، إن خير المال ما قضيت فيه الحقوق، وحملت به المغارم. وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني، وأيم الله، لو علمت أن أحداً أملاً بحاجتكم مني لهديتكم إليه، فاحتكموا وأكثروا. فقال عثمان بن حيان: النصف، أصلح الله الأمير. قال: نعم وكرامة، اعدوا على مالكم فخذوه. فشكروا له وقاموا فخرجوا. فلما صاروا على باب السراشق، قال عمر بن هبيرة: قبح الله رأيكم، والله ما يبالي يزيد أنصفها تحمل أم كلها، فمن لكم بالنصف الباقي؟ قال القوم: هذا والله لرأي. وسمع يزيد مناجاتهم، فقال لحاجبه: انظر يا يحيى إن كان بقي على القوم شيء فليرجعوا. فرجعوا إليه. وقالوا: أقلنا. قال: قد فعلت. قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلها فانت أهلها، وإن أبيت فما لها أحد غيرك. قال: قد فعلت. وغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان. فقال: يا أمير المؤمنين أتاني عثمان بن حيان وأصحابه، قال: أمسك في المال؟ قال: نعم. قال سليمان: والله لأخذنه منهم. قال يزيد: إني قد حملته. قال: فأده. قال يزيد: والله ما حملته إلا لأؤديه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن هذه الحمالة وإن عظم خطبها، فحمدها والله أعظم منها، ويدي مبسوطة بيدك. فابسطها لسؤالها. ثم غدا يزيد بالمال على الخزان فدفعه إليهم. فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال. فقال: وفت يمين سليمان، احمّلوا إلى أبي خالد ماله: فقال عدي ابن الرقاع العاملي: والله علينا من رأى كحمالة ... تحملها كبش العراق يزيد(1)

والمكرمات قليلة العشاق

قال الأصمعي: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاة من بني ضنة، فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا ... طلب إليك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد ... أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التي عودتنا ... أو لا فأرشدنا إلى من نذهب
فأمر له بألف دينار. فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:
مالي أرى أبوابهم مهجورة ... وكأن بابك مجمع الأسواق
حابوك أما هابوك أم شاموا الندى ... بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيتك للمكارم عاشقاً ... والمكرمات قليلة العشاق
فأمر له بعشر آلاف درهم.

إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي

مر يزيد بن المهلب بأعرابية في خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة، فقرته عنزاً فقلبها، وقال لابنه معاوية: ما معك من النفقة؟ فقال: ثمانمائة دينار، قال: فادفعها إليها، قال أبنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بعد لا تعرفك فقال له: إن كانت ترضى باليسير، فأنا لا أَرْضَى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي ادفعتها إليها (1).

لقد أسأنا إلي أبي ايوب

وقيل إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلافه وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك ابن مروان وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامة عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن

وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين أني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ثم طالبة بعدها

بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلى واستجار بي فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يختبرني في ضيفي فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم فكتب إليه الوليد إنه لا بد أن ترسل إلي يزيد مغلولاً مقيداً فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيدته ودعا يزيد بن المهلب فقيدته ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعاً بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبداً بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استيحاء وقال لقد أسأنا إلي أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلما ظلم الحجاج ثم أنه أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فأياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل (1).

أفاض القوم في ذكر الجوارى

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء وله أخبار في الجود عجيبة من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيت فقلت أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك قال إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض إخواني إذهب إليه

فقلت كان جوابه فيه ضعيف قالوا أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت إلى يزيد وقال إيه يا عقيل فقلت أفاض القوم في ذكر الجوارى ... فأما الأعزبون فلن يقولوا قال إنك لم تبق عزباً فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرية عشرة آلاف درهم وفي الليلة الثانية كذلك فمكث عشر ليالي وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر

فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكبت عدوى وأسر صديقي فقال إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أولم أيها الأمير قال إنما هذا تغني أثاث المنزل ومصلحة القدم فنألني من فضله مالا أقدر على وصفه (1).

امراته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجاءه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها إنني قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امراته طالق إن حلقت رأس أحد بعدك (2).

هذا الذي خفت منه

وقيل إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب أستأذن لي عليه فقال إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق إنما أتيت متوجعا لما فيه ولم آت ممتدحا فأذن له فلما أبصره قال :
أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة ... ولا أخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة ... وما لجواد بعد جودك جود
فقال يزيد للحاجب ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعك من دخولك عليه ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف (3).

هل لك في أمير المؤمنين بعلا

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبابين الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكمت شمساً عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلا فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول
فإن تسألاني عن هواي فإنه ... يحول بهذا القبر يا فتیان
وإنني لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه وهو يراني (1)

(1) المستطرف 1، 300/

(2) المستطرف 1، 354/

(3) المستطرف 1، 300/

فأرشدنا إلى من نذهب

حكى الأصمعي أنه قدم على يزيد قوم من قضاة فقال رجل منهم :
والله ما ندري إذا ما فاتنا . . . طلب إليك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد . . . أحد سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا . . . أو ، لا فأرشدنا إلى من نذهب
فأمرنا له بألف دينار (2).

خير من ألف جريب مزروع

يروى أن خالد بن صفوان دخل على يزيد بن المهلب وهو يتغدى فقال : ادن ،
فكل . فقال : أصلح الله الأمير لقد أكلت أكلة لست ناسيها . قال : وما أكلت ؟
قال : أتيت ضيعتي لإبان الأغراس ، وأوان العمارة فجلت فيها جولة حتى إذا
صحرت الشمس ، وأزمت بالركود ، ملت إلى غرفة لي هفافة ، في حديقة قد
فتحت أبوابها ، ونضح بالماء جوانبها وفرشت أرضها بألوان الرياحين من
بين ضيمران نافخ ، وسمسق فائح ، وأقحوان زاهر ، وورد ناضر ، ثم أتيت
بخبز أرز كأنه قطع العقيق ، وسمك جراني بيض البطون ، زرق العيون ،
سود المتون ، عراض السرر : غلاظ القصر ، ودقة وخلول ، ومرى وبقول ،
ثم أتيت برطب أصفر صاف غير أكر لم تبدله الأيدي ، ولم تهشمه كيل
المكايل ، فأكلت هذا ثم هذا ، قال يزيد : يا بن صفوان لألف جريب من كلامك
، خير من ألف جريب مزروع (3).

كيف أصبح الأمير ؟

دخل أعرابي على يزيد بن المهلب ، وهو في فراشه والناس سباطان فقال :
كيف أصبح الأمير ؟ قال يزيد : كما تحب . فقال : لو كنت كما أحب ، كنت أنت
مكاني ، وأنا مكانك . فضحك (4).

يسبقك إلى المنزل

قال أبو العيناء، حدثني القحذمي قال، قال خالد بن صفوان: حبس يزيد بن
المهلب ابن أخ لي، فصرت إلى بابه أنظم له كلاماً كما تنظم الفتاة عقدها
لعيدها، ثم أذن لي، وبين يديه جارية كأنها مهاة وفي يدها مجمرة ذهب، فلما

1 (المستطرف ، 1/394

2 (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة ، طيب المذاق من
ثمرات الأوراق ، تحقيق : أبو عمار السخاوي ، دار الفتح - الشارقة - 1997م ، ص120

3 (الآبي، نشر الدر ، 6/298

4 (الآبي، نشر الدر ، 6/19

رأيتها سلبت الكلام الذي كنت أعدته، وحضرتني كلمتان فقلت: والله ما رأيت صداً المغفر ولا عبق العنبر بأحد أليق به منكم، قال: حاجتك؟ قلت: ابن أخي محبوس، قال: يسبقك إلى المنزل، فجئت إلى المنزل وقد سبقني إليه(1).

عوجل أبوك وربّ الكعبة

قال يزيد بن المهلب: دخلت الحمام مع سليمان بن عبد الملك ومعنا عمر بن عبد العزيز، فقال لي عمر: إني محدّثك حديثين: أحدهما سرّ والآخر علانية؛ أما العلانية فإن هذا سيوليك العراق، فاتق الله، وأما السرّ فإني كنت فيمن دلى الوليد بن عبد الملك في حفرتة، فلما صار في أيدينا اضطراب في أكفانه فقال ابنه: عاش أبي وربّ الكعبة، فقلت: كلاً، ولكن عوجل أبوك وربّ الكعبة(2).

فمن لخرسان؟

لما أتى سليمان بن عبد الملك برأس قتيبة كتب لوكيع بن أبي سود عهده على خراسان، فقال يزيد بن المهلب لابراهيم بن الأهم: إن رددت أمير المؤمنين عن رأيه في وكيع فلك مائة ألف، فقام ابن الأهم فتكلم بكلام تفرق الناس عن استحسانه فقال: يا أمير المؤمنين، إن وكيعاً أدرك في الثأر، وبالغ في الطاعة، فجزاه الله خيراً، غير أنني لو خفت من إحدى يدي خلافاً على أمير المؤمنين لأحببت انبثاتها من صاحببتها، وإن وكيعاً لم يملك مائتي عناق قط فحدث نفسه بالطاعة، فلا تأخذنا بحديث إن كان منه، فقال سليمان: ويحك فمن لخرسان؟ قال: العبد في الطاعة، والأخ في النصيحة، يزيد، فولاه(3).

لو كان تاركاً للسخاء يوماً لتركه اليوم

وحبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب لباقي عليه كان بخراسان وأقسم لجأدينه كل يوم مائة ألف درهم فبينما هو قد جباها له ذات يوم إذ دخل عليه الأخل فأنشده

أيا خالداً ضاقت خراسان بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيد
وما قطرت بالشرق بعدك قطرة ... ولا أخضر بالمرين بعدك عود
وما لسرير بعد بعدك بهجة ... وما لجواد بعد جودك جود

(1) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 305/1

(2) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 483/1

(3) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 384/1

فقال يا غلام أعطه المائة ألف درهم فإننا نصبر على عذاب الحجاج ولا نخيب الأخطل فبلغت الحجاج فقال لله در يزيد لو كان تاركاً للسخاء يوماً لتركه اليوم وهو يتوقع الموت (1).

ومن أخبار يزيد أن الفرزدق دخل عليه وهو محبوس فلما رآه مقيداً قال له أصبح في قيدك السماحة وال ... جود وحمل الديات والحسب لا بطران ترادفت نعم ... وصابر في البلاء محتسب

فقال له يزيد ويحك ما أردت بمدحتي وأنا على هذه الحالة فقال الفرزدق وجدتك رخيصاً فأحببت أن أسلفك بضاعتي فرمى إليه بخاتم كان في أصبعه قيمته ألف دينار وقال هو ربك أمسكه إلى أن يأتيك رأسك المال (2) .

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفِّقنا لأداء حَقِّه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده . فيا أيها القاريءُ له ، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يردَّ الحقَّ إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، وردَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً .

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: "فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات".

وقال أيضاً: " .. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب"(1).

فإذا مر بك -يا أخي- ما لا يعجبك فلا تصعِّر خدك، ولا تعرض بوجهك، ولا تسئل لسانك، ولا تجلب بخيلك ورَجْلَكَ، وخذ من الكتاب ما يعجبك واتهم الفهم.

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ولا يصدنك عن الحكمة قائلها؛ فقد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير الرامي، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ.

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَغُضِّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّيْ يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة ، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال ، كما قيل :

وَالنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ... فَبَنُوا الطَّبِيعَةَ نَقْصُهُمْ لَا يُجَحِّدُ

وكيف يُعَصِّمُ من الخطأ من خُلِقَ ظلوماً جهولاً ، ولكن من عُدَّتْ غلطاته أقرب إلى الصوابِ ممن عُدَّتْ إصاباته ، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق ، وغايته النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولإخوانه المسلمين ، وإن جعل الحق تبعاً للهوى : فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت